سلسلة الدراسات التربوية والنفسية
(٧)

مستويات النفس

الدكتور/ **محمد عبد الفتاح المهدى**
دكتوراه الطب النفسى – جامعة الأزهر الشريف
استشارى الطب النفسى

تقديم

أ.د. محمد شعلان
أستاذ الطب النفسى بجامعة الأزهر

أ.د. صالح بن سعيد اللحيدان
مستشار بوزارة العدل – السعودية

الناشـر
الملتقى المصرى للإبداع والتنمية
توزيع : البيطاش سنتر للنشر والتوزيع
٢٤ عمارة برج عين شمس – البيطاش – الإسكندرية
ت : ٤٨٤١٤٦٩– ٤٣٥٢٣١٩ – فاكس: ٠٣/ ٥٨٣٧٢٥٣

اسم الكتاب : مستويات النفس

المؤلف : د/ محمد عبد الفتاح المهدى

الناشر : الملتقى المصرى للإبداع والتنمية

الطبعة : الأولى

سنة الطبع : ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ١٣٩٠٦/ ٢٠٠٢

الترقيم الدولي : 977-5890-62-4

المطبعة : فجر الإسلام – جليم – الإسكندرية

·ثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح
المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد
فأين منه الطب الذى يعالج به الأجساد
وهى معرضة بالضرورة للفساد
فى أقرب الآماد·

(الإمام أبو حامد الغزالى)

إهـــداء

إلى أخي الحبيب

الأستاذ الدكتور

يسرى دعبس

الذى تحمس كثيرًا لنشر هذا الكتاب ورعاه حتى خرج فى هذه الصورة، وهو نموذج مثابر فى دفع مسيرة العلم والثقافة ولا يستسلم أبدًا للصعوبات والإحباطات مهما ارتفعت أمواجها وهو فوق ذلك دائم الصعود إلى المستويات الأعلى من الوجود الإنسانى فكريًا ووجدانيًا وروحيًا.

تقديم الأستاذ الدكتور / محمد شعلان

أستاذ الطب النفسى – ومؤسس قسم الطب النفسى – جامعة الأزهر

فكرة هذا الكتاب تذكرنى بكلام "إبراهام ماسلو" عن احتياجات الإنسان، فهو يبدأ بالاحتياجات الأدنى الأساسية (Basic Needs)، ثم الاحتياجات العاطفية (Emotional Needs)، ثم احتياجات تقدير الذات (Self Esteem)، ثم احتياجات تحقيق الذات (Self Actualization).

ومنظمة الصحة العالمية حين تعرضت لتعريف الصحة أشارت إلى مستوياتها البيولوجية والنفسية والاجتماعية والروحية (Bio-Psycho - Socio - Spiritual). فرؤية النفس فى مستويات أربع (جسدى – عقلى – قلبى – روحى) يضيف رؤية جديدة ليست مطابقة لماسلو ولكنها إضافة يمكن الأخذ بها والاستفادة منها.

ومفاهيم الجسد والعقل والقلب والروح يمكن تطبيقها كمستويات تصاعدية فى المجال العلمى فهى ليست قاصرة على الاستخدام الفلسفى، وليس هناك تعارض بين العلوم النفسية والمصطلحات والمفاهيم الدينية، فالدين يتكلم عن النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة، وهذه المفاهيم –مع أنها مفاهيم دينية– إلا أنها تمثل واقع علمى تطبيقى.

والمستويات المقترحة (وإن كنت أميل لإعادة ترتيبها كالتالى : جسدى– قلبى – عقلى – روحى) ليست مستويات تنظيرية، ولكنها مستويات تصلح لأن تكون تطبيقية، فكلما ارتقيت بالنفس كلما كان عندك مرونة للتعامل مع أكثر من مستوى، فالإنسان حين يتعامل عند المستوى العقلى، فهو يحتوى العقلى والبدنى معًا، وحين يتعامل عند المستوى القلبى فهو يحتوى لقلبى والعقلى والبدنى، وإذا صعد إلى المستوى الروحانى فهو يتعامل مع كل المستويات، فى حين أن التجمد عند مستوى معين لا يرتقى بالنفس. وعلى الرغم من منطقية الارتقاء بهذه المستويات من الأدنى إلى الذى يليه فى ترتيب تصاعدى، إلا أن هناك بعض المعالجين يعمدون مباشرة إلى المستويات الأعلى فينشطونها، وبهذا تنشط المستويات الأدنى تلقائيًا.

والكتاب يناقش موضوع الفطرة باستفاضة وبشكل جديد، والفطرة تقابل فى علم النفس "الغريزة" بمعناها الواسع، أى الشىء الذى نولد به ولا نكتسبه من

البيئة، وهي لا تقتصر على الجنس والعدوان، كما حددها "فرويد" وإنما تتسع لكل ما هو مجبول فينا من بداية خلقنا ولم نصل إليه بالخبرة أو التعلم، وعند "يونج" هناك أشياء عقلية لا نكتسبها بالتعلم وإنما هي موجودة فينا من الأصل وتسمى الموروثات (Archetypes).

وعلى الرغم من أن الخير موجود والشر موجود إلا أنني -من موقفي الشخصي- أرى أن الفطرة الإنسانية أكثر ميلاً للخير وأنها بطبيعتها خيرة، والخير دائمًا يغلب على الشر، على الرغم مما يبدو في الحياة من أن الشر أكثر غلبة، وهو ليس كذلك.

ولكي نختبر مفهوم الفطرة لدى الإنسان في المواقف العلاجية ننظر كيف يتعامل مع بيئته دون تدخل خارجي، كيف يتعامل مع أبيه وأمه ومع أصدقائه دون تأثير خارجي، وكلما كان الإنسان تلقائيًا كلما كان أقرب إلى الطبيعة وكان أقرب إلى الخير، وعلى العكس كلما زاد التوجيه والقهر والافتعال كلما زاد ميله للشر، وليس كل توجيه ضار، ولكن الإنسان كلما كان قريبًا من فطرته وتلقائيته فهو أقرب إلى الخير.

وقد اختلف العلماء والفلاسفة في رؤيتهم للإنسان هل هو ذو تكوين ثنائي : جسد وروح أم ذو تكوين بيولوجي أحادي تنبسق منه وظائف مختلفة، والرأي الأغلب هو أن الإنسان كيان متكامل لا نستطيع أن نفرق بين جسده وروحه.

والإنسان لديه رغبة حقيقية في الخلود، ولديه ميل قوي للإيمان ببقاء الروح بعد فناء الجسد، والدين يعطي هذه الفرصة للبقاء، فالإنسان في الرؤية الدينية لا ينتهي بالموت، وإنما يعطي فرصة للبقاء لكي تكتمل القصة، وهذا احتياج مهم وغيابه يكون مؤلمًا.

وعلى الرغم من أن النشاط النفسي في المستويات المختلفة يبدو أنه يرتبط ارتباطًا تصاعديًا بمراحل العمر بحيث نرى المستوى الجسدي أكثر غلبة في المراحل المبكرة من العمر ويتلوه المستوى العاطفي (القلبي) ثم المستوى العقلي ثم المستوى الروحي، إلا أن هناك استثناءات لذلك، فأحيانًا نجد طفلاً لديه ميول روحانية قوية، ونجد شيخًا مرتبطًا ارتباطًا شديدًا باحتياجاته الجسدية.

وعند تقسيم الوظائف النفسية كالإدراك والتفكير والانفعالات والدوافع

إلى مستويات، لابد وأن نحترم حدود قدرة كل إنسان فى الصعود عبر هذه المستويات مع مساعدته على محاولة الارتقاء إلى المستويات الأعلى من خلال العلاج النفسى، ولو أخذنا الدوافع كمثال نجد أن الإنسان فى مراحل حياته المبكرة يشعر بأهمية كبيرة للدوافع الجنسية فى حين أنه بداية من منتصف العمر تتغير عنده هذه الأهمية حيث يشعر بقوة الدوافع الروحانية وغلبتها ويشعر برغبة قوية فى التوجه نحو الله، والعالم النفسى "يونج" هو الذى صحح الخطأ الذى وقع فيه "فرويد" حين اعتبر الأخير أن الدافع الجنسى هو أهم دافع فى حياة الإنسان كلها، فجاء "يونج" وأبرز أهمية الدوافع الدينية والروحية، فالدوافع تتغير مع مراحل العمر وهى ليست شيئًا ثابتًا فى كل المراحل.

وتعددية مستويات النفس يمكن فهمها ببساطة على أنها مثل جهاز لاسلكى له موجات مختلفة، وكل موجة تستقبل ترددات مختلفة، فمثلاً المستوى الجسدى له مستقبلاته ومؤثراته، وكذلك المستوى العقلى والمستوى القلبى والمستوى الروحى، وهذه الرؤية التعددية تعطى للمعالج النفسى فرصة مفتوحة للتواصل معه المريض بحيث يحدد أولاً المستوى النشط لديه (الموجه) ويبدأ فى التعامل مع على هذا المستوى ثم يحاول بعد ذلك تنشيط مستويات (موجات) أعلى، وبهذا نتعامل مع كل إنسان على حسب قدرته وطاقته، ونعمل على إشباع المستويات المختلفة بتدريج معقول، فحين نشبع المستوى الأدنى فإننا نعطى فرصة للمستوى الأعلى لكى ينشط، ولكن إذا تركنا المستوى الأدنى دون إشباع فإنه يظل ملحًا ومستقطبًا للاهتمام.

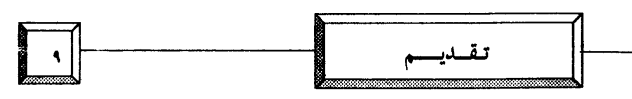
والمستويات بينها علاقات تبادلية، فما يحدث على المستوى الروحى يؤثر فى المستوى الجسدى والعكس أيضًا صحيح، والإنسان فى النهاية وحدة متكاملة.

وأخيرًا ومن خلال معرفتى القوية بالمؤلف أقول بأنه مبدع، لا يقلد، يجتهد ويبحث فى نفس الوقت ويرجع إلى التراث، وأفكاره ليست نابعة من فراغ وإنما يستلهمها من التراث والتاريخ والتفكير المبدع المستمر.

الأستاذ الدكتور / محمد شعلان

أستاذ الطب النفسى

جامعة الأزهر الشريف





تقديم فضيلة الدكتور صالح بن سعد اللحيدان(*)
(المملكة العربية السعودية)

من صالح بن سعد اللحيدان إلى الأخ الدكتور / محمد عبد الفتاح المهدى – وفقه الله لهداه

السلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد :

فقد سررت لصورة مسودة كتابكم الذى تزمع نشره "مستويات النفس"، سررت جدًا لأنه يدخل تحت دائرة اختصاصى المبكر وأخرى لأنه سوف يسد مسدًا طيبًا فى المكتبة الطبية العلمية الإسلامية.

وقد نظرته على عجل فألفيته كأننى أرى صديقى الكريم الدكتور / محمد المهدى بروحه الشفافة، ووفرة معلوماته، وحرصه على نهضة الأمة المسلمة بوعى وإخلاص وعمل جاد مستمر ومثمر، ووجدته سوف –بإذن الله تعالى– يكون كتابًا جديدًا لمسائل جديدة تحتاجه الأمة مجرجرة أقدامها تنشد الخير وتسعى إليه.

قلت وقد نظرته على عجل لكنها عجلة جادة –تفيدك إن شاء الله حسب فهمى.

ولعلمى بسعة صدرك ووفرة أدبك الجم فإننى أذكر لك رأيى فى الكتاب بعدما تقدم بوجه عام :

١– الكتاب جديد فى نظرته وطرحه.

٢– وجديد فى سعة نقله من مصادر عدة.

٣– ينبى عن فهم كبير لموضوعه الجديد.

٤– دقة اختيار العلاج لبعض مواطن المرض.

لكن الذى ألاحظه بعد هذا ما يلى :

١– اعتمادك جدًا على "الإحياء" للغزالى –رحمه الله تعالى– والإحياء ليس كتابًا علميًا، فقد وقع فيه الحديث الضعيف والموضوع (المكذوب)، وحصل فيه

(*) عرضت مسودة هذا الكتاب على فضيلة الدكتور صالح بن سعد اللحيدان نظرًا لما يحويه الكتاب فى بعض فصوله من نصوص وأقوال شرعية بهدف ضبطه وتقويمه من هذه الناحية بواسطة أحد العلماء المتخصصين الراسخين، وسوف أضع تصحيحات وتعليقات فضيلته فى مواضعها بالكتاب، شاكرًا لفضيلته ذلك الجهد وداعيًا له بكل خير (المؤلف).

مذاهب الحلولية والاتحادية، ولهذا حذّر منه العلماء جدًا، وقام الإمام الحجة العراقى فخرج أحاديثه وعلق عليه، فليتك إذا رجعت إليه عدت إلى الإحياء المحقق والمخرج، كما أن الغزالى إمام دعوة وتذكير.

٢- عدت إلى محمد قطب والسمان ونحوهما، وهما ليسا من ذوى الاختصاص العلمى الشرعى فى بيان منهج النص ودلالته -الأول داعية نشيط، والثانى ذو علم كبير فى النفس لكنه ليس عالمًا شرعيًا.

٣- لم تبسط النقد حيال فرويد ونحوه.

٤- لم تضع فى الكتاب توصيات علمية تجريبية.

٥- سرت مع الكتاب وعلقت عليه على عجل وسوف تجد هذا فى ثناياه.

وأخيرًا ... آمل قبول هذه الملاحظات، وقد كتبتها حسب فهمى.

نفع الله بك

أخوكم

صالح بن سعد اللحيدان

مقدمـــة

ما هى النفس ؟

وما هو العقل ؟

وما هو القلب ؟

وما هى الروح ؟

وما هى الفطرة ؟

أهى كلمات فلسفية ؟ ... أم تكوينات بيولوجية ؟.... أم كيانات لطيفة تسرى فى المادة (الجسم) أو فى الفراغ ؟

وهل هذه الكيانات قابلة للتناول فى مجال البحث العلمى الحقيقى أم أنها تظل فى مجال الماورائيات والمحاورات الفلسفية ؟

وهل هناك رباط ما بين هذه الكيانات يربطها ببعضها البعض ثم يربطها أفقيا ببقية الكائنات ثم رأسيا بعالم الملكوت ؟

وما هى وحدة العمليات المركزية الموجهة والمحركة لهذا الكيان المسمى بالإنسان ؟ وأين توجد هذه الوحدة المركزية ؟ أهى فى المخ أم فى كيان آخر ؟ ...

وهل هذه الوحدة المركزية توجد فى صورة مادة مقيدة أم طاقة حرة ؟

هذه التساؤلات وغيرها يحاول هذا الكتاب (بتواضع شديد) الإجابة عنها من خلال مستويات العلوم المتاحة والتى نوجزها فيما يلى:

١-العلوم الإلهية (الوحى).

٢-العلوم الإنسانية.

٣-العلوم الطبيعية.

لذلك سوف يجد القارئ نفسه أمام نصوص شرعية وعلوم بشرية وقراءات وملاحظات لآيات ومظاهر الكون الطبيعية. وفى رأى الكاتب لا يوجد تعارض بين هذه المصادر (بشرط صحتها وأصالتها) على أساس أن المصدر فى النهاية واحد، ويجب على الإنسان أن يستفيد من هذه المستويات المعرفية كلها ولا يسقط أى مستوى معرفى من حسابه خاصة إن كان يهدف إلى المعرفة الشاملة بأبعادها الطولية والعرضية والرأسية.

وحين ننتقل من الإجابة عن جزئيات هذا اللغز المسمى بالنفس وننتهى من

وضع التعريفات العملية لكثير من الألفاظ والمصطلحات بشكل علمى ـ حين يتم ذلك سوف نحاول رؤية النفس فى شكلها التركيبى الشامل وفى حركتها المستمرة. وهنا سوف نواجه بعدة تساؤلات حركية (ديناميكية) لا تقل أهمية عن التساؤلات التركيبية السابقة، ومنها :

هل النفس مستويات تصاعدية حركية أم أنها كيان هلامى غير واضح التدرج ؟

وهل تفيد رؤيتها فى صورة مستويات (متواصلة) عن رؤيتها ككيان هلامى متداخل؟

وهل مستويات النفس (التصاعدية الحركية) تنفصل عن بعضها البعض، بمعنى أن هناك مسافات وحدود فاصلة بين كل مستوى والمستوى الذى يليه ؟ ... أم أنها مستويات متواصلة، بينها مناطق رمادية تتداخل فيها أعلى صفات المستوى الأدنى مع أدنى صفات المستوى الذى يليه ؟

وهل فكرة المستويات فى الحديث عن النفس فكرة جديد تماما أم أن لها ما يؤيدها فى التراث العلمى الإنسانى والإسلامى بوجه خاص ؟

وهل لهذه الفكرة فوائد تطبيقية فى عملية التربية أو العلاج النفسى على وجه الخصوص ؟

وهل بعد كل هذه التساؤلات مازلنا فى المجال العلمى أم خرجنا منه إلى المجال الفلسفى ؟

فى الواقع إن المتأمل لأحوال النفس - خاصة إذا كان يتبع الأسلوب العلمى فى الملاحظة سوف يجد نفسه فعلا أمام نفس واحدة، ولكن لها عدة مستويات واضحة يمكن وصفها بصفات مميزة لكل منها. وهذه المستويات لا توجد بينها فواصل قاطعة بل هى مستويات متواصلة، كل مستوى يتداخل فى المستوى الذى يليه.

وهى مستويات حركية تنشط وتخبو تبعا لعوامل كثيرة منها مرحلة النمو ودرجة النضج والتطور والظروف المحيطة.

والفكرة ليست مقطوعة الصلة بالتراث فقد طرقت من قبل بشكل أو بآخر على مستوى علماء المسلمين. فقد تحدث علماء الصوفية كثيرا عن المراتب التى يتدرج فيها المريد على طريق التربية الروحية التى يولونها اهتمامهم الأكبر ثم جاء الإمام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الهروى الحنبلى فأدرك أهمية هذا الموضوع

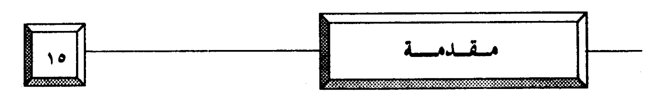
ولكنه أدرك فى نفس الوقت بعض الأخطاء التى وقع فيها الصوفية فى تناول هذا الموضوع المهم، لذلك وضع كتابه المعروف "منازل السائرين". ثم جاء من بعده الإمام ابن القيم الجوزية فأدرك أهمية هذا الموضوع، وأدرك أيضا بعض ما شابه من شوائب لذلك وضع كتابه المعروف "مدارج السالكين".

ونحن فى هذا الكتاب إذ نقدم موضوع مستويات النفس إنما نطرقه من جانبه العلمى النفسى المبنى على الملاحظة العلمية المسترشدة بضوء النصوص الشرعية الصحيحة. ونحن نهدف من هذا التناول رؤية أوضح لنفس الإنسان نسترشد فيها بالنصوص الدينية التى تتحدث عن النفس وترسم الإطار العام لها وفى نفس الوقت نستفيد من الملاحظات العلمية ونتائج التجارب العملية التى توافرت على مر الأجيال.

ومن خلال الخبرة العملية فى التعامل مع النفس البشرية يتضح مدى أهمية رؤية النفس بهذا الشكل "المستوياتي" الواضح بغية أن نستطيع رؤية المستوى الذى نقف (أو نتحرك) عنده، أو الذى يقف (أو يتحرك) عنده أى شخص .. وأيضا رؤية المستويات التى يجب أن نرقى إليها، وكيفية التدرج فى صعود تلك المستويات.. وأيضا أسباب الهبوط إلى المستويات الأدنى وهذا بالطبع يجعل عمليتى التربية والعلاج النفسى لنا ولغيرنا أكثر وضوحا وتحديدا.

وبما أننى أتحدث من منظور تخصصى فى الطب النفسى فإننى أعتقد أن رؤية النفس بهذا الشكل تسهل على المعالج النفسى فهم المريض، وتسهل عليه أيضا وضع خطة العلاج النفسى الملائمة. والعلاج النفسى فى هذه الحالة سيكون نوعا من التربية تهدف إلى الارتقاء بالمريض إلى المستويات الأعلى بقدر ما تسمح به ظروفه وقدراته الشخصية والأحوال البيئية المحيطة.

والصحة النفسية من هذا المفهوم تعنى تحقيق التوازن بين المستويات المختلفة للنفس بحيث يؤدى كل مستوى وظيفته دون تفريط أو إفراط، وبمعنى آخر: تحقيق التوازن بين متطلبات (ووظائف) الجسد، ومتطلبات (ووظائف) الروح والقرآن الكريم يوجز هذا المعنى فى الآية التالية:



﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص ٧٧).

وحينما يتحقق هذا التوازن بين البدن والروح تتحقق ذاتية الإنسان فى صورتها الحقيقية الكاملة والتى تمثلت فى شخصية الرسول صلوات الله عليه

وسلامه الذى توازنت فيه القوة الروحية الشفافة، والحيوية الجسمية الفياضة، فكان يعبد ربه حق عبادته فى صفاء وخشوع كاملين، كما كان يعيش حياته البشرية كغيره من البشر يشبع حاجاته البدنية فى الحدود التى رسمها الشرع، ولذلك فهو يمثل الإنسان الكامل، والشخصية الإنسانية النموذجية الكاملة التى توازنت فيها جميع القوى الإنسانية البدنية منها والروحية(*)[1] .

والشخص الذى ينساق وراء أهوائه وشهواته شخص غير سوى. وكذلك فإن الشخص الذى يكبت حاجاته البدنية ويقهر جسمه ويضعفه بالرهبانية المفرطة والتقشف الشديد، وينزع إلى إشباع حاجاته وأشواقه الروحية فقط، هو أيضا شخص غير سوى. وذلك لأن كلا من هذين الاتجاهين المتطرفين يخالف الطبيعة الإنسانية ويعارض فطرتها، ولذلك فلا يمكن أن يؤدى أى من هذين الاتجاهين إلى تحقيق ذاتية الإنسان الحقيقية، كما لا يمكن أن يؤدى بها إلى بلوغ كمالها الحقيقى[2].

وقبل أن أختتم هذه المقدمة، أرجو القارئ الكريم أن يشحذ حواسه ويفتح عقله وقلبه وينشط روحه أثناء مطالعة فصول هذا الكتاب لعله يجد إجابات للأسئلة التى طرحناها أو يخرج بتساؤلات أكثر .. وأن يكون مستعدا لتحمل بعض المشقة الذهنية الإيجابية .. وأن يؤجل حكمه إلى حين الانتهاء من قراءة جميع الفصول.

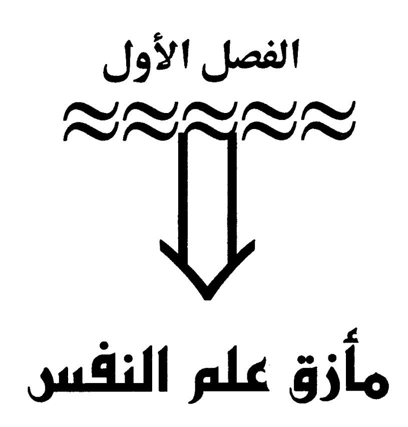
والله الموفق.

دكتور/ محمد المهدى
استشارى الطب النفسى
المنصورة - شارع الثورة
برج الدكرورى
ت : ٢٢٣٣٢٩٠ / ٠٥٠
٢٥٢٩٦٩٧ / ٠٥٠
٠١٢٢٨٨٦٥٣٧

٢٦ صفر ١٤٢٣هـ
٩ مايو ٢٠٠٢م

(*) انظر زاد المعاد لابن قيم الجوزية جـ١ ص٥-١٥٠ (دكتور صالح اللحيدان).

الفصل الأول



مأزق علم النفس



مأزق علم النفس

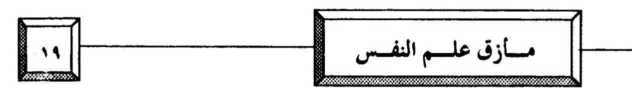
يبدو أن الدراسة العلمية للنفس قد تأخرت كثيرا ولم تواكب التقدم الهائل في العلوم الطبيعية والكيميائية والطبية، والسبب في ذلك ربما يرجع إلى طبيعة النفس وطبيعة الباحثين فيها. فالنفس البشرية تحمل كثيرا من الغموض والتعدد فهي مثل قطعة الماس لها أوجه كثيرة يمكن رؤيتها منها ولكن يصعب على الناظر أن يرى كل الأوجه، وهذا يجعل إحاطة الإنسان بحقيقة النفس عملية تكاد تكون مستحيلة أو على الأقل بالغة الصعوبة. أما من ناحية الباحثين والعلماء فإنهم في الغالب يميلون إلى ملاحظة واستكشاف الحقائق البسيطة التي يمكن التعبير عنها بمعادلات حسابية بسيطة أو بشكل كمي، والنفس عكس هذا تماما، فهي في كثير من نواحيها شديدة الغموض(*)(٢)، وأحيانا شديدة التناقض، ومن هنا آثر كثير من العلماء الابتعاد عن هذا المجال الغامض المتناقض والمتغير. وهذه النتيجة تبدو واضحة في مجال الطب حيث يفضل معظم الأطباء الاتجاه لتخصصات الطب التقليدية في حين تقبل قلة ضئيلة منهم على دراسة الطب النفسي، ويواجه الدارس في البداية مصاعب كثيرة حتى يتعود على احتمال الغموض واحتمال التناقض والتعدد والتغير المستمر (بلا قانون بسيط) في النفس البشرية.

والمشكلة في دراسة النفس ليست هي قلة المعلومات والملاحظات المتاحة عنها، وإنما المشكلة هي في كثرة المعلومات وغموضها وتضاربها، واعتقاد كل صاحب نظرية عن النفس أن نظريته تحيط بالنفس إحاطة كاملة، واعتقاد اتباعه وتلاميذه أن فروض هذه النظرية حقائق لا تقبل النقد بسهولة، في حين أن النظرة الموضوعية دائما تثبت أن أي نظرية وضعية عن النفس هي بالضرورة نظرية ناقصة مهما حاول صاحبها استيفاء كل الجوانب. ولكن يبقى أن صاحب كل نظرية قد ألقى الضوء على إحدى جوانب النفس، وعليه الاعتراف بأن هناك جوانب لم يطرقها تتعدى في أهميتها وتأثيرها الجوانب التي طرقها.

يقول الدكتور/ محمد عثمان نجاتي:

«إن علماء النفس المحدثين بتبنيهم مناهج البحث في العلوم الطبيعية، قد حصروا أنفسهم في دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها

(*) انظر شرح الطحاوية حيث يوجد بحث كامل عن النفس وانظر ابن كثير جـ٤ عند تفسير "ونفس وما سواها" و "لا أقسم بالنفس اللوامة" (الدكتور / صالح اللحيدان).



دراسة موضوعية، وتجنبوا البحث فى كثير من الظواهر النفسية الهامة التى يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبى. وبذلك أبعدوا النفس ذاتها من دراساتهم لأن النفس شئ لا يمكن ملاحظته، وقصروا دراستهم على السلوك الذى يمكن ملاحظته وقياسه. وقد نادى بعضهم بتغيير اسم "علم النفس" وتسميته "علم السلوك"، لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس. وكان من نتيجة هذا الاتجاه فى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية فى بحوث علم النفس أن سادت فى دراساته وجهة النظر المادية التى ترجع جميع الظواهر النفسية إلى العمليات الفسيولوجية، والتى تنظر إلى الإنسان كنظرتهم إلى الحيوان، بل إنهم جعلوا من دراساتهم لسلوك الحيوان المدخل الطبيعى لفهم سلوك الإنسان، مغفلين فى كثير من الأحيان الاختلاف الكبير فى طبيعة تكوين الإنسان الذى يتميز عن الحيوان بالروح[*][3] ، وهو أمر يغفلونه فى دراستهم إغفالا يكاد يكون تاما».

ثم يضيف:

«وقد أدى ذلك إلى كثرة بحوث علم النفس التى تتناول كثيرًا من أنواع السلوك الإنسانى السطحى وغير الهام، وإغفال دراسة كثير من الظواهر السلوكية الهامة فى الإنسان والتى تتناول النواحى الدينية والروحية والقيم الإنسانية العليا والحب فى أسمى صوره الإنسانية (بعيدًا عن النواحى الجنسية التى تغلب على دراسة علماء النفس المحدثين للحب)، وأثر العبادات فى سلوك الإنسان، والصراع النفسى بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية، وتوافق الشخصية عن طريق تحقيق التوازن بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان»[4].

وقد عبر إريك فروم عن هذا الموقف بقوله:

«إن اهتمام علم النفس الحديث ينصب فى أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان المهمة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسى وهو الروح، وكان معنيا بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التمييز للإنسان: كالحب والعقل والشعور والقيم»[**][5].

---

[*] بل بالعقل والفطرة (دكتور / صالح اللحيدان).

[**] انظر حادى الأرواح من ص١٠ - ٨٠ لابن قيم الجوزية (دكتور / صالح اللحيدان).

ومع ذلك فإن المعلومات التى توافرت من الدراسات النفسية الحديثة إذا جمعناها إلى التراث الموثوق به عن النفس فإن ذلك يعطينا ثروة كبيرة من العلوم النفسية لا يجب أن نحرم أنفسنا منها باتخاذ موقف متحيز لأحد المصدرين (القديم أو الحديث) مع إهمال الآخر. ولكن يبقى تساؤل مهم: ما هو الإطار العام الذى تجتمع فيه هذه المعلومات الكثيرة (قديمها وحديثها) بحيث يمكن الاستفادة منها بعد استيعابها بطريقة منظمة ؟

سوف نحاول من خلال هذا الكتاب وضع افتراض للإطار العام للنفس، وهذا الإطار سوف نستضىء فى وضعه بالمصطلحات والمفاهيم الشرعية إلى الخبرة الإكلينيكية (السريرية)، وهو بهذا يمثل الهيكل العام للنفس البشرية وهو لا يهمل بقية الافتراضات والاكتشافات التى ألقت الضوء على بعض جوانب النفس وإنما يستفيد منها بوضعها فى أماكنها داخل الهيكل العام.

ونحن بهذا المفهوم نسعى إلى تنشيط البحث العلمى وفتح آفاق جديدة لدراسات بيولوجية واجتماعية ونفسية على أن تضاف نتائج تلك الدراسات فى أماكنها المناسبة وبحجمها المناسب داخل الهيكل العام، وهذا سيعطيها بالطبع فاعلية أكبر ويتيح الاستفادة منها أكثر من استقبالها واستخدامها كحقيقة منفصلة أو مرتبطة بحقائق جزئية أخرى دون وجود إطار عام.

إذن فنحن لا نلجأ إلى مصطلحات ومفاهيم جاهزة ومعتقدات راسخة هروبا من بذل الجهد البشرى فى البحث والدراسة وإنما نضع تلك الجهود الأصيلة والمخلصة فى إطار عام نعتقد إيمانيا ونقتنع عقليا ومنطقيا أنه صحيح، ويشجعنا على ذلك فشل كل الرؤى البشرية الجزئية وكل التعميمات والتبسيطات فى رؤية النفس البشرية من زاوية واحدة أو عدة زوايا منفصلة، وأيضا تناقضات الرؤى الجزئية فى مدارس علم النفس المختلفة.

وحين نكتب هذه الدراسة عن النفس مسترشدين بالنصوص الشرعية، فنحن لا ندعى عصمة من الخطأ لأنفسنا ولا ندعى أن ما وصلنا إليه من اجتهاد غير قابل للمناقشة والنقد احتماءا بما نورده من النصوص الشرعية المقدسة، وإنما نقول أننا أخذنا بهذه النصوص الشرعية الصحيحة فى استنتاج بعض المفاهيم والتصورات عن النفس البشرية، ويمكن أن تكون استنتاجاتنا ناقصة أو حتى خاطئة على الرغم من صحة النصوص الشرعية الموثقة، وأن النقد والتمحيص لما يرد فى هذه الدراسة مقبول على أنه اعتراض أو تعديل لاستنباطاتنا واجتهاداتنا البشرية القابلة للصحة

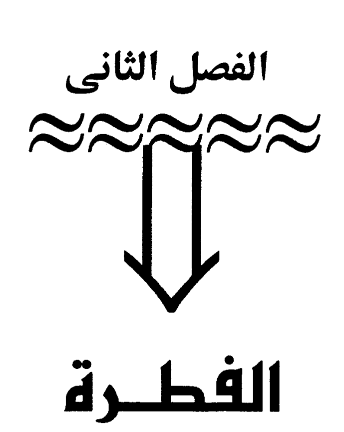
والخطأ بمعنى آخر: نحن لا نطالب من يقرأ هذه الدراسة بالخضوع لكل ما جاء فيها باسم الدين، ولا ندعى أننا نتكلم بالحق وعلى الجميع أن يلتزموا الصمت أمام ما نقول، ولا نصم العلم التجريبى الصحيح ولا نتهم مخالفينا بالمروق، فهذه ليست من طبيعة الدين الاسلامى الذى يحترم العلم الحقيقى ويحترم الجهد البشرى المخلص، ولا يحمى المعلومات الخاطئة أيا كان مصدرها.

وقد سقت هذا الإيضاح فى مقدمة هذه الدراسة لكى أوضح الصورة لمن يعترضون على المزج بين ما هو دين وما هو علم على أساس أن العلم شئ قابل للنقاش والنقد والرفض أحيانا، فى حين أن الدين له قدسيته ورهبته التى تستوجب إبعاده عن المجالات العلمية. وفى الحقيقة أنا لا أحاول الزج بالدين فى مجال غريب عليه وهو مجال علم النفس، بل هو فى صلب اختصاصه، ولقد زادتنى دراسة علم النفس والطب النفسى اقتناعا بأن هذه العلوم بالذات (من بين سائر العلوم) لا يمكن دراستها دراسة صحيحة ووافية بمعزل عن الدين، لأن الدين متغلغل فى النفس (كل نفس) تغلغلا يجعل الحديث عن النفس مع استبعاد الدين أمر غير منطقى وغير علمى، ويذهب بنا بعيدا عن الحقائق الشاملة إلى التعلق بأذيال الحقائق الجزئية المتفرقة.

ولقد سألت أحد المعترضين على دراسة النفس من منظور شرعى: كم تعتقد النسبة التى تشكلها الظاهرة الدينية فى نفس أى إنسان ؟... فرد قائلا: حوالى ٥٠ -٧٠؟ فى المتوسط. فقلت له: وهل يعقل أن يهمل علم النفس دراسة ظاهرة تشكل ٥٠-٧٠؟ وربما أكثر فى نفس الإنسان ؟ ... وهل هذا هو المنطق العلمى الصحيح الموضوعى المتجرد ؟

ومع هذا لا ننكر أن الوسائل العلمية الحديثة قد منحتنا فرصة عظيمة لملاحظة السلوك الإنساني، وفى نفس الوقت منحتنا المنهجية العلمية الحديثة فرصة إعادة قراءة كنوز المعرفة المتراكمة عبر كل العصور، فأصبحنا نعيش الجديد والقديم فى ذات الوقت بشكل أكثر دقة، وبثراء ربما لم يتح للأجيال السابقة.

الفصل الثانى



الفطـرة

تعتبر الفطرة من الموضوعات الهامة التى يجب أن تحظى باهتمام علم النفس، وهى مفهوم عميق يضرب بجذوره فى بدايات البدايات حيث خلق الإنسان الأول. وسنحاول فى هذا الفصل دراسة ما نستطيع الإلمام به على مستوى وعينا البشرى من هذا المفهوم العميق.

المعنى اللغوى:

ورد فى المعجم الوسيط[1] المعانى التالية للفطرة[*]:

- الفطرة: الخلقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه.
- و(الفطرة): الطبيعة السليمة لم تشب بعيب.
- والفطرة السليمة (فى اصطلاح الفلاسفة): استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل.
- الفطرية: القول بأن الأفكار والمبادئ جبلية وموجودة فى النفس قبل التجربة والتلقين.

الفطرة فى القرآن الكريم:

يقول تعالى فى سورة الروم:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠).

ومعنى الآية: فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم التى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التى فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره كما فى قوله تعالى "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى". وقوله تعالى "لا تبديل لخلق الله"، قال بعضهم معناه: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها، وقال آخرون: معناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس فى ذلك. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه

---

[*] انظر أيضا المعانى الواردة فى لسان العرب (دكتور / صالح اللحيدان).

أو يمجسانه..."(٢). وقوله تعالى: "ذلك الدين القيم" أى التمسك بالشريعة والفطرة هو الدين القيم المستقيم(٣).

ويقول تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. (الإسراء ٤٩/٥١).

فى هذه الآية يستبعد الكفار البعث بعد الموت ويتساءلون عمن يستطيع إعادتهم بعد موتهم وتحولهم إلى جزء من مكونات الأرض فيقول الله لهم: "قل الذى فطركم أول مرة" أى الذى خلقكم ولم تكونوا شيئا مذكورا.

ويقول تعالى فى سورة طه:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه ٧٢).

ومعنى " الذى فطرنا" يحتمل أن يكون قسما ويحتمل أن يكون معطوفا على البينات، يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم المبتدى خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت(٤).

ويقول تعالى فى سورة يس:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس ٢٠-٢٢)

ومعنى "ومالى لا أعبد الذى فطرنى" أى وما يمنعنى من عبادة الله الذى خلقنى وحده لا شريك له.

إذن فالفطرة فى القرآن تعنى الطبيعة الأصلية التى خلق الله الإنسان عليها من العدم، أى هى تكوين الإنسان الخام قبل أن تؤثر فيه الصراعات والاهواء والرغبات ووساوس الشيطان. وهذه الفطرة منسوبة إلى خالقها سبحانه وتعالى فى الآيات، فهو الذى أوجدها من العدم، ولذلك فإن الفطرة السليمة الأصلية مجبولة على توحيد الله (خالقها وموجدها من العدم)(٥).

---

(٥) كما جاء فى صحيح مسلم (خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين) - (دكتور / صالح اللحيدان).

طبيعة الفطرة:

والآن نحاول الاقتراب أكثر من مفهوم الفطرة وماهيتها، فالفطرة هي التكوين الأولى للإنسان بما يحمله من استعدادات وقدرات كامنة قابلة للتنشيط والتنمية، ونقصد بالتكوين الأولى ذلك الكيان الإنسانى الذى خلقه الله قبل أن تتدخل فيه إرادة الإنسان بالطمس والتغيير والتشويه.

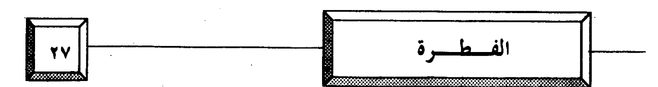
وهناك مفتاح هام لهذه الفطرة إذا أمسكنا به استطعنا أن نفهم تكوينها واتجاهاتها الأولية والثانوية والفرعية.. ذلك المفتاح هو إدراك وجود الله (بالفطرة) ومحاولة التوجه إليه بالعبادة، وذلك نلمحه فى محاولات الإنسان منذ فجر التاريخ فى البحث عن الإله (الخالق المدبر)، فمرة يعتقد فى الكواكب ومرة يعتقد فى القمر ومرة يعتقد فى الشمس أو فى الرياح ... إلخ، وفى بعض الأحيان يهتدى إلى الإله الصحيح بالفطرة، وفى غالب الأحيان يهتدى إليه بالوحى المنزل على الرسل فيلتف الإنسان حول الرسل والأديان ويدافع ويموت من أجلها كما لم يدافع من أجل أى شئ آخر والسر فى ذلك أن هذه الأديان تهديه إلى الخالق الذى أرقه البحث عنه كما لم يؤرقه شئ آخر .

وفطرة الإنسان ليست منفصلة عن بقية الكون، فهى تشترك مع كل شئ فى الكون فى طاعة الله "وإن من شئ إلا يسبح بحمده"، ولكن الكائنات الأخرى تطيع الله بالغريزة والفطرة، والإنسان يطيعه أيضا بهذه الغريزة والفطرة (يخضع لنواميسه فى مولده ومعيشته وصحته ومرضه وموته) ويطيع الله أيضا بإدراكه ووعيه وإرادته.

والإنسان يشعر بالتوحد والتناغم إذا وافقت حركته (تفكيره وانفعاله وسلوكه) قوانين الفطرة الذاتية والفطرة الكونية، أى إذا أدرك آيات الله الدالة عليه إدراكا صحيحا وتوجه إليه توجها صحيحا وهذا هو مفتاح السعادة الدنيوية والأبدية.

يقول الأستاذ محمد قطب:

«الدين من صميم الفطرة.. ففى صميم الفطرة أن تحس بالله على نحو من الأنحاء.. وقد لا تهتدى دائما إلى الصورة الصحيحة للعقيدة.. وقد تمزج بها كثيرا من الخرافات والأساطير.. وقد تتصور الحقيقة الإلهية تصورا منحرفا.. بل قد تلحد بالله إلحادا.. ومع ذلك يظل فى صميمها هذا الإدراك لوجود خالق لهذا الكون. خالق قوى جبار.. والكون كله مفطور على عبادة الله. والتفسير "العلمى" لأحد



مظاهر هذه العبادة أن الكون يطيع القوانين التى سنها الله لوجوده وحركته ومبدئه ومنتهاه.. ولا يخرج على قانون واحد منها، ولا يتجه إلى الخروج عليها»[٥].

ثم يضيف الأستاذ قطب:

«وعبادة الإنسان إرادية وواعية، فى جانب منها على الأقل، بخلاف عبادة غيره من الكائنات.. ومن ثم فالإنسان هو المخلوق الوحيد ـ من مخلوقات الأرض ـ الذى يعبد الله عن وعى وفهم وإدراك، وهو كذلك المخلوق الوحيد فى الأرض الذى يعصى الله، حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان.. ولكنه فى الحالين "يدرك" وجود الله. ويدركه بالفطرة.. وللفطرة طريقة خفية فى إدراك وجود الله، والإيمان بوجوده، والاتصال به، والاستعانة به، والتزود من نعمه.. ولا نتحدث هنا عن تلك الطريقة الخفية، لأن كل حديث عنها لن يوضح ماهيتها.. مادامت خفية الكنه ككل شئ فى هذا الكون الهائل العجيب»[٦].

«وكما قلنا إن القدرة على النطق كامنة فى كيان الطفل، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية لإيقاظها.. فكذلك مقدرة الفطرة على الاهتداء لوجود الخالق كامنة فى داخلها، ولكن أمورا خارجية توقظها وتحركها وتنميها.. أو على أقل تقدير تعطيها الوعى والإرادة اللذين تتسم بهما بقية أعمال الإنسان»[٧].

ويقول الدكتور محمد عثمان نجاتى:

«إن دافع التدين دافع نفسى له أساس فطرى فى طبيعة تكوين الإنسان، فالإنسان يشعر فى أعماق نفسه بدافع يدفعه إلى البحث والتفكير لمعرفة خالقه وخالق الكون، وإلى عبادته والتوسل إليه والالتجاء إليه طالبا منه العون كلما اشتدت به مصائب الحياة وكروبها، وهو يجد فى حمايته ورعايته الأمن والطمأنينة. نجد ذلك واضحا فى سلوك الإنسان فى جميع عصور التاريخ، وفى مختلف المجتمعات الإنسانية. غير أن تصور الإنسان فى المجتمعات المختلفة خلال عصور التاريخ المختلفة لطبيعة الإله والطريقة التى يسلكها فى عبادته له قد تختلف تبعا لمستوى تفكيره ودرجة تطوره الثقافى. غير أن هذه الاختلافات فى تصور الإنسان لطبيعة الإله أو طريقة عبادته إنما هى اختلافات فى طريقة التعبير عن ذلك الدافع الفطرى للتدين الموجود فى أعماق النفس البشرية»[٨].

والإنسان مهما انحرف عن فطرته يبقى لديه ميل شديد للعود. إليها.. ولنضرب لذلك مثلا من الواقع، فقد نشأت فكرة الشيوعية (الملحدة) فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولكى تطبق عمليا احتاجت إلى عملية



قهر كبيرة راح ضحيتها أكثر من خمسة ملايين إنسان (لأنها كانت عكس فطرة الإنسان)، وقد جثمت على صدور البشر ما يقرب من مائة سنة بالحديد والنار.. وعندما اكتشف بعض المصلحين - من أهل الحكم فيهم - فسادها واشاروا بالتحول عنها انهارت بين عشية وضحاها وسط حفاوة وابتهاج وترحيب على كل المستويات، فقد سمح للإنسان أن يعود ليقترب من فطرته مرة أخرى.

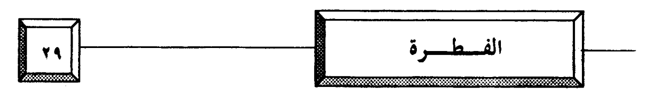
وفطرة العبودية لله والتوجه إليه كان لها الدور الأكبر في صنع التاريخ والأحداث حتى يومنا هذا (وإلى أن تقوم الساعة)، فقد قامت عليها الديانات (بوحى من الله)، والجماعات والانتماءات، والجهاد في سبيل الدعوات، وإقامة الحضارات، ومناهضة قوى الشر في النفس وفي المجتمعات.

وفطرة العبودية لله تتبعها فطرة الميل إلى الحرية وعدم العبودية لأى كائن آخر، وهذا أيضا دافع حيوى وهام في الإنسان قامت من أجله النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

وهناك فطرة ثانوية أخرى تتبع أيضا الفطرة الأولية (فطرة العبودية لله) وهى حب الخير والحق والعدل والجمال، وعلى هذه الفطرة قامت كثير من الفلسفات والآداب والفنون.. فالإنسان بطبعه السليم يميل للخير ويشعر بالفخر إذ فعله، ويشعر بالسعادة إذا لمسه من غيره، ويميل للحق ويثور ضد الظلم وربما دفع حياته ثمنا دفاعا عن حق يعتقده أو دفعا لظلم يرفضه. والإنسان يتذوق الجمال ويطرب له: جمال الطبيعة.. وجمال الخلق.. وجمال الكلمة.. وجمال الفعل.. الخ.

وتأخذ هذه الدوافع الفطرية مسارات وأشكال شتى من نظم سياسية واجتماعية ودينية وفلسفية وثقافية وفنية.. أحيانا تكون على الطريق الصحيح.. وأحيانا أخرى تنحرف عنه، ولكن تبقى دائما الدوافع الفطرية من أهم المحركات لنشاطات الإنسان المتعددة والمتنوعة.. ويبقى أيضا دافع التوجه نحو الله وعبادته هو الدافع الفطرى الأول والأساسى لدى الإنسان والذى تتفرع منه الدوافع الأخرى. والدليل على ذلك أن الإنسان القديم كان يقدم ابنه قربانا ويذبحه إرضاءا للآلهة حين كان يوهمه الكهان بأن في ذلك إرضاءا لها.

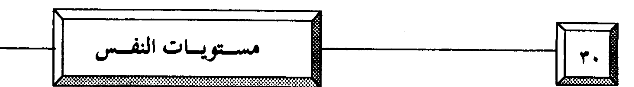
ولقد عرف الكهنة ورجال الدين في العصور القديمة قوة هذا الدافع الفطرى (دافع التدين) عند الإنسان فاستغلوه ليجعلوا لأنفسهم سلطة دينية كهنوتية مطلقة. فهل بعد هذا يطلب أحد دليلا على وجود وقوة هذا الدافع الفطرى الأصيل.. وهل هناك دافعا أقوى منه يجعل الإنسان يقدم ابنه للذبح في سبيله.



وجاءت الأديان فـي العصـور المختلفـة بوحـي مـن ا لله لتنظيـم هـذا الدافـع العظيـم وتوجهه الوجهة الصحيحة نحو الإله الواحد الحقيقى. وأيضا فى ظـل الأديـان نلمـح قوة هذا الدافع الكبير (دافع العبودية والتوجـه والطاعـة لله).. نلمحهـا فـى موقـف ابراهيم عليه السلام حين أوحى ا لله إليه فى المنام أن يذبح ابنه إسماعيل.. فاسـتجاب الاثنان عليهما السلام للأمر طاعة لله. ونلمح ذلك أيضا فيى الملايـين الذيـن قدمـوا أرواحهم راضين استشهادا فى سبيل ا لله. ونلمحه أيضا فى العبادات التى تحرم علـى الإنسان بعض الملذات فى أوقات محددة كالصيام (الامتناع عن دافـع الطعـام ودافـع الشراب ودافع الجنس ودافـع العـدوان)، وقيـام الليـل (التغلـب علـى دافـع الراحـة والنوم)، والحج (بما فيه من مشقة بدنية)، والزكاة (التغلب على دافع التملك وحب المال)... الخ.

إننا نستطيع الآن أن نقول إن هذا الدافع الفطرى الباحث عن ا لله والمتوجه نحوه بالعبادة هو أقوى وأعمق من كل الدوافع الأخرى (والتاريخ القديـم والحديـث شاهد على ذلك).

ميثاق الفطرة:

يقـول تعـالي:  ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ (الأعراف ١٧٢).

ولا نعلم نحن كيف أخذ ا لله على البشر ميثاق الفطـرة ولا متى تم ذلـك(*) ولكننا نعلم أن فى الفطرة منافذ تلجئها للبحث عـن الخـالق والتوجـه إليـه. فـالكون بضخامته الهائلة، وبدقته المعجزة التى لا يختل فيها شـئ قيـد شـعره، وظـاهرة المـوت والحيـاه، وظـاهرة حـدوث الأحـداث وتواليهـا، ورغبـة الإنسـان فـى معرفـة الغيـب وعجزه عنها، ورغبته فى السيطرة على كل شئ وعجزه عنهـا.. كـل أولئـك يوقـظ الفطرة إلى وجود الخالق الذى خلق الكون بضخامته وبدقتـه، والـذى يحيى ويميـت، والذى يحدث الأحداث ويدبر الأمر، والذى يعلم الغيب، والذى لا يعجزه شـئ فـى السماوات ولا فى الأرض(٩).

الفطرة والتوجه للحق:

لا شـك أن الفطـرة السـليمة (التى لم يشـوهها الهـوى والضـلال) تسـتطيع

(*) بل هو معلوم – راجع تفسير الطبرى جـ١ وتفسير ابن كثير جـ١ (دكتور / صالح اللحيدان).

التفرقة بين الحق والباطل، حتى أننا نستطيع القول بأن هناك بديهيات اتفق الناس عليها على اختلاف أديانهم ولغاتهم. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:
"إن الحلال بين وإن الحرام بين..." (رواه الستة)، وهذا البيان على مستويين:

١-مستوى البيان والمنطق الفطرى السليم الذى يجعل الإنسان البسيط يعرف أن هذا الشيء حلالا فتقبله نفسه فى ارتياح ويعرف أن هناك شيئا آخر حراما فتمجه نفسه وفطرته (إذا كانت سليمة).
٢-مستوى التأكيد والتوضيح عن طريق الرسل والرسالات لمنع اللبس ولتقويم الفطرة إذا انحرفت.

والفطرة السليمة مقياس وحكم فى حالة غموض الرؤية واختلاف الفتاوى والآراء. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك» (رواه أحمد).

الميل الفطرى إلى الخير ونبذ الشر:

«وفى النفس ميل فطرى إلى الخير - فهى خيره، وميل فطرى عن الشر فهى تنكره وتعافه، لذا سمى القرآن الكريم الخير معروفا لأنه معروف - فطرة - فهى تعرفه وتألفه وتأنس به، وسمي نقيضه (الشر) منكرا، لأنها تنكره وتعافه وتستهجنه ولا تقره - فقال تعالي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران ١١٠).

وأن هذا الخير المعروف فطرى لدى الإنسان، والشر الذى تنكره النفس الإنسانية فطرة أصيلة(*) غير ملوثة، ينسجم مع قوله صلى الله عليه وسلم:

"كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»
(رواه البخارى ومسلم).

لذا فإن الإنسان حين تسره الحسنة وتسوؤه السيئة كان ذلك الشعور منه فى سروره وحزنه إزاء النقيضين، دليل الفطرة الخيرة ودليل الإيمان"(١٠).

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل تسره الحسنة وتسوؤه السيئة - فما حكم الإسلام فيه ؟ أجاب صلى الله عليه وسلم: "ذلك محض الإيمان".
(رواه أحمد)

(*) ليس فطرة .. من قال هذا ؟ (دكتور / صالح اللحيدان).

وأحيانا نجد بعض العلماء والفلاسفة يبدون آراءا طيبة فى بعض الموضوعات رغم عدم صلتهم المباشرة بالعلوم الدينية، فهذا ناتج عن الفطرة التى خلقها الله، فهى بطبيعتها تنزع نحو الخير والحق والعدل والجمال، وتستقبح الشر.

«أما حين ينحرف الإنسان عن السلوك المستقيم بمعاصى وذنوب: فإن نفسه تنحرف عن الفطرة السليمة وتتلوث بغبار الواقع الكثيف الذى يحجب القلب عن النور، وعن الحق الفطرى الساطع، فإذا به يخبو إزاءها، بما ألفته من ظلام المعصية وتردى الإسفاف والهوى. وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم توضيح لهذه الحقيقة النفسية:

«إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو على قلبه، وذلك هو الران الذى ذكره الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه). لذا فإن النفس الإنسانية فطرها الله تعالى على حب الخير كما فطرها على الرجوع إليه إن شطت عن الطريق بما فيها من عوامل امتحانها، وبما فى البيئة من عوامل الإفساد»[١١].

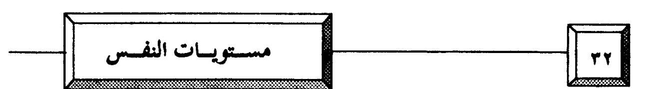
الفطرة والقيم العليا:

هناك ملاحظة واقعية هامة نراها جميعا فى حياتنا، وهى أن الفتى (أو الفتاه) حين يبلغ سن المراهقة يتجه اتجاها قويا (فى غالب الأحيان) نحو التمسك بالقيم العليا والمثاليات ويصبح ثائرا على ما يناقضها فى المجتمع، وتظل معه هذه القيم والمثاليات فترة غير قليلة من مطلع شبابه إلى أن تنثنى مرة أخرى تحت تأثير الواقع، أو تنمو فى طريقها نفسه إن قدر لها ذلك وكانت البيئة مناسبة لاستمرارها فى سموها.

وربما يقول التحليليون إنه نوع من التسامى يحدث لدى المراهق كرد فعل لما يشعر به من تغير نفسى وجسدى وعلى الأخص فوران الرغبات الجنسية. وحتى إن صح هذا التفسير - وهو ليس كذلك - فإنه لا يغير من الاستنتاج النهائى وهو أن فطرة الإنسان مهيأة للتمسك بالقيم العليا والمثل الأخلاقية بشكل تلقائى فى غالبية الناس فى مرحلة معينة من مراحل العمر، وهذا التهيؤ الفطرى يحتاج فقط لتدعيمه وتقويته ليستمر بقية العمر.

ويقول الأستاذ محمد قطب فى هذا المعنى:

«ولكن الذى يعنينا هنا - من زاوية نظر منهج التربية الإسلامية - أن نقرر أن القيم والمثل العليا فطرة تنشأ تلقائيا فى داخل النفس، فى مرحلة معينة من مراحل



نموها. وإنما التوجيه الخارجى هـو الـذى يشـكل القيـم ويحددهـا. أو نقـول أدق مـن ذلك: إن النفس البشرية مهيأة - فطريا - لإفـراز تلـك القيـم وهـذه المثـل، فـى هـذه المرحلة من العمر، ولكن التوجيه - قبل ذلك وبعد ذلك - هو الذى يجعل تلك القيـم المفرزة تلقائيا تجد تربة صالحة فتسـتمر فـى نموهـا وتـترعرع، أو لا تجـد تلـك التربـة فتذبل وتموت ولا تعود إلى الظهور، أو تتخذ صورة منتكسة بفعل الجاهلية..»[١٢].

مفهوم الوظائف الفطرية لدى علماء النفس المحدثين :

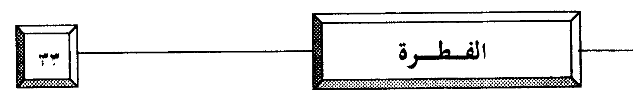
(١) فرويد وتصور الفطرة والأخلاق :

لقد اعتقد فرويد أن "الهو" (I d) والذى يمثـل مسـتودع الطاقـات الغريزيـة (الجنسية على وجه الخصوص) هو الجزء الأصلى فى تكوين النشاطات النفسية، وأن أية نشاطات تنمو فى الإنســان بعـد ذلـك إنمـا هـى ردود أفعـال للدفعـات الغريزيـة الصادرة من هذا المستودع الغريزى.

وبناءا على هذه الرؤية فإن بقية مكونات النفس مثل "الأنا" (Ego) و"الأنـا الأعلى" (super ego) إنما تنمو نتيجة صراع الـ "Id" الملىء بالغرائز والرغبات مع العالم الخارجى المحيط بالإنسان، ومن هنا تنمـو الأخـلاق والقوانـين اسـتجابة لضغـط العالم الخارجى ومنعه لخروج الرغبات الغريزية.

وطبقـا هـذا المفهـوم الفرويـدى تصبـح الأخـلاق والضمـير وكـل شـئ فـى الإنسان نشاطات ثانوية غير أصيلة، وتصبح الغرائز (فى نظرهم) هى الجـزء الأصيـل فى الشخصية، وبهذا تحكم نظرية التحليل النفسى على الفطرة الإنسانية بالفساد من بدايتها، ثم تحكم على تصرفات الإنسان للتوفيق بين هذه الفطرة الفاسدة وبين ضغط العالم الخارجى - تحكم عليها بالنفاق.

النقطة الثانية فى هذا التصور الفرويدى هى أن كل شئ فـى الإنسـان ينشـأ نتيجة الصراع بين مكونات النفس بعضهـا البعـض وبـين هـذه المكونـات مـن ناحيـة وضغوط العالم الخارجى من ناحية أخرى. ولكن فرويد فى مرحلة مـن المراحـل وجـد أن هذا الفرض غير منطبق تماما على كل مكونات النفس، وهناك نشاطات لها أصول وجذور موجودة فى النفس منذ البداية ولم تنشأ نتيجة الصـراع. وقـد عـدد هارتمـان (Hartman) هـذه النشـاطات فـى: الإدراك والحـدس والفهــم والتفكـير واللغـة والذكـاء، وقال إنها تنمو خارج دائرة الصراع (In the conflict free sphere). وفى الواقع فإن هذه النشاطات - وهى تكون معظم النشاطات الأساسية فى النفس - هى من مكونات الفطرة التى أودعها الله فى الإنسان.



ولكن فرويد بالطبع نظرا لموقفه المتنكر للدين قد أسماها (بعد اضطراره للاعتراف بوجودها): "الوظائف الأولية المستقلة" (Primary autonomous functions) ، ولم يحاول أن يسأل نفسه: من أين أتت هذه الوظائف ؟ ومن الذى أودعها فى الإنسان منذ البداية ؟

وبما أن هذه الوظائف الفطرية ـ حتى فى مفهوم علم النفس الغربى كما عددها هارتمان ـ تجمع بين الإدراك والحدس والفهم والتفكير واللغة والذكاء، فإنها فى مجموعها تشكل الأداة المعرفية فى مستوياتها المختلفة، ومن هنا نستطيع القول بأن الإنسان فى المفهوم الإسلامى يولد ولديه جهازا معرفيا كامنا، مودعا فيه قدرات معرفية أولها وأهما التعرف على الخالق ومحاولة التوجه إليه.

أما عن نتائج تصور علم النفس الغربى (التحليلى الفرويدى على وجه الخصوص) للأخلاق على أنها مجرد مداراة للضغوط الخارجية، وأنها بذلك تصبح عملية نفاق اجتماعى وقناع يلبسه الإنسان ليخفى به الجزء الغريزى الأصيل، بناءا على هذا المفهوم للأخلاق ـ راح الغرب يتخلى عن هذه الأخلاق شيئا فشيئا وخاصة تلك المتصلة بالجنس، وشجع التعرى والعلاقات الجنسية فى الشوارع أمام الناس على اعتبار أنها نشاطات عادية أصيلة فى الإنسان لا يجب ضبطها أو كبتها أو حتى إخفاءها عن عيون الناس. وانتشرت الفوضى الجنسية بناءا على هذا التبرير الذى اعتقد الناس أنه صادر عن علماء نفس موثوق بهم وأسماءهم تملأ المراجع العلمية. وبهذا تراجعت الأخلاق الدينية المطلقة (الموصولة با لله والمحددة بالشرائع الدينية) فى الغرب لتحل محلها الأخلاق النفعية التى ترضى غرائز الإنسان.

(٢) يونج يقترب من مفهوم الفطرة

لقد شوه فرويد الإنسان وجعل كل شئ يصدر عنه نابعا فى الأصل من غرائزه (الجنسية أو العدوانية)، أو ردود أفعال لتلك الغرائز. ورغم إعجاب يونج (Jung) بفرويد فى البداية إلا أنه اختلف معه اختلافا كبيرا حول هذا المفهوم إلى أن قرر بوضوح أن الغرائز الجنسية ـ رغم أنها تلعب دورا هاما ف حياة الإنسان وفى كثير من الاضطرابات النفسية ـ إلا أن هناك قوى نفسية أخرى كثيرة تلعب دورها أيضا فى حياة الإنسان.

وعلى العكس من فرويد الذى اتهم الدين بترسيب كثير من الأمراض العصابية نجد أن "يونج" كان يعترف بدور الدين الحيوى فى الصحة النفسية، وكان

له تصوره عن الله، ومن هذا المنطلق درس "يونج" الديانات بعمق وخاصة الديانات الشرقية، ولهذا جاءت نظرته للإنسان أكثر عمقا.

ففى الوقت الذى كانت تسود فيه النظرة للإنسان وخبراته بشكل مبتور يقتصر على الأحداث التى وقعت للإنسان بصفة خاصة فى حياته، نجد أن "يونج" قد عمق هذه النظرة للإنسان حين تكلم عن نوعين من اللاشعور:

١- اللاشعور الشخصى (Personal Unconscious) الذى وصفه فرويد (مع اختلاف فى المفهوم).

٢- واللاشعور الجمعى (Collective Unconscious) وهو يحوى خبرات وأنماطا أولية (Arche types) من كل الأجيال السابقة.

وهنا يبدو أن "يونج" كان قاب قوسين أو أدنى من مفهوم الفطرة حين قال بأن الإنسان يولد ومعه أفكار وخبرات واتجاهات موروثة أسماها " الأنماط الأولية" (Arche types) ، وهو قد عزى هذه الأنماط إلى الوراثة من الأجيال السابقة ولم يتقدم أعمق من ذلك.

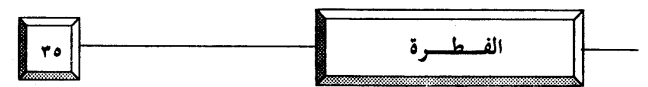
ولو تابعنا نحن التسلسل عبر الأجيال لوصلنا إلى الإنسان الأول وسألنا: من أين للإنسان الأول بهذه الخبرات الفطرية التى تسلسلت منه (حسب فهم يونج) عبر الأجيال ؟ هل نشأت من فراغ ؟... أم أنها أودعت فى الإنسان من مصدر خارجى عاصر كل هذه الأجيال ويعلم كل شىء عنها ؟

فى الحقيقة إننا نصل إلى المفهوم الاسلامى عن الفطرة التى خلق الله الإنسان عليها وأودع فيه ما يلزمه من الاستعدادات الفطرية ليقوم بدوره على الأرض. وأن ما يسمى بالأنماط الأولية هو جزء مما علمه الله للإنسان الأول آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ . . .﴾ (البقرة ٣١).

(٣) هارتمان وسيكولوجية "الأنا":

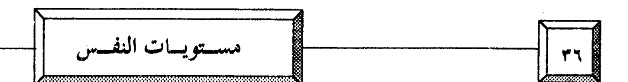
لقد قام بعض أصحاب الفكر التحليلى فى علم النفس بصياغة ما سمى بسيكولوجية الأنا (هارتمان ١٩٦٤ وربابورت ١٩٦٧)، وهناك سمتان بارزتان تميزان الحركة التحليلية لسيكولوجية الأنا:

(أ) افتراض أن "الأنا" ينمو جزئيا نتيجة وجود أبنية عصبية فطرية بدلا من أن ينمو كليا بسبب الفشل فى تفريغ غرائز الحياه. وعلى ذلك فالأنا له طاقته الخاصة للنمو والتمايز، بدلا من الاعتماد فى ذلك على "الهو" على نحو ما يذهب فرويد.



فالتفكير التكيفى كما جاء فى تحليل هوايت، هو خاصية غريزية أو فطرية فى الشخص النامى. وهذا الجانب من "الأنا"، أعنى هذا الذى لا ينمو من الصراع والكفاح من أجل التفريغ اللبيدى أو الذى لا يستمر متورطا فيهما، هو الذى يشار إليه بـ "مجال الأنا المتحرر من الصراع".

(ب) إن سيكولوجية الأنا التحليلية قد وجهت انتباهها أكثر مما فعل فرويد إلى الوظائف التكيفية للأنا، وذلك فى مقابل التركيز الفرويدى على الدور الدفاعى للأنا فى الصراعات داخل النفس(١٣).



الفصل الثالث

الوجود البشري

بين الثنائية والوحدة



الوجود البشرى
بين الثنائية والوحدة

منذ فجر التاريخ وهناك اعتقاد راسخ بأن الإنسان يتكون من جسد محسوس هو المستوى الأدنى من وجوده، وكيان غير محسوس هو المستوى الأعلى من وجوده. وقد أطلق على الكيان غير المحسوس أسماء مختلفة مثل العقل أو القلب أو النفس أو الروح. وتبعا لهذا الرأى فأن الجسد له محدودية الزمان والمكان فيظهر ويمارس نشاطه فى مكان معين ولفترة معينة ثم ينتهى بالموت ويتحلل ويفنى فى حين أن الكيان غير المحسوس له صفة الخلود.

مستويات الوجود البشرى عند اليونان:

لقد اتفق معظم فلاسفة اليونان على وجود المستوى المادى الفانى والمستوى غير المادى الخالد فى الإنسان.

قال أفلاطون:

«النفس مبدأ الحياه أو جوهر الحياه، والنفس عندما تكون طيبة تعطى الجسم فضيلتها... والنفس لا تفنى أبدا والدليل هو وجود الخير والشر، ويجب أن تقيم النفوس بعد الموت فى مكان ما، وتعود للحياة فيما بعد، وأنه تتحلل الأشياء المركبة وتفنى ولكن النفس بسيطة ولا تتحلل فهى خالدة»(١).

وقال أيضا:

«وأما جملة مزاج الدماغ فإنها آلة أو أداه تستعملها النفس الناطقة، والإغتذاء والنمو والنشوء للإنسان من الكبد والحرارة، وحركة النبض من القلب، وأما الحس والحركة الإرادية والتخيل والفكر والذكر فمن الدماغ، لا على أن ذلك من خاصيته ومزاجه، بل من الجوهر الحال فيه، المستعمل له على طريق استعمال آلة وأداه، إلا أنه أقرب الآلات والأدوات إلى هذا الفاعل»(٢).

وقال أرسطو:

«إن العقل مبدأ الحياة، وعنه تصدر المظاهر النفسية، والنفس هى مبدأ الحياه فى الكائنات الحية.. وإن الانفعال يصدر عن النفس والجسم معا»(٣).

ولقد توصل أغلب الفلاسفة: سقراط وأرسطو وفيثاغورث إلى مبدأ الخلود بطرق فلسفية، حيث ميزوا العقل على أنه مستمر وصورة غير متجسدة، ومتحد وواحد، ولا يتخرب بمرور الزمن وتخرب الجسد، ومنه قرروا خلود النفس أو الروح وبقاءها بعد الموت»(٤).

من الأقوال السابقة نلمح وعيا كاملا بوجود المستوى المادى المحسوس ووجود مستوى أعلى غير محسوس، وأن هذا المستوى غير المحسوس هو الأهم وهو المسير للجسد. ونلمح أيضا أفكارا عن الروح والخلود والبعث. ويبدو أن أقوال الفلاسفة هؤلاء كانت متأثرة - فى بعض جوانبها على الأقل - بأنبياء ورسل فى عصرهم أو قبلهم.

أما أبقراط (Hippocrates) فقد شذ عن هذا التصور الثنائى وقرر: «إن الدماغ هو مركز الوظائف النفسية بكاملها، وهو الذى يقوم بها، بينما كان الأمر الشائع قبله أن المكان الذى يقوم بالوعى والمشاعر يقع حول القلب»(*).

ثنائية الخلق:

لقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى على أن يخلق من كل شيء زوجين اثنين، فنجد الذكر والأنثى والموجب والسالب .. الخ. والآيات القرآنية تؤكد هذه الحقيقة:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات ٤٩).

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (المؤمنون ٢٧).

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (النجم ٤٥).

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد ٣).

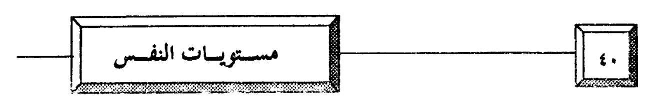
وهذه الثنائية ليست ثنائية تضاد أو تنافر وإنما هى ثنائية تكامل، فالذكر يتكامل مع الأنثى، ولقاؤهما ينتج ذرية جديدة تحمل مواصفات جديدة تثرى الوجود، والسالب ينجذب نحو الموجب فينتج شيئا نافعا.. وهكذا.

ثنائية الإنسان:

ولم تقتصر الثنائية على الذكورة والأنوثة فى الإنسان، بل إن الإنسان فيه ثنائية أخرى أهم، بدأت معه منذ خلقه حين خلق من الطين (كيان مادى). ثم نفخ فيه الروح (كيان روحى). يقول تعالى عن قصة خلقه للإنسان:

﴿.. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة ٩).

ورسخت على مدى الأجيال القديمة والحديثة فكرة ثنائية الإنسان حتى



أصبحت بديهية من البديهيات لا يشك فيها حتى من اشتهروا بمذهب الشك. فهذا ديكارت يقول بأن النفس متميزة عن الجسم بشكل رئيسى وجوهرى ومستقلة عنه.. ومنذ عهد ديكارت تمايز علم الجسم (بيولوجيا) عن علم النفس (سيكولوجيا)(٦).

واعتقد ديكارت أن الكون مؤلف من مادة لها أبعاد فيزيائية ومن مادة عقلية "Mental Substance" أو عقل "Mind" ، وهى ليست لها أبعاد فراغية بالمرة، وهى ليست إلا مادة مفكرة "Thinking Substance" ، وهى لا توجد فى الفراغ المملوء بالمادة أصلا، وهى غير قابلة للقسمة وغير خاضعة لقوانين الفيزياء، ولها قوانينها الخاصة التى تحكمها فى الخبرات الواعية للبشر، وأن التفاعل بين المادة المادية والمادة العقلية يحدث فقط فى الإنسان(٧).

وقد بين الفيلسوف النفسانى "وليم جيمس" بأن: "لمحة خاطفة عن العلاقة بين النفس والبدن سوف تكون نجاحا علميا يكسف كل ما سبق من نجاحات، ومن الممكن أن تسمح لنا فى المستقبل معرفة متزايدة فى تشغيل الدماغ فهم هذا السر"(٨).

رفض الثنائية مع بداية الفكر المادى الحديث :

وفى العصر الحديث ساد الفكر المادى فى كل نواحى الحياه كرد فعل متطرف على أفكار رجال الدين المبالغة فى الروحانية والفكر الأسطورى. وتمادى الفكر المادى فى تطرفه حتى تنكر لبديهيات راسخة فقلبها رأسا على عقب فى محاولة منه لكسب المعركة ضد الكنيسة التى تتحدث عن الروح والغيبيات وللانتصار على رجال الدين وسحبهم إلى المنطقة المادية التى يجهلون أسرارها، وبذلك يصبح العصر الحديث هو عصر علماء المادة.

ونتيجة لهذا ابتعد معظم علماء العصر الحديث عن مناقشة الروح أو العقل أو القلب، وادعوا بأن كل شىء ناتج عن نشاط الجسد ولا شىء خارج عنه، واعتبروا الغيبيات والقوى غير المحسوسة من الأساطير والأفكار البدائية، ولم يكن لديهم الدليل العلمى الموضوعى لهذا الرفض. وفيما يلى نستعرض بعض أقوالهم:

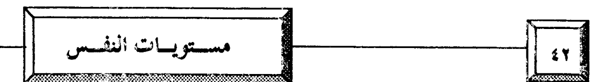
«بعد اكتشاف جالفانى Galvani بأن العضلة المشلولة أو المعزولة للضفدع يمكن تحريكها بتنبيه العصب كهربائيا، أو بمعنى إعادة الحياة إليها بالكهرباء، صار للجملة العصبية والأعصاب مفهوم آخر جديد، واعتبر هو المحرك وليس الروح أو النفس، وبذلك تحطم أحد أهم أسس الروح (Soul) ، أما الأساس الهام الآخر

للروح فهو الوعى (Consciousness) أو العقل (Mind) ، فكان الأمر تحديا عظيما للإبداع والذكاء البشرى، وكان الأمر فى بداية البحث عن العضو أو المكان الذى يقوم بالوعى. ومن أولى الملاحظات الطبية، أن المشاعر والوعى تقع حول القلب والحجاب الحاجز ومنها لفظ Schizophernia (من معنى حجاب حاجز)، ثم قرر أبقراط Hipocrates أن الدماغ هو مركز الوظائف النفسية بكاملها وهو الذى يقوم بها. وفى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تأكد مفهوم أن الدماغ هو العضو الذى يقوم بالوظائف النفسية. وبدأت دراسات تحديد أماكن كل وظيفة، وبدأت كلمة نفس أو روح تختفى من العلم، وتتركز فقط فى الطب الشعبى عند الروحانيين والمشعوذين عند الإنجليز، ولكن لفظ روح ونفس ظل أكثر استعمالا عند الألمان فسمى الدماغ عضو الروح Seele Organ ، والعلاجات النفسية سميت عند الإنجليز العلاجات الأخلاقية Moral Therapies أو الإنسانية، ثم اعتبرت الأمراض النفسية فى النهاية أمراض الدماغ، سواء كانت ذات تشريح مرضى دماغى أم ذات أصل عقلى، ثم بعد ذلك بدأت عمليات تنبيه الدماغ والتعرف على المناطق الحسية والحركية، وسميت المناطق الحسية النفسية والحركية النفسية، واستقر مفهوم أن النفس أو الروح هى الدماغ، وأن الوعى هو مجموع الوظائف الدماغية»(٩).

«ولكن المشكلة التى بقيت لرفض مفهوم الروح الآمرة المسيطرة هى قضية الإرادة الحرة والاختيار، والتى رفضت أيضا، حيث تم قبول أنه لا يوجد إرادة حرة وإنما يحصل تصرف محدد بحسب المعطيات الموجودة والأسباب والمؤثرات من جهة وبحسب حالة العضوية ومؤهلاتها من جهة أخرى، وبذلك حلت قضية توحى بوجود الروح والنفس مقابل العضوية أو الجسد»(١٠).

ويرى الكسيس كاريل أن كل نشاطات الإنسان ناتجة عن الجسد، ويقول فى ذلك:

«إن هذه الألوان الأساسية من النشاط لا يتميز أحدها من الآخر .. صحيح أن حدودها مناسبة، ولكنها حدود صناعية ويمكن مقارنتها بالأميبا التى تتكون أطرافها العديدة الوقتية عن مادة واحدة.. إن كل شىء يحدث كما لو كانت الأسس البدنية تبدى، أثناء جريانها فى الزمن، وفى وقت واحد، وجوها عديدة لوحدتها. وجوها تقسمها فنوننا إلى وجوه فسيولوجية ووجوه عقلية. وتحت وجوه الجسم العقلية يعدل النشاط البشرى شكله وصفته وشدته بصفة مستمرة. وتوصف هذه



الظاهرة الأساسية البسيطة بأنها اتخاذ وظائف مختلفة. وقد تولدت كثرة ظواهر العقل من ضرورة التنسيق.. إذ أننا، لكي نصف الشعور، مضطرون إلى تقسيمه إلى أجزائه. وكما هو الحال في أطراف الأميبا الوقتية الزائفة من حيث إنها الأميبا ذاتها، فإن جوانب الشعور هي الإنسان نفسه ممتزجة في وحدانيته»[11].

وفي الحقيقة، لم نجد فيما كتب عن رفض وجود النفس أو الروح دليلا علميا محترما، بل إن الرفض جاء في صورة عبارات إنشائية أو فلسفية، واستند إلى معلومات ناقصة، فمثلا من يقولون إن الوظائف النفسية يقوم بها الدماغ وأن الوعي هو مجموع الوظائف الدماغية ليس لديهم دليل واحد على ذلك وإنما هي قفزة استنتاجية غير علمية. وأيضا الذين رفضوا وجود شيء اسمه الإرادة والاختيار وعزوا كل تصرفات الإنسان إلى أسباب عضوية لم يأتوا بدليل على ذلك، بل إن الأدلة كلها ضدهم، فأحيانا يتخذ الإنسان قرارا يكون فيه إيذاءا لتكوينه العضوي ولكن فيه إرضاءا لمبادئه وقيمه، وأحيانا يقدم نفسه للموت عمدا في سبيل قيمة دينية أو خلقية.. كل هذا لا يمكن تفسيره في غياب إرادة حرة آمرة وموجهة ومسيطرة على الجسد.

ولقد شككت الدراسات المتأنية بعد ذلك في دقة المعلومات عن نظرية التوضع العصبي للوظائف النفسية بالدماغ وقشر الدماغ، وقررت بأن الأمر لا زال غامضا[12].

العودة إلى فكرة الثنائية في النصف الأخير من القرن العشرين :

لقد أحس المدافعون عن فكرة الثنائية وعن فكرة وجود الروح في الإنسان أنهم في مواجهة صعبة أمام العلماء الماديين بعد أن أوهموا العالم بأنهم قد اكتشفوا كل شيء وعرفوا الأسرار واتضحت أمامهم الصورة، وما كان يظنه الناس من قبل أنه من وظائف الروح أو النفس اتضح أنه من وظائف خلايا المخ والجهاز العصبي، وبهذا لا يصبح (في نظرهم) شيء اسمه الغيب ولا ضرورة للإيمان... الخ، بل إن بعض هؤلاء العلماء الماديين قال بالحرف الواحد: "إن الله في المخ" "God In The Brain" ، وبعضهم الآخر قال إن الإنسان في تطور مستمر إلى أن يصبح هو الله. إلى هذا وصل الغرور العلمي، وإلى هذا الحد وصلت الخدعة العلمية، وانحسر بسببها المد الديني لفترة غير قصيرة امتدت من النصف الأخير للقرن التاسع عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين، إلى أن أفاق الناس مرة أخرى على أصوات العلماء الجادين ينبهونهم إلى خدعة الديانة المادية التي عبدوها وقدسوها.

وكانت بدايات هذه الإفاقة وكشف هذه الخدعة المادية وجود بعض الملاحظات التى نذكر منها:

١ – ما برهنته بعض تجارب علماء النفس عن وجود الإدراك فوق الحسى[١٣] مثل:

أ– ما جاء فى بعض تجارب علماء النفس عن وجود التخاطر Telepathy أو التخاطب عن بعد، أى أن يقرأ شخص ما أفكار شخص آخر من بعيد دون اتصال أو كلام سمعى أو بصرى أو لمس.

ب– القدرة على رؤية ما يقع وراء نطاق البصر Clairvoyage مثل القدرة على قراءة أشياء مكتوبة وموضوعة ضمن مغلف مغلق.

ج– بعد النظر أو كشف المستقبل Precognition (القدرة على رؤية الأحداث المستقبلية).

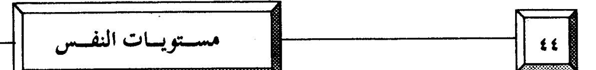
٢ – وجود هالة حول الجسد يمكن تصويرها بالأشعة تحت الحمراء يعتبرونها هى الروح.

٣ – الرؤى الصادقة التى تتحقق فى الواقع.

٤ – الأشباح والجن.

«إذن لماذا يفترض أن نقبل أن المظاهر النفسية هى جزء من نشاط خلايانا العصبية والجسمية هكذا.. ثم يطلب منا أن نبرهن على صحة هذا الفرض بكل التجارب وبدون كلل أو ملل، كما لو أن هذا الأمر حقيقة مطلقة لا تقبل الجدل، رغم كل ما سبق من ملاحظات تدعونا لعكس ذلك تماما. لماذا لا نحاول العكس: الافتراض أن المظاهر النفسية تؤلف كيانا مستقلا عن الجسم، له خواصه وتركيبه وعمله وصفاته، وهو يحكم الجسد ويستخدمه ويسيره كالآلة، وهو قد يتصل ويحكم خلايا، وقد ينفصل عنها، وفى كلتا الحالتين لا يكون جزءا من الخلايا ومظاهرها الحياتية، وإنما يكون مسيطرا ومسيرا وحاكما، يهجرها حين تستدعى الظروف. عند ذلك نجد أنفسنا وجها لوجه مع مفهوم الروح من جديد، فلقد افترض لها نفس المفهوم السابق وهو سكن الجسم والسيطرة عليه والانسحاب منه بعد موته»[١٤].

ويستعرض الدكتور/ راتب عبد الوهاب السمان[١٥] الفسيولوجية والتشريح العصبى للجهاز العصبى بالكامل ثم يخلص إلى نتيجة علمية تؤكد على وجود الروح وعلى أن الوظائف النفسية تتم فى الروح (بواسطة الطاقة الروحية والتى يفترض أنها تتكون من طاقة حركية وكهربية صرفة)، ويوجز الدكتور/ السمان ما توصل إليه من حقائق فيما يلى:



١-لا يوجد فى كامل الجملة العصبية مركز واحد يمكن أن تعزى له الوظائف النفسية المختلفة.

٢- إن كامل أجزاء الجملة العصبية مهمتها تنفيذ حركى واستقبال حسى فقط، ولا يوجد فيها أى موضع أو مكان يقوم بوظيفة "وحدة المعالجة المركزية".

٣- إن المناطق القليلة التى كان يعزى إليها القيام بالوظائف النفسية الأساسية، الإدراك والتفكير والتفاعل الامتاعى. وتخطيط السلوك والإرادة وحفظ المعلومات والتفاعل التذكرى ـ إن هذه المناطق صارت معروفة بوظيفتها فى نقل تنفيذ الانفعالات ونقل ودمج الاحساسات الحشوية الانفعالية، ولذلك فإن مكان هذه الوظائف يبقى مجهولا، وحسب رأينا فهو يقع فى الروح لا فى الدماغ.

من هنا يمكننا النص بقوة:

لا يوجد فى الدماغ أو الجملة العصبية بكاملها أى موضع يمكن أن يعزى إليه القيام بالوظائف النفسية الأساسية للإنسان وهى: التعرف والتفكير والتفاعل الامتاعى وتقرير السلوك وحفظ المعلومات والتفاعل معها. وهى لذلك تقع فى مكان آخر خارج الدماغ من الناحية التشريحية، وأنص هنا على أن هذا الشىء أو المكان الذى يقوم بها، هو ما كان، وما يجب أن يستمر الاصطلاح على تسميته "الروح". (انتهى كلام الدكتور/ السمان).

ونجد أيضا من الناحية العلمية أنه يصعب تصديق أن الخلايا الدماغية تستطيع القيام بالوظائف النفسية المعقدة لأن هذه الوظائف تحتاج إلى قدر هائل من المرونة والسرعة بقدر حاجتها فى ذات الوقت إلى قدر هائل من الثبات، وهذا لا يمكن تصوره إلا فى تركيبات أخرى ربما تكون على هيئة تراكيب معقدة من الطاقة الصرفة لها قدرة استيعاب هائلة، ولها قدرة عل الاستجابات المرنة والمتغيرة والسريعة، ولها القدرة فى ذات الوقت على الثبات أمام عوامل التخرب والفناء.

ولكن ما تزال هناك صعوبة ـ فى المجال العلمى المادى ـ أمام من يؤمنون بوجود الروح ويؤمنون بالغيب والبعث والخلود، هذه الصعوبة تكمن فى عدم استطاعتهم إثبات ذلك ماديا للعلماء الماديين وبالطرق القياسية العلمية المعروفة، حيث إن هذه الأمور الغيبية تعتبر خارج هذا النطاق المادى ومقاييسه وحساباته، ولكن آثارها فى حياة الإنسان ظاهرة لكل ذى عقل، ويؤكد وجودها ويعطى التصورات الصحيحة عنها ما جاء به الأنبياء والرسل بوحى من الله.

ومن هنا جاء هجوم العلماء الماديين على من يؤمنون بوجود الجانب الروحى فى الإنسان فهم يقولون:

«إن نظرية الدينيين والروحانيين تعتبر غير علميـة (بغض النظر عليى أنها صحيحة أم لا) لأنها فرضية بـدون تجارب أو بحث علمـى تجريبـى موثـق وواضـح، وتؤخذ بالاعتقاد القطعى والنهائى بدون قبول أى نقد علمى لهـا، فهى غير خاضعة للتغيير والنقاش»[١٦].

إذن نستطيع أن نوجز القول بأن للإنسان مظاهر جسدية يقـوم بها الجسـد ومظاهر نفسية يقوم بها كيان غير محسوس ولكنه متصل بالجسـد اتصـال مـا، وهـذا الكيان رغم الخلاف ول كنـهه (هـل هـو الـروح أو شـىء آخـر)، إلا أننـا نلاحـظ ظواهر فكرية وانفعالية وسلوكية صادرة عنه، وهذه الظواهر لا يمكننا تجاهلها لمجرد أننا لا نستطيع قياسها بوسائل محددة، وأيضا لا يمكننا أن نعزو هذه الظواهـر المعقـدة تعقيدا لا نهائيا إلى وظائف الجسد (بما فيه المخ والجهـاز العصبي) لأن طبيعة عملها ومواصفاتها تعلو بكثير فوق الإمكانات المعروفة لتركيب مادة الجسـد (بمـا فيـه المـخ والجهاز العصبي).

«وتبدو الوسيلة العلمية، للنظرة الأولى، غير قابلة للتطبيق على تحليـل جميع وجوه نشاطنا، ومن الواضح أننا، نحن المراقبـين، غـير قـادرين علـى تتبـع الشـخصية البشرية فـى كـل منطقـة تمتـد إليهـا، لأن فنوننـا لا تفهـم الأشـياء التـى لا أبعـاد لها ولا وزن، وإنما هى تصل فقط للمناطق التـى تقـع فـى الاتسـاع والزمـن.. إنهـا غـير قادرة على قياس الغرور والحقد والحب والجمـال، أو أحـلام العـالم، وإلهام الشـاعر، ولكنهـا تسـجل بسـهولة النواحـى الفسـيولوجية والنتـائج الماديـة لهـذه الحـالات النفسانية.. إن النشاط العقلى والروحى يعبران عن نفسيهما بتصرف معـين أو عمـل معين أو موقف معين نحو إخواننا فى البشـرية حينمـا يلعبـان دورا هامـا فـى حياتنـا.. فبهـذه الطريقـة فقـط يمكـن الكشـف عـن الوظـائف الأخلاقيـة والأدبيـة والغامضـة بواسطة الطرق العلمية.. وبمثل هذه الطرق غير المباشرة يستطيع العلـم معرفـة العـالم الروحى الذى حرم الدخول إليه»[١٧].

وكما قـال عـالم الفسـيولوجيا الشـهير Eccles[35] بالنسبة لمشـكلة الدمـاغ ـ العقل فإن معظم الفلاسفة مثلا (Burth 1932, Ryle 1949) يناقشون الصعوبات المفقود الأمل فى حلها نهائيا (حسب رأيهم) لتفسير وجـود عقـل ـ دمـاغ أو ثنائيـة حقيقية ـ تتفاعلان مع بعضهما. بينما كثير من العلماء مثلا:
Edington 1939, Le Gros Clark 1950, Adrian 1947, Scherrington 1931.

وجدوا فى الثنائية والتفاعل بين العقل والدماغ - وجدوا فيها الفرضية البدئية الأكثر قبولا من الوجهة العلمية البحتة لتناول هذه المسألة.

ويميل معظم علماء الفسيولوجية مثل Sherrington 1941, Sperry 1976, Pennifel, Eccles 1970 إلى الازدواجية القطعية، أى يوجد شىء اسمه عقل Mind وشئ آخر مستقل اسمه دماغ Brain كلا منهما وحدة مستقلة، وقد سار كل من Eccles و Sperry و Sherrington فى الموضوع متقدمين أكثر باتجاه النص أن العقل Mind يستطيع الفعل فى الدماغ مباشرة ولكنهم لم يخصصوا ماذا يقصدون بكلمة عقل Mind ولا بينما آلية تأثير العمليات العقلية على الدماغ(١٨).

وأخيرا نستطيع القول بأنه قد تم الاعتراف – على المستوى العلمى – فى النصف الأخير من القرن العشرين بثنائية تكوين الإنسان (جسد - روح)، (جسد – نفس)، (دماغ - عقل)، على أنه مركب من جزء مادى هو الجسد، وهذا الجسد مجرد وسيلة يستخدمها الجزء الأرقى غير المحسوس (بوسائلنا التقليدية الحالية) والذى اختلف فى تسميته، فالبعض يسميه الروح، والبعض يسميه النفس، وفريق ثالث يسميه القلب، وفريق رابع يسميه العقل.

ثنائية الصفات النفسية :

وليست الثنائية مقصورة على الجسد والروح بل امتدت تلك الثنائية لتشمل كل صفات الإنسان النفسية، فنجد كل صفة موجبة لها صفة سالبة مقابلة فمثلا الخير مقابل الشر، والرحمة مقابل القسوة، واللين مقابل العنف، والشجاعة مقابل الجبن، والكرم مقابل البخل، والإقدام مقابل التردد، والإيمان مقابل الكفر، والإخلاص مقابل النفاق. وهكذا نجد ازدواجية فى الصفات بحيث لو وضعنا أحد الصفات فى أقصى اليمين نجد أن هناك صفة مضادة لها فى أقصى اليسار، والإنسان يتحرك مختارا بإرادته يمينا أو يسارا فى المسافة بين الصفتين، وهذا الوضع جعل الإنسان مسئولا عن أعماله لأنه مخلوق مهيأ لأن يتحرك نحو اليمين أو نحو اليسار بإرادة شاء الله أن تكون حرة ليحاسب بعد ذلك على اختياره.

«وإن من عجائب التكوين البشرى تلك الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية كل اثنين منها متجاوران فى النفس وهما فى الوقت ذاته مختلفان فى الاتجاه: الخوف والرجاء.. الحب والكره.. الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال.. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية.. الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لا تدركه الحواس.. حب

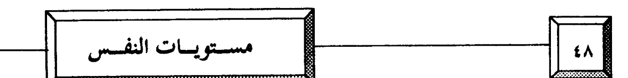
الالتزام والميل للتطوع.. الفردية والجماعية.. السلبية والإيجابية.. الخ. كلها خطوط متوازية ومتقابلة، وهي - باختلافها ذلك وتقابلها - تؤدي مهمتها في ربط الكائن البشري بالحياة، كأنما هي أوتاد متفرقة متقابلة تشد الكيان كله، وتربطه من كل جانب يصلح للارتباط! وفي الوقت ذاته توسع أفقه وتعدد جوانبه وتفسح مجال حياته، فلا ينحصر في نطاق واحد ولا مستوى واحد. وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد في كل ما نعرف من مخلوقات الله. كيان يرجع في النهاية إلى النشأة الأولى العجيبة: قبضة الطين ونفخة الروح»[19](*).

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان ٣).

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد ١٠).

ويتحدث الأستاذ محمد قطب عن تميز وتفرد الإنسان بهذه الازدواجية فيقول:

«أبرز ما في الكيان البشري أنه كيان مزدوج الطبيعة، وهو بهذا الازدواج كائن متفرد في كل ما نعلم من مخلوقات هذا الكون التي تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة فالحيوان من جانب والملك من جانب - وهما المخلوقان اللذان تجمعهما بالإنسان صلات - كلاهما ذو طبيعة واحدة ووجهة واحدة. الحيوان - حتى أعلى درجاته التي تشابه الإنسان في تركيبه الجثماني - مخلوق ذو طبيعة واحدة تتحدد بحدود الجسد والغرائز والتصرفات الغريزية.. جسمه هو مصدر طاقته.. وغرائزه هي الموجه له، وتصرفاته الغريزية هي عالمه بأكمله. والملك - من وصفه الذي نعرفه به وإن كنا لا نراه - مخلوق ذو طبيعة واحدة وذو اتجاه واحد. مخلوق يعيش في نطاق روحه ويطيع توجيهاتها بلا إرادة ذاتية ولا تصرف ذاتي. فالملائكة مخلوقات مفطورة على الطاعة المطلقة: 

يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم ٦). والإنسان وحده - فيما نعلم من الكائنات - هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من اتجاه»[20].

وبالنسبة للجانب الجسدي فقد استطاع الإنسان بالدراسة والتأمل والملاحظة أن يكشف قدرا معقولا من ظواهره ولكن ظلت مع ذلك هناك مجاهيل

(*) لم يقل بهذا أحد من العلماء، وهو سبق خطير لأنه لابد فيه من دليل صحيح (دكتور / صالح اللحيدان).

كثيرة في هذا الجسد، فالعلم قد أجاب على سؤال: ما هذا ؟ ولكنه لم يجب عن سؤال: لماذا ؟ وإذا كنا نجهل الكثير عن الجسد الذى بين أيدينا، أفلا يدعونا هذا للاعتراف بجهلنا في مجال الروح، وأن جهلنا بها لا ينفى وجودها، فنحن نرى مظاهرها.

«إن النفخة من روح الله تتمثل في الجانب الروحى للإنسان.. تتمثل في الوعى والإدراك والإرادة .. وتتمثل في كل القيم والمعنويات التي يمارسها الإنسان. فالخير والبر والرحمة والتعاون والإخاء والمودة والحب والصدق والعدل والإيمان بالله والإيمان بالمثل العليا والعمل على تحقيقها في واقع الحياه.. كل ذلك نشاط روحى، أو نشاط قائم على قاعدة روحية، وهو - مثلها - أمر معنوى لا تدركه الحواس ولكن تدرك آثاره الظاهرة في الواقع المحسوس.. نعم إنها غير ظاهرة، لا نستطيع تحديد حدودها ولا قياس أبعادها. ولكنا نرى آثارها وندركها.. نراها متمثلة أحيانا في وقائع ملموسة وأحيانا في رغبات وأشواق.. ومن ثم لا نستطيع أن نلغى من حسابنا وجود كيان معنوى للإنسان، نسميه "الروح" اصطلاحا، أو نسميه بأى اسم آخر»[21](*).

وأن الصحة النفسية من هذا المفهوم تبدو في قدرة الفرد (والمجتمع) على تحقيق التوازن بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح فلا تطغى إحداها على الأخرى، وأن أى تطرف في أى منها يؤدى إلى الاضطراب النفسى، فالانهماك في رغبات الجسد على حساب الروح، بعد عن التوازن، تماما مثل المغالاة في النشاطات الروحية على حساب الجسد. والرسول محمد صلى الله عليه وسلم يوضح هذا التوازن المطلوب لبعض الصحابة الذين قرروا اعتزال النساء واعتزال الدنيا والتفرغ للعبادة فقال لهم: "أما وإنى أعلمكم بالله واتقاكم له، وأنا أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى" (أو كما قال).

وطبقا لهذا المفهوم تصبح الآلية الرئيسية للمرض النفسى هى اضطراب التوازن بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح، وتصبح عملية العلاج النفسى (في المفهوم الاسلامى) ووظيفة المعالج النفسى هى مساعدة المريض على استعادة هذا التوازن.

مفهوم الثنائية لدى علماء النفس المحدثين :

كثيرين من علماء النفس تحدثوا عن الثنائية في تكوين الإنسان بشكل

(*) آمل مراجعة شرح العقيدة الطحاوية (دكتور / صالح اللحيدان).

مباشر أو غير مباشر فمثلا حين يتحدث التحليليون عن الشعور واللاشعور فهم يتحدثون عن الثنائية بشكل غير مباشر. أما أكثر من تحدث عن هذه الثنائية بشكل واضح ومباشر فهو "يونج" (Carl Jung. 1855-1961) ، حيث كان هذا المفهوم واضحا جدا في نظريته.

فقد تحدث عن الظل (Shadow) فذكر أن للإنسان جزء فعال وظاهر وجزء آخر كامن (في الظل)، وضرب لذلك مثلا بالشخص الذى يعرف عن نفسه أنه كريم، فإن هذا الشخص إذا فتش جيدا في نفسه فسوف يجد أن لديه ميولا ناحية البخل.

وتأكدت الثنائية عند "يونج" حين تحدث عن الـ "Anima" وهى الصفات الأنثوية الكامنة فى الذكر، والـ "Animus" وهى الصفات الذكرية الكامنة فى الأنثى. ثم تتأكد الثنائية أكثر وأكثر عنده حين يتكلم عن الانبساطية فى مقابل الانطوائية.

وفى رأى "يونج" أن الإنسان ليس فقط هو مجموع خبراته الشخصية، بل إنه يحوى مخزونا للخبرات الجماعية من كل الأجيال البشرية السابقة وهو ما أطلق عليه يونج (Personal and Collective Unconscious) وهو يرى أن التكامل فى الإنسان يحدث حين يستطيع فى مرحلة معينة (حددها بوسط العمر) اكتشاف الأجزاء الكامنة فى الظل والمناقضة لتفكيره وسلوكه السائد، وهنا يحدث التفاعل بين السائد والكامن، وبين ما هو ظاهر، وما هو مستتر فى الظل، وبين ما هو فردى وما هو جماعي، فيصل الإنسان إلى التكامل والشمول.

الفصل الرابع



النفــس



النفس

المعنى اللغوى :

جاء فى المعجم الوسيط[1](*):

-النفس: الروح. ويقال خرجت نفسه. وجاد بنفسه: مات.

-والنفس: الدم. يقال دفق نفسه.

-والنفس: ذات الشيء وعينه. يقال: جاء هو نفسه أو بنفسه.

-والجمع أنفس ونفوس.

-ويقال أصابته نفس: عين.

-وفلان ذو نفس: خلق وجلد.

-ويقال: فى نفسى أن أفعل كذا: قصدى ومرادى.

معنى النفس فى القرآن الكريم :

تطلق النفس فى القرآن ويقصد بها ذات الإنسان بالكامل.

يقول تعالى فى سورة المدثر:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر ٣٨).

ثم يقول تعالى فى سورة الطور:

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور ٢١).

فقد عبر بلفظ "امرئ" وهو لفظ دال على الإنسان بكامله مكان لفظ"نفس".

وأحيانا يعبر الله سبحانه وتعالى (فى القرآن) عن النفس ببعض مكوناتها مثل القلب والفؤاد والصدر:

يقول تعالي:

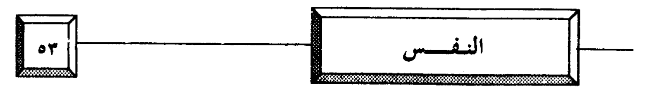
﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ (الإسراء ٢٥).

فهنا عبر عن مكنون النفس بكاملها.

ثم يقول تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الأحزاب ٥١).

(*) عرفها بتوسع جيد "لسان العرب" لابن منظور فعد إليه وشرح حقيقتها وأقسامها فى "شـرح الطحاوية" (دكتور صالح اللحيدان).



معبرا بالجزء "القلب" عن الكل " النفس".

ويقول أيضا : ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٢٩).

معبرا أيضا بالجزء "الصدر" عن الكل "النفس"، والله أعلم بمراده.

النفس عند الغزالى :

يقول أبو حامد الغزالى فى الإحياء[٢] : للنفس معنيين:

-أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة[٣] فـى الإنسـان.. وهـذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف، لأنهم يريـدون بـالنفس الأصـل الجـامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لابد من مجاهدة النفـس وكسـرها، وإليـه الإشارة بقوله عليه السلام: "أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك"[٤].

-المعنى الثانى: هو اللطيفة التى هى الإنسان بالحقيقـة، وهـى نفـس الإنسـان وذاتـه، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فـإذا سـكنت تحت الأمـر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله تعالى فى مثلها: "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية"، والنفس المعنـى الأول لا يتصـور رجوعهـا إلى الله تعـالى، فإنهـا مبعـدة عـن الله وهـى مـن حـزب الشيطان. وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفـس الشـهوانية ومعترضـة عليها سميت النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مـولاه. قـال الله تعالى: "ولا أقسم بالنفس اللوامـة". وإن تركـت الاعـتراض وأذعنـت أطـاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسـوء. قـال الله تعـالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: "وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء". وقد يجوز أن يقال: المـراد بالأمـارة بالسـوء: هـى النفـس بـالمعنى الأول، فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبـالمعنى الثـانى محمـوده لأنهـا نفـس الإنسان أى ذاته، وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات. (انتهى كـلام الإمـام الغزالى).

والمعنى الثانى للنفس الذى أورده الغزالى هو الأشمل فـالنفس هـى مجموعـة الوظائف النفسية، وهى تطلق لتمثل الإنسان ككل. وهى يمكـن أن تكـون فـى أحـد المستويات الثلاثة الآتية:

١ – المستوى الحسى (الحواسى):

حين تنشغل بالكلية بالعالم المادى بشهواته وملذاته وتتوقف عند ذلك، فهـى

فى هذه الحالة نفس تعيش فى أدنى مستويات وجودها ويطلق عليها النفس الأمارة بالسوء.

٢- مستوى بين الحس والروح:

فى هذه الحالة تتحرك النفس (الوظائف النفسية). فى المسافة بين المستوى الحسى المادى وبين المستوى الروحى صعودًا وهبوطا. فهى تتدنى إلى المستوى الحسى ثم تتذكر وتنتبه فتعود صاعدة إلى المستوى الروحى، وهذه تسمى النفس اللوامة.

٣- المستوى الروحى :

فى هذه الحالة تسمو النفس وتعيش فى المستوى الروحى حيث السكينة والرضا بعد التخفف من علائق العالم المادى واغراءاته وضغوطه، وتسمى فى هذه الحالة النفس المطمئنة.

المطمئنة

النفس اللوامة				النفس اللوامة

النفس الأمارة بالسوء

(مستويات النفس فى المفهوم الدينى)

ماهية النفس :

النفس شىء مستقل عن البدن، وإن كانت تتعلق بالبدن إلا أنه يبقى لها خاصية الاستقلال ويبرز هذا مؤقتا عند النوم ودوما بعد الموت. يقول تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر ٤٢).

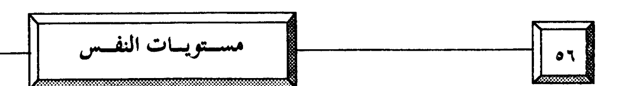
فالنفس تبدو فى هذه الآية شىء غير محسوس يغادر البدن عند النوم ويعود إليه بعد ساعات أو يغادره عند الموت ولا يعود إليه إلا عند البعث.

ولو تأملنا عملية النوم لوجدنا أن أهم شيء يفقده الإنسان - أثناء نومه - هو الوعي والإرادة والاختيار، فالإنسان حين ينام لا يعي ما يدور حوله، وليست له إرادة الفعل أو الاستجابة الواعية، وليس له القدرة بالتالي على اختيار أو تفضيل شيء على شيء، ولهذه الأسباب رفع القلم - شرعا - عن النائم حتى يستيقظ. أما بقية الأنشطة الحياتية فإنها تظل موجودة أثناء النوم بدرجات متفاوتة نوعا وكما، فالإنسان يتحرك أثناء النوم، ويمكن أن يتكلم أثناء الحلم، وهو يحتفظ بمظاهر حياة الجسد من حركة القلب والتنفس وعمليات التمثيل الغذائي وكثير من الأفعال المنعكسة، ويحتفظ الإنسان أيضا بنوع من التفكير الداخلي واستعادة بعض الذكريات في الأحلام.

إذن فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أن النفس (أو الروح) تعني وظيفيا: الوعي والإرادة والاختيار، وتصبح هذه هي الوظائف الأساسية لها والتي يتفرع عنها بعد ذلك وظائف الإدراك والتفكير والتذكر والتخيل والتعلم والسلوك ؟ ربما يكون هذا الاستنتاج قريب من الصحة، وهو على أي حال يحتاج إلى مزيد من التمحيص.. ولكنه مع هذا يقربنا من فهم ماهو النفس ودورها لأن النوم هو الحالة الوحيدة التي تترك النفس فيها الجسد مؤقتا ثم تعود إليه بعد ذلك عند اليقظة.. وبالتالي فإن الوظائف المفقودة أثناء النوم هي بالمنطق وظائف النفس التي غابت عن الجسد غيابا مؤقتا. ويمكن أن تكون مغادرة النفس للجسد أثناء النوم مغادرة جزئية وأن ما يتبقى منها متصلا بالجسد هو المسئول عن النشاطات النفسية التي تحدث أثناء النوم مثل الأحلام وحل بعض المشكلات (أثناء النوم) من خلال الأحلام، والحركة والكلام وإدراك بعض الأمور الغيبية (كما في الرؤى الصادقة).

تركيب النفس :

اختلف علماء النفس المعاصرين في تركيب النفس بقدر اختلاف مدارسهم واتجاهاتهم، فـ"فرويد" يرها بمنظار و"يونج" بمنظار آخر و"أدلر" بمنظار ثالث و"هورني" بمنظار رابع.. وهكذا. وهذه المدارس والاتجاهات تختلف كثيرا فيما بينها ويتعدى الخلاف مجال الفروع إلى الأصول، فبينما يركز فرويد على المركب الغريزي في الشخصية وعلى أنه هو المحرك الأساسي لنشاط الإنسان وأن كل ما عداه هي نشاطات ثانوية دفاعية، نجد أن "يونج" يركز على البعد الطولي الأعمق للشخصية من الناحية التاريخية ويركز على ثنائية التكوين النفسي، ونجد أن "أدلر" يركز على



مركب النقص في الإنسان ومحاولاته التغلب عليه وتحقيق القوة والسيطرة فـي المجال الاجتماعي.. وهكذا.

وفي الفكر الاسلامي تتعـدد مسـتويات رؤى العلمـاء والمفكريـن المسـلمين للنفس، ولكن يجمعها خيط واحد هو ارتباط النفس بخالقها وتوجهها إليه، والصراع الذى تحاول التغلب عليه لتصل إلى اللـه. وفيما يلى نستعرض بعض هذه الآراء:

(١) التركيب الثنائى للنفس :

النفس تتكون من جزء جسدى يميل إلى التلذذ بماديـات هـذه الدنيـا وجـزء روحى يصبو إلى السـمو والارتقـاء والتوجـه إلى الله، وأن هنـاك صراعـا دائمـا بـين هذين الجزئين. ويؤيد هذا التصور الآية الكريمة:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٧-١٠).

(٢) التركيب الثلاثى للنفس :

ويرى فريق آخر من العلمـاء أن النـفس تتكـون مـن ثلاثـة أجـزاء: النفـس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة ويؤيد هذا التصور الآيات التالية:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف ٥٣).

﴿.. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة ٢).

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر ٢٧).

ويرى فريق آخر أن النفس واحدة وأن هذه مجرد أحوال لتلك النفس.

والأقرب للفهم أن هذه مستويات ثلاثة للنفس تبدأ بالنفس الأمارة بالسـوء (المستوى الأدنى) وتصعد نحو النفس اللوامة ثـم تنتهى بـالنفس المطمئنـة فى أعلى درجات التكامل النفسي.

ويرى البعض[٥] أن النفس تتركب من ثلاثة أقسام هى:

أ- **البصيرة**: وهى تنقسم إلى ثلاثة أجزاء هى المفكرة والذاكـرة والمخيلـة، والدليـل على وجود البصيرة فى نفس الإنسان قوله تعالى فى سورة القيامة: "بـل الإنسـان على نفسه بصيره".

ب- **الشهوات**: وتضم ثـلاث شـهوات هـى النسـاء والبنـين والأمـوال. والشـهوة الأخيرة اسم مختصر لثلاثة هى:

*شهوة كنز المال وهى فى سورة آل عمران معبر عنها بالذهب والفضة.
*شهوة القوة، ومعبر عنها بالخيل المسومة.
* شهوة الطعام والشراب، ومعبر عنها بالأنعام والحرث.
وفى ذلك يقول تعالى فى سورة آل عمران:
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.
جـ- الحاجات: وهى تضم جميع الأعمال المترتبة على انتصار البصيرة على الشهوات أو العكس، والدليل على وجودها فى نفس الإنسان قوله تعالى فى سورة يوسف: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾.

الجسد والنفس والمجتمع :

ليس هناك حتى الآن دليلا علميا قاطعا على أن العمليات النفسية (مثل الإدراك والتفكير والتذكر والوعى والإرادة) تتم على المستوى الجسدى (فى المخ العضوى أو الدماغ). ويقول "ألكسيس كاريل" فى ذلك:

«إن معلوماتنا عن هذا الموضوع مازالت أولية، فنحن لا نعلم ما هى العلاقات التى بين الشعور والعمليات العصبية، والتى بين العمليات الذهنية والمخية. كذلك فإننا لا نعرف كيف تتأثر الوقائع التى تحدث فى الخلايا الهرمية بالحوادث السابقة أو حتى بحوادث المستقبل. أو كيف تتحول الانفعالات إلى مكبوتات والعكس بالعكس.. وكذلك لا نفهم كيف تنبع الظاهرة التى لا يمكن التنبؤ بها من العقل، وكيف يولد التفكير»[٦].

ويقول علماء الغرب: إن "ألفريد أدلر" (١٨٧٥-١٩٦١) هو أول من وصف الوظائف النفسية للإنسان على أنها نتاج مشترك للنواحى الجسدية العضوية وللدوافع النفسية. ويقولون أنه أول من نبه إلى العلاقة الوثيقة بين الجسد والنفس والمجتمع، وأن الإنسان كوحدة هو نتاج التفاعل الحركى لهذه العناصر الثلاثة[٦].

وفى الحقيقة إن هذا الكلام صحيح، ولكن "أدلر" لم يكن أول من قال به، بل إنه من قدمه أصبح بديهية ترد حتى على لسان العامة. وإذا عدنا إلى أصل المفهوم المتكامل والمتوازن لوظائف الإنسان النفسية لوجدنا أنه بدأ مع الإسلام. فقد جاءت المسيحية تعلى قيمة الروح على حساب الجسد وتدعو إلى الرهبانية. وقبلها كانت اليهودية تعلى قيمة المادة (والجسد) على حساب الروح. إلى أن جاء الإسلام يحقق

التوازن الصحى والتكامل بين نشاطات الإنسان المختلفة (جسده ونفسه وروحه ومجتمعة)، نلمح هذا فى قوله تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص ٧٧).

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء حين حاول اعتزال الدنيا والتفرغ التام للعبادة: "إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأد إلى كل ذى حق حقه".

ولقد وعى علماء المسلمين هذا المعنى جيدا، ويتضح ذلك فى قول ابن القيم حين كان يعدد صفات الطبيب الحاذق:

«أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم فى علاج الأبدان، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفا بأمراض القلب والروح وعلاجهما، كان هو الطبيب الكامل، والذى لا خبرة له بذلك - وإن كان حاذقا فى علاج الطبيعة وأحوال البدن - نصف طبيب»[٧].

وهذا الكلام قد قاله ابن القيم قبل "ألفريد أدلر" بحوالى ٧٠٠ سنة وليس هذا فقط بل إنه بعبارته السابقة (أى ابن القيم) يضع أساس علاج الاضطرابات النفسجسمية التى صنفها العلم حديثا.

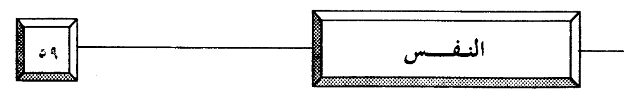
الروح والنفس :

هناك خلاف على المستوى اللغوى وأيضا على المستوى الاصطلاحى بين العلماء حول مفهوم الروح والنفس وهل هما شىء واحد أم شيئان مختلفان.

ويناقش ابن القيم هذه المسألة باستفاضة فى كتابه الروح ولكنه يوجز القول فى المسألة الثالثة والعشرون وهى[٨]:

"هل النفس والروح شىء واحد أو شيئان متغايران ؟ فاختلف الناس فى ذلك. فمن قائل: أن مسماهما واحد وهم الجمهور. ومن قائل أنهما متغايران. ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول النفس تطلق على أمور (الكلام لابن القيم): أحدها: الروح. قال الجوهرى النفس الروح، يقال خرجت نفسه.

قلت: والنفس فى القرآن تطلق على الذات بجملتها كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ (النور ٦١)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (النحل ١١١)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر ٣٨)، وتطلق على الروح



وحدها كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر ٢٧). وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ (الأنعام ٩٣) وقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات ٤٠)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف ٥٣).

وأما الروح فلا تطلق على البدن بانفراده ولا معه النفس، وتطلق الروح على القرآن الذى أوحاه الله تعالى إلى رسوله. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى ٥٢)، وعلى الوحى الذى يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (غافر ١٥)، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل ٢)، وسمى ذلك روحا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبه.

وسميت الروح روحا لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة. ومنها الروح والريحان والاستراحة، فسميت النفس روحا لحصول الحياة بها وسميت نفسا إما من الشئ النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشىء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفسا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجا كليا فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات. ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه كما يقال خرجت روحه وفارقت.

وقالت فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف: الروح غير النفس، قال مقاتل بين سليمان: للإنسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد فيه يتقلب ويتنفس فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين فإذا أراد الله عز وجل أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت. وقال أيضا : إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت.

قال أبو عبد الله بن منده: ثم اختلفوا فى معرفة الروح والنفس فقال بعضهم النفس طينية والروح نورية روحانية.

وقال بعضهم الروح لاهوتية والنفس ناسوتيه وأن الخلق بها ابتلى (لاهوتية نسبة إلى الله وناسوتية نسبة إلى الإنسان).

وقالت طائفة وهم أهل الأثر أن الروح غير النفس والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح، والنفس صورة العبد، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه، فالنفس لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها، والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها، وجعل الهوى تبعا للنفس، والشيطان تبع النفس والهوى، والملك مع العقل والروح، والله تعالى يمدهما بإلهامه وتوفيقه.

وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها على الخلق.

وقال بعضهم: الأرواح نور من الله وحياة من حياة الله.

وقالت طائفة: للمؤمن ثلاثة أرواح، وللمنافق والكافر روح واحدة.

وقال بعضهم: الأرواح روحانية خلقت من الملكوت، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت(*).

قلت (والكلام مازال لابن القيم): أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة، وهي النفس. وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة ٢٢)، وكذلك الروح الذى أيد بها روحه المسيح بن مريم كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (المائدة ١١٠)، وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن. وأما القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضا أرواحا فيقال الروح الباصر والروح السامع والروح الشام، فهذه الأرواح قوى مودعة في البدن تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن، ولا تبلى كما يبلى، ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة الى طلبه وإرادته، ونسبة هذه الروح الى الروح كنسبة الروح الى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح وهو قصبه فارغة ونحو ذلك.

(*) كيف هذا .. أين الدليل (دكتور / صالح اللحيدان).

فللعلم روح، وللاحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل والصدق روح، والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت، منهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيا ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيا بهيميا. (انتهى كلام ابن القيم).

خصائص النفس فى القرآن الكريم :

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم التى ذكرت فيها النفس يجد وصفا تفصيليا للنفس من كافة جوانبها، ويجد خصائص متعددة ومتباينة بعضها إيجابى (وأحيانا غاية فى الايجابية)، وبعضها سلبى (وأحيانا غاية فى السلبية)، وبعضها يقع فى المنطقة الواصلة بين غاية الايجابية وغاية السلبية. وفيما يلى نورد تلك الخصائص:

(١) الإيمان با لله :

إن النفس بفطرتها تميل الى الايمان با لله، وهى تبحث عنه سبحانه وتعالى بكل الوسائل، وإن لم يصلها عنه خبر عن طريق الأنبياء والرسل فهى تتخيله وتضع له تصورا يكون أحيانا على الطريق الصحيح وأحيانا أخرى يضل الطريق، لذلك أرسل ا لله الى كل أمة رسولا يخبرهم عنه ويلبى هذا النداء العقدى الناتج عن ميثاق الفطرة الأول:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف ١٧٢-١٧٤).

ففى هذه الآيات دليل على أن ا لله خلق النفس وفيها فطرة الإيمان به حتى ولو لم يخبرها به أحد، ولكن الذى يمحو هذه الحقيقة أو يشوهها هو التقليد الأعمى للآباء والأجداد دون وعى.

والنفس تهتدى الى الايمان بإذن ا لله ومشيئته حين تتوجه إليه. يقول تعالى:
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (السجدة ١٣).
ويقول تعالى:
﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (الإسراء ١٥).

ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ (الأنعام ١٥٨).

(٢) التكليف :

النفس مكلفة بالقيام بأوامر الله واجتناب نواهيه ومسئوله عن ذلك التكليف، والله عليهم بطاقتها فلا يكلفها إلا ما يعلم بأنه فى وسعها. يقول تعالى:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة ٢٣٣).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة ٢٨٦).

(٣) معرفة الخير والشر :

النفس بفطرتها تميل الى الخير وتنفر من الشر، والشريعة تؤكد هذا وترسخه فيها.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٧ - ١٠).

وكذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الحلال بين والحرام بين.." (متفق عليه).

وهذه المعرفة الفطرية للخير والشر نلمحها فى أقوال بعض الحكماء الذين يبدون بعض الآراء الطيبة والسديدة رغم عدم صلتهم المباشرة بالدين، وهذا ناتج عن تلك الفطرة التى تنزع نحو الخير وتستقبح الشر. ولكن الأديان جاءت لتؤكد وتوضح الخير والشر وتوضح معالمهما للجاهل والعالم ولتحمى الانسان من الضلال.

(٤) الهداية والضلال :

النفس لديها القابلية للهداية والقابلية للضلال فى ذات الوقت، وأى الطريقين سلكت فهى محاسبة على النتائج ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (الزمر ٤١).

(٥) المسئولية :

بما أن النفس أعطيت القدرة على التمييز الفطرى بين الخير والشر وزاد على ذلك إرسال الرسل لتأكيد معانى الخير والشر وهداية النفس الى الطريق الصحيح، وبما أن النفس منحت الحرية للاختيار بين البدائل المختلفة إذن فهى مسئولة بعد ذلك عن اختياراتها.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام ١٠٤).

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء ١٤).

﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة ١٠٥).

وبما أن النفس تطلق على الانسانَ ككـل (حواسـه وعقلـه وقلبـه وروحـه) فهـى إذن المسئولة عن تصرفاته وهى المحاسبة أمام الله.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ (النحل ١١١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر ٣٨).

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد ٣٣).

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ (الرعد ٤٢).

والنفس تقع عليها هذهَ المسئوليات كلها لأنها تمثل جماع نشاطات الانسان.

(٦) الحساب :

والنفس بناءا على ما سبق (من معرفة الخير والشر والتيسير لكـلا الطريقـين والمسئولية عن اختيارها) فهى محاسبة أمام الله عن ما فعلته فى الدنيا.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران ٣٠).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران ٢٥).

(٧) وحدة الخَلق :

إن الناس جميعا ابناء آدم عليه السلام فقد خلقـه الله ثـم تسلسـلت الذريـة منه الى يومنا هذا، ومن هنا نجد رباطا انسانيا عاما يربط الخلـق جميعـا علـى اختـلاف أجناسهم، وهناك صفات مشتركة بين كل البشر، وهناك رحم بين الناس جميعا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء ١).

وكما أن الخلق بدأ بنفس واحدة فإن البعث يتم بنفس السهولة:



﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (لقمان ٢٨).

وحدة الخلق هذه تدل على وحدة الخالق.. ومعجزة الخلق الأول تجعل من المنطقى قبول فكرة البعث الذى هو أسهل من الخلق من عدم.

(٨) الموت :

من خصائص النفس المهمة التى لا تحتاج الى دليل هو أنها تغادر هذه الحياة الدنيا بالموت إلى حياة أخرى سواء طال أجلها أم قصر.. وإن موتها له وقت لا يعلمه إلا الله.. ويمكن أن يحدث فى سن الشيخوخة ويمكن أن يحدث أيضا فى سن الطفولة أو ريعان الشباب :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران ١٨٥).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ (آل عمران ١٤٥).

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون ١١).

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران ١٦٨).

(٩) الجزاء :

والنفس حين تموت تحاسب وتجازى بما فعلت فى الدنيا.. وكل نفس مسئولة عن نفسها فهى لا تملك ضرا ولا نفعا لغيرها وقت الحساب والجزاء ولا غيرها يملك لها ذلك:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة ١٢٣).

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (طه ١٥).

(١٠) الكسب والعمل :

والنفس تعطى فرصة فى هذه الدنيا للعمل حسب اختيارها وإرادتها الحرة، والله يوفقها للعمل حسب توجهاتها ثم يحسابها عليه فى الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر ١٨).

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر ٣٨).

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ (يونس ٣٠).

(١١) النفس هي ذات الانسان بأكملها :

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ (المائدة ٤٥).

ففى هـذه الآية ذكرت النفس وهى الذات كلها ثم ذكرت بعض أجزائها.

(١٢) قتل النفس وحياتها :

والنفس بما أنها تمثل الذات بأكملها، لذلك فقتلها ينهى كل نشاطات الانسان ومن هنا أكد الله على حرمتها... وحث فى المقابل على كل ما يساعد على بقائها:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة ٣٢).

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة ٨٥).

(١٣) الأمر بالسوء :

والنفس كثيرا ما تأمر بالسوء إلا من رحم الله :

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف ٥٣).

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء ٧٩).

(١٤) الجدال :

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ (النحل ١١١).

(١٥) الهدى والضلال :

والنفس تتصف بالهدى بتوفيق من ربها إن وجد فيها ميلا للخير:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (السجدة ١٣).

وفى النفس أيضا قابلية للضلال :

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (الإسراء ١٥).

(١٦) الحسرة :

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (الزمر ٥٦).

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر ٨).

(١٧) النهى عن الهوى :

والنفس ينهاها صاحبها عن الهوى بما عرف من الحق عن طريق الوحي :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات ٤٠).

(١٨) الاطمئنان :

والنفس توصف بالاطمئنان فى حال الايمان :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر ٢٧).

(١٩) الفجور والتقوى :

والنفس قابلة لأن تسير فى طريق الفجور أو تسير فى طريق التقوى :

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٧-١٠).

(٢٠) العطاء والرضا :

والنفس تمنح راضية طيبة :

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (النساء ٤).

(٢١) النفس محل الأسرار :

النفس هى مستودع الأسرار وكل ما يخفيه الانسان... ولا يعلم مكنونها بالكامل إلا الله :

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (المائدة ١١٦).

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ (الأحزاب ٣٧).

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (يوسف ٧٧).

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ (الإسراء ٢٥).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ (البقرة ٢٣٥).

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة ٢٨٤).

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ (آل عمران ١٥٤).

﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة ٥٢).

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة ٨).

والإسرار هنا يختلف عن المادة المكبوتة فى اللاشعور والتى تحدث عنها فرويد، فالإسرار هنا يمكن أن يكون على مستوى الوعى أو اللاوعى.

(٢٢) التضرع والخوف والتوجس :

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (الأعراف ٢٠٥).

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ (طه ٦٧).

(٢٣) الهلاك :

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام ٢٦).

(٢٤) التأثر الشديد والألم :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦).

(٢٥) الصبر :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (الكهف ٢٨).

(٢٦) السفه :

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة ١٣٠).

(٢٧) الشهوة :

والنفس محل الشهوة (شهوة الجنس أو شهوة الطعام والشراب) :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ (يوسف ٢٣).

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف ٧١).

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (فصلت ٣١).

(٢٨) الشكر والكفر :

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل : ٤٠).

(٢٩) الظلم :

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ..﴾ (فاطر ٣٢).

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ (النمل ٤٤).

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف ٢٣).

(٣٠) العمل الصالح والعمل السيء :

﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت ٤٦).

(٣١) البخل :

﴿مَن يَبْخَلْ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد ٣٨).

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر ٩).

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء ١٢٨).

(٣٢) الوسوسة :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ (ق ١٦).

(٣٣) البصيرة :

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة ١٤).

(٣٤) الضلال :

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ (سبأ ٥٠).

(٣٥) الزواج :

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير ٧).

(٣٦) الشعور بالمشقة :

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ (النحل ٧).

(٣٧) الهوى :

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ (النجم ٢٣).

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (البقرة ٨٧).

(٣٨) الدعوة :

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (آل عمران ٦١).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (النساء ٦٣).

(٣٩) الابتلاء :

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران ١٨٦).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ (الحديد٢٢).

(٤٠) التملك والاكتناز :

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة ٣٥).

(٤١) الجهاد :

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة ٤١).

(٤٢) الإيحاء بالشر :

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف ١٨).

(٤٣) الخوف :

﴿.. تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (الروم ٢٨).

(٤٤) المقت :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (غافر ١٠).

(٤٥) اللمز :

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (الحجرات ١١).

(٤٦) النفس آية من آيات الله :

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات ٢١).

(٤٧) التزكية :

﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (النجم ٣٢).

(٤٨) الفتنة :

﴿ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ (الحديد ١٤).

(٤٩) الوقاية :

﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾ (التحريم ٦).

(٥٠) الخداع :

﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ (البقرة ٩).

(٥١) الحسد :

﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم﴾ (البقرة ١٠٩).

(٥٢) التثبيت :

﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة﴾ (البقرة ٢٦٥).

(٥٣) الحرج :

﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (النساء ٦٥).

(٥٤) الخسران :

﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ (الأنعام ١٢).

(٥٥) الكذب :

﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (الأنعام ٢٤).

(٥٦) المكر :

﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ (الأنعام ١٢٣).

(٥٧) النصر :

﴿ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون﴾ (الأعراف ١٩٢).

(٥٨) التغيير :

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الأنعام ٥٣).

(٥٩) الضيق :

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ (التوبة ١١٨).

(٦٠) الكبر :

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان ٢١).

(٦١) اليقين :

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل ١٤).

(٦٢) الإسراف :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر ٥٣).

(٦٣) الإيثار :

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر ٩).

(٦٤) النسيان :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر ١٩).

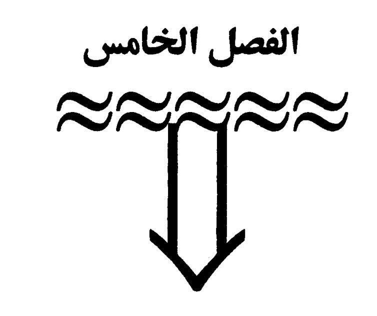
وهكذا نجد في النفس كل هذه الصفات (الايجابي منها والسلبي)، وهي بذلك تمثل ذات الانسان في مجملها بشكل عام، ولكن يبقى هناك جزء أعلى في الانسان يوجه تلك النفس ويأمرها وينهاها. وهذا الكيان الا على الموجه والمرشد غالبا هو القلب الواعي المتصل بعالم الروح، والدليل على وجود هذا الكيان الموجه للنفس قوله تعالى :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات ٤٠، ٤١).

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة ١٤).

ويمكن أن نمثل النفس بجيش بكامل أفراده وعتاده والقلب يمثل قائد هذا الجيش، وهذا ما سوف نناقشه في الفصل القادم بعون من الله بشكل أكثر تفصيلا.

الفصل الخامس



مستويات النفس

من الذرة إلى الروح :

إن دراسة الانسان تبدأ بدراسة الذرة (الوحدة الأساسية المعروفة حتى الان) بما فيها من الكترونات وبروتونات ونيوترونات وتراكيب طاقة، ثم دراسة الجزىء بما يحويه من ذرات، ثم دراسة الخلية بتركيباتها المختلفة من نواه وسيتوبلازم وميتوكوندريا وغشاء البلازما وما تحويه النواه من صبغيات تحمل الصفات الوراثية.

ويتصاعد مستوى الدراسة ليشمل دراسة مجموعات من الخلايا فى تراكيب نسيجية مختلفة ومنها ينشأ ما يعرف باسم "علم الأنسجة". والأنسجة تتراكب لتكون أعضاء لها صفات تشريحية خاصة ومنها ينشأ ما يعرف باسم "علم التشريح". وهذه الأعضاء عن طريق اتصالها بأعضاء أخرى تكون أجهزة تقوم بأداء وظائف فسيولوجية مختلفة ومنها ينشأ علم الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء).

وبالطبع فإن النشاط الذى تقوم به الذرة غير ذلك الذى يقوم به الجزىء، غير ما تقوم به الخلية، وما تقوم به الخلية منفردة يختلف عما يقوم به النسيج أو ما يقوم به العضو من نشاط، وإن ذلك النشاط يصبح أكثر تعقيدا حين تشترك مجموعة من الأعضاء لتكون جهازا متكاملا. فإذا اجتمعت أجهزة الجسم كلها (أو معظمها) فإن النشاط يصبح أكثر تعقيدا ودقة. وعند هذا الحد يعتقد علماء الطب أن هذا التركيب المعقد لأجهزة الانسان وتعاونها فيما بينها ينشأ عنه ما يسمى بالوظائف النفسية، فهذه الوظائف فى نظرهم هى جماع نشاطات الأجهزة الجسدية المختلفة وخاصة الجهاز العصبى والغدد الصماء. فهم يعزون الى الجهاز العصبى (الدماغ على وجه الخصوص) القدرة على الادراك والتفكير والذاكرة والارادة والانفعال والسلوك. والغدد الصماء بما تفرزه من هرمونات (مواد كيماوية حيوية) تساعد الجهاز العصبى على تنفيذ الاوامر الصادرة من الدماغ.

وهذا التصور صحيح فى الحيوان، ولذلك نجد أن كل فصيلة من الحيوانات لها نمط سلوكى مفهوم ومتكرر بشكل نمطى، وهذا التكرار النمطى مرجعه ارتباط سلوك الحيوان بتركيبات دماغية معينة، لذلك لا نرى حيوانا يشذ عن فصيلته ويصبح مبدعا أو مفكرا أو يخرج عن إطار القطيع بنمط حياتى أو سلوكى جديد تماما.

أما فى الانسان، فإن التميز الشديد بين كل شخص وآخر فى كل شىء، والمرونة الشديدة فى الاستجابات للبيئة والتى تتنوع بشكل لا نهائى، كل هذا وغيره كثير يوحى بأن الوظائف النفسية للانسان تتم فى تراكيب أكثر تعقيدا وأكثر مرونة

من التركيبات المادية المعروفة. ومهما قيل عن تعقيد تركيب مخ الانسان وزيادة تطوره عن مخ الحيوان فإن ذلك لا يفسر هذا الفارق الهائل فى الوظائف فضلا عن أنه لا يفسر هذا التنوع الهائل فى سلوك البشر. فلو كان الأمر قائما على وظائف خلوية دماغية لوجدنا تشابها عاليا فى الوظائف النفسية للبشر (نظرا لتشابه تركيب خلايا الدماغ تشابها كبيرا بين الناس)، ولما وجدنا هذا التنوع والتطور التصاعدى للإنسان.

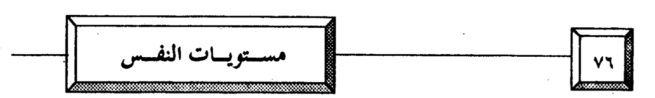
إذن فالاستنتاج بأن الوظائف النفسية (أو الروحية) للانسان تنتج عن التركيبات المادية لجسده فقط هو استنتاج غير علمى ولا يقوم عليه دليل موثوق به. وفى هذا يقول الكسيس كاريل:

«إن مجرد القول بأن الخلايا الشوكية هى مركز العمليات العقلية إن هو إلا تأكيد لا قيمة له، لأنه لا يوجد أدنى احتمال لملاحظة وجود العمليات العقلية فى جسم الخلايا الشوكية»[1].

والفرض الأكثر قبولا الآن هو أن هذه العمليات النفسية (العليا) تتم فى مستوى أعلى وأكثر تعقيدا من مستوى الجسد (وإن كانت له صلة ما بالجسد)، وهذا المستوى ربما يكون نوع من تراكيب الطاقة الصرفة والتى لا نعرف كنهها حتى الآن، وهذا المستوى (الأعلى) ربما يكون هو الروح. وهذا الفرض يتمشى مع المفهوم الدينى للانسان من أنه يتكون من جسد وروح، فإذا كنا قد عرفنا الجسد وإمكاناته ووظائفه، ورأينا كيفية استحالة أن تقوم التراكيب الخلوية الدماغية بهذه الوظائف النفسية اللانهائية من حيث التعدد والمرونة فإن ذلك يرجح أن يكون مكان هذه الوظائف تراكيب أكثر تعقيدا وأكثر مرونة من التراكيب المادية ذات القدرات البسيطة والمحدودة.

وإن تجاهل هذا المستوى (الروحى) للانسان يحرم علماء النفس من رؤية الجزء الأهم والجزء الموجه لسلوك الانسان، ويجعلهم كالأعمى الذى أمسك بغصن شجرة وتعلق به وظن أنه أحاط بالشجرة كلها. وهذا ما يحدث فعلا الآن، فقد تبنى علماء الفسيولوجيا وعلماء الأدوية وعلماء الطب النفسى فكرة أن الوظائف النفسية للانسان تتم بكاملها فى المخ، وركزوا اهتمامهم على المشتبكات العصبية Neuronal Synapses والتى يحدث فيها النقل العصبى والكيميائى بين أطراف الخلايا العصبية المخية.

والذى يتأمل معظم الأبحاث الحالية فى الطب النفسى بالذات يجدها تتركز



حول المشتبكات العصبية وحول المواد الكيماوية الحيوية التى تزيد وتنقص عندها، فالهوس يحدث مثلا حين يزيد نشاط النورأدرينالين، والاكتئاب يحدث حين يقل نشاط السيروتونين... وهكذا. ونحن لا ننكر بالطبع أهمية الجهاز العصبى والمشتبكات العصبية ودراستها ودراسة التغيرات الكيميائية الحيوية فى الجسم، ولكننا نحذر من خطورة الرؤية الأنبوبية الضيقة للانسان، فهذه الأشياء، وإن كانت هامة، فى تركيب الانسان إلا أنها ليست هى الفاعلة والموجهة لسلوكه، وإنما هى وسائط يمر عبرها السلوك ولا مناص من دراستها، (بل هى ضرورة) بهذا المفهوم بشرط أن لا نبالغ فى تضخيم دورها ونعممه، وبشرط أن لا نهمل باقى، بل أهم محركات السلوك الانسانى (نقصد المستوى الروحى).

وليس هناك شك فى أن تبنى وجهة النظر الشاملة عن الانسان سوف تختلف كثيرا عن تبنى وجهة النظر الجزئية عنه، من حيث فهم الانسان فى الصحة والمرض، ومن حيث الوسائل التى سنستخدمها لتقويمه وإصلاحه وعلاجه (إذا مرض). فالمفهوم الكيميائى العضوى السائد عن الانسان الآن قد أعلى من قيمة الأدوية الكيميائية فى علاج الاضطرابات النفسية، فأصبح الانسان ينام بدواء ويصحو بدواء ويفكر بدواء ويفرح بدواء... الخ حتى أدمن الناس الدواء المقنن طبيا وتوسعوا بعد ذلك (وقبل ذلك أيضا) فى الأدوية غير المقننة (المخدرات) جريا وراء الحل الكيميائي. فى حين أن النظرة الشاملة لكل مستويات الانسان سوف تجعلنا نعطى لجسده (بتفاعلاته الكيميائية وناقلاته العصبية) مكانته، ونعطى فى ذات الوقت اهتماما أو اهتمامات مناسبة لأبعاده النفسية (الروحية) والتى يتفاعل معها (تأثيرا وتأثرا) الجوانب البيئية والاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية. ومن هنا تختلف الخطط والسياسات الموضوعة على المستوى الطبى وعلى المستوى النفسى وعلى المستوى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى بحيث تحقق للانسان توازنا فى تلبية احتياجاته الجسمية والروحية (بعد فهم عميق لتكوينه وغاياته) بما يحقق له الصحة النفسية فى خلال رحلته الدنيوية وتحقق له أيضا التوجه الصحيح نحو ربه لينجو ويفلح فى رحلته الأخروية.

إن فكرة تعدد المستويات تسيطر على كثير من المخلوقات وتتضح فى كثير من مظاهر الوجود فمثلا السماوات سبع والأرضين سبع والناس درجات (مستويات) والأنبياء درجات والجنة درجات.. وهكذا. وهذه الفكرة تنطبق كثيرا على النفس لذلك نجد القدماء والمحدثين يتحدثون عن تعددية مستوياتها، بعضهم

يراها تعددية فعلية (أى تعدد ذوات) والبعض الآخر يراها تعدد صفات.

مستويات النفس عند ابن القيم :

يتساءل ابن القيم : هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

ويجيب قائلا[٢]:

«فقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر ٢٧).

وبقوله تعالى :

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة ١، ٢).

وبقوله تعالى:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف ٥٣).

والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم...

أما النفس الأمارة بالسوء فإنها التى تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها... وأما النفس اللوامة.. فاختلف فيها: فقالت طائفة: هى التى لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظ من التلوم وهو التردد فهى كثيرة التقلب والتلون.. تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة.. فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض وتلطف وتكثف وتنيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطيع وتتقى وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم، ثم اختلفوا فقالت فرقة هى نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة. قال الحسن البصرى: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائما يقول ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى، أو نحو هذا من الكلام. وقال غيره: هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الايمان بخلاف الشقى فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين فإن كل حد يلوم نفسه برا كان أو فاجرا، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقى لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى: هذا اللوم يوم القيامة فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته وإن كان محسنا على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافى بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة».

ثم يبين ابن القيم[3] أفضل حالات النفس فى كامل صحتها النفسية ومرتبتها العالية ألا وهى حالة النفس المطمئنة والتى يمكن أن نطلق عليها "الحالة المثلى للنفس"، فيقول:

«فالطمأنينة الى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه. يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه الى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله الى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقة إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذى أنزله على رسوله كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨).

فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور والثقة به عجز قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن الى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنا من كان.

وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله الى خبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول.

وهذا أمر لا نهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الايمان التى عليها بناؤه ثم يطمئن الى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا وهذا حقيقة اليقين الذى وصف به سبحانه وتعالى أهل الايمان حيث قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة ٤)، فلا يحصل الايمان بالآخرة حتى يطمئن القلب الى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته الى الامور التى لا يشك فيها ولا يرتاب».

ثم يبين ابن القيم أنواع هذه الطمأنينة ومستوياتها بقوله:

«والطمأنينة الى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان :

●طمأنينة الى الايمان بها وإثباتها واعتقادها. وطمأنينة الى ما تقتضيه وتوجبه من آثار المعبودية، مثاله الطمأنينة الى القدر وإثباته والايمان به يقتضى الطمأنينة الى مواضع الأقدار التى لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا ييأس على ما فاته ولا يفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد ٢٢، ٢٣).

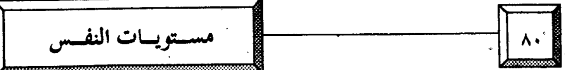
●وأما طمأنينة الاحسان فهى الطمأنينة الى أمره امتثالا وإخلاصا ونصحا فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدا، فلا يساكن شبهه تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس. وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وإنزعاجها الى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها. ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة فى الظفر بالتوبة. وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما فالتوبة طمأنينة تقابل ما فى المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصى عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة فإن لكل شهوة سكرا يزيد على سكر الخمر وكذلك الغضب له سكرا أعظم من سكر الشراب.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة، كما أكرمه بالمطمئنة فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ثم مطمئنة وهى غاية كمالها وصلاحها» (انتهى كلام ابن القيم رحمه الله).

ولقد تكلم أيضا علماء النفس المحدثين عن أحوال ثلاثة للنفس (أو مستويات ثلاثة لها) فتحدث "فرويد" عن اللاشعور وما تحت الشعور والشعور، وأيضا وصف الهو (Id) والأنا (Ego) والأنا الأعلى (Super Ego).

وتحدثت "كارين هورنى" عن الذات الواقعية والذات الحقيقية والذات المثالية، وتحدث "إريك برن" عن ذات الطفل وذات البالغ وذات الوالد.

وإذا كانت مفاهيم علماء الغرب عن النفس وأحوالها ومستوياتها تلتقى فى بعض الجزئيات مع مفاهيم علماء المسلمين عن النفس إلا أن هناك اختلافا جذريا فى



الدوافع والغايات يجب أن ينتبه له عالم النفس المسلم فلا ينخدع ببعض التشابهات الظاهرية.

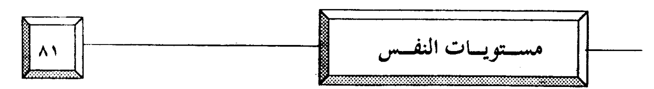
ولو قارنا بين هذه المستويات للنفس (الأمارة بالسوء واللوامة والمطمئنة)، وبين ما ذكره "فرويد" من مركبات النفس الثلاثة (الهو والأنا والأنا الأعلى)، فإنه يبدو من الظاهر بعض أوجه التشابه خاصة بين "الهو" و"النفس الأمارة بالسوء"، فكلاهما تحركه الغرائز وكلاهما يعمل تبعا لمبدأ اللذة. ثم نجد أن التشابه أقل بين "النفس اللوامة" و"الأنا الأعلى"، فعلى الرغم من اتصاف كلاهما بلوم النفس ومحاولة كبح الغرائز إلا أن النفس اللوامة هنا لم تنشأ خوفا من عقاب المجتمع وإنما يتأتى خوفها من الايمان بالحساب واليوم الآخر، وهي تلوم صاحبها حتى على أشياء لا تجعله يقع تحت طائلة العقاب (الدنيوى). وأخلاقيات الأنا الأعلى فى المفهوم الفرويدى أخلاقيات نفعية دنيوية تنشأ من الخوف من المجتمع أما أخلاقيات النفس اللوامة (التى تحاول كبح الغرائز) فإن لها جذورا وغايات إيمانية مصدرها الخوف من الله.

وعلى الرغم من التشابه الظاهرى بين "الأنا" و"النفس المطمئنة" حيث إن كلاهما يتسم بالوصول الى مرحلة التوازن والاستقرار، إلا ن التوازن فى حالة "الأنا" هو توازن بين الاحتياجات الغريزية وبين متطلبات المجتمع، وهو أيضا توازن نفعى مادى لا يضع الاخلاقيات المطلقة والقيم العليا فى حسابه، فهو فقط يضبط الغرائز بالقدر الذى تسمح به الظروف فى المجتمع بحيث أنه لو انتقل الى مجتمع مسموح فيه بإطلاق الغرائز دون عقاب فسيطلقها. أما "النفس المطمئنة" فالتوازن فيها توازن إيمانى بمعنى أنه قد حدث توازن بين متطلبات الجسد (فى الحدود المسموح بها شرعا) وبين متطلبات الروح من عقيدة صحيحة وعباده وأخلاق مطلقة وقيم عليا.

مستويات النمو النفسى عند "أوتورانك" (Otto Rank) :

لقد تتلمذ "أوتورانك" فى البداية على يد فرويد ثم شعر فى وقت من الأوقات أنه يجب أن ينفصل لكى يستقل بتفكيره ويضع نظريته الخاصة به فى تصوره لرحلة الانسان.

ويرى "رانك" أن الانسان يمر عبر مسيرة حياته بخبرات متبادلة من التوحد ـ فالانفصال، ثم التوحد ـ فالانفصال.. وهكذا طوال حياته. والتوحد يحدث حين يدخل الانسان فى علاقة قريبة جدا مع شخص آخر (أو مع فكرة أو فلسفة أو روح) حتى يشعر الانسان بأنه مرغوب فيه من خلال تلك العلاقة، وأن هناك وجه شبه بينه



وبين الآخر. وعندما تتأكد هذه الأهداف يبدأ الانسان بقرار إرادى فى الانفصال (الولادة من جديد) ليهرب من الاختناق الذى يسببه هذا التوحد (الموت خنقا) من ناحية، وليبحث عن تفرده واختلافه عن الآخر من ناحية أخرى. وفى كل عملية توحد أو انفصال يوجد هناك ألم ومعاناة يجب أن يتخطاها الشخص لكى تتم عملية النمو. وهناك علاقة جدلية (ديالكتيكية) بين عمليات التوحد والانفصال طوال حياة الانسان. وهذه العمليات (التوحد والنفصال) تتم فى كل يوم على مستويات صغيرة ولكن هناك مراحل رئيسية تتم فيها تحولات كبيرة وانتقال من مستوى الى مستوى آخر. وقد قسم رانك هذه المراحل الى:

(١) المرحلة العائلية (Familial Phase)

تبدأ أولى تجارب التوحد فى الرحم بين الحيوان المنوى والبويضة ثم يلتصق الجنين بجدار الرحم ويحس بكل الخبرات الفسيولوجية والنفسية والحاجة الى القرب والراحة الانتماء داخل الرحم. ففى أعماق الرحم يكتب داخل اللاشعور فى الجنين احتياجه للانتماء والقرب والتوحد مع الكمال الكونى. وربما يكون هذا هو سر حنين الانسان لأن يعيش وجودا خاليا من المشاكل، وتوقعه للكمال القادم من السماء نتيجة مروره بتجربة القرب والراحة والكمال أثناء وجوده داخل الرحم.

ويربط "رانك" ربطا رمزيا بين وجود الانسان الأول آدم فى الجنة وبين وجود الجنين فى الرحم، ثم بين طرد آدم من الجنة وما يقابله من عملية ولادة للجنين وطرده خارج الرحم (عاريا كما طرد آدم).

وبعد صدمة وألم الولادة يسعى الطفل والأم الى التوحد مرة أخرى ويظهر هذا فى أقصى صوره أثناء الرضاعة حيث تكون العلاقة فى غاية القرب. ومن خلال علاقة الطفل بأمه يحس مرة اخرى بالانتماء ويحس أيضا بأنه مرغوب فيه وأن له قيمة بدليل أن أمه تعطيه من وقتها ومن جهدها وتهتم به كل هذا الاهتمام. ولكن بعد فترة يشعر الطفل أن احتياجاته تتجاوز حدود الأم. لقد بدأ نمو الارادة الذاتية له ومن هنا بدأ يشعر أنه شىء منفصل عن الأم وليس امتدادا لها. هو يشعر أنه جزء من هذا الكون الكلى ولكنه مع هذا يعتبر ذات مستقلة، وبهذا يبدأ انفصاله عن أمه ويصاحب هذا الانفصال ألم للطرفين.

وفى هذه المرحلة وحتى سن العاشرة أو أكثر يظل الطفل بعد انفصاله عن أمه متصلا بالأسرة فيأخذ فى فترة الاتصال (التوحد مع الأسرة) هذه عادات وقيم وتقاليد الأسرة، ويشعر فى هذه الفترة بانتمائه لها. ثم تأتى مرحلة المراهقة فيشعر مرة



اخرى أن له هوية مستقلة (أو يجب أن تكون مستقلة) فيبـدأ فى الابتعاد عـن محيـط الاسرة ويصاحب ذلك ألما له وللأسرة.

(٢) المرحلة الاجتماعية (Societal Phase)

يبدأ التوحد مع المجتمع الانسانى والحضارة فى فترة المراهقة، وعندهـا يتبنى الشاب قيم ومقاييس المجتمع الانسانى وكأنها جزء منه. ثم يحدث انفصال مرة أخرى حين يدرك الانسان أنه شيء متفرد عن المجموع ولـه خصائصـه. ويقـول "رانـك" إن الشخص العصابى يفشل فى التوحد مع عرف وقيم المجتمع لذلـك يستقبلها وكأنهـا ضغوط ومتطلبات خارجية، ويضيع حياته فى الصراع معها لتقابل (وتوافق) العـرف والقيم الخاصة به.

(٣) المرحلة الإبداعية (الفنية) (Artistic Phase)

الشخص المبدع فى نظر "رانك" يجب أن يظل علـى علاقـة بالعـالم الخـارجى وبمجموع البشر الذى ينتمى إليهم. وهو فوق هذا يتوحد مع الحقيقة الكونيـة، ومـع الطبيعة، ومع طبيعة الانسان. وفـى العمـل الإبداعى يصغى الانسـان للصـوت غـير المسموع للحقيقة ثم يصوغها من خلال كلماته وأفعاله، فهو يسمع بوضوح ما يشعر الآخرين نحوه بالغموض، وهو ينقل الخبرات الكامنة الى عالم الواقع من خلال أعماله. ولهذا يعتبر المبدع فى غالب الأحيان زعيما لحركة البشر فهو يمر بخبرات إبداعية تعتبر كامنة أو مكتومة فى الآخرين، وبمعنـى آخـر فـإن النـاس يتمكنـون مـن المـرور بهـذه الخبرات الإبداعية الكامنة من خلال المبدع.

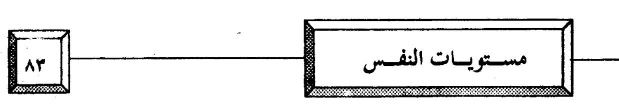
(٤) المرحلة الروحية (Spiritual Phase)

ويعتبر "رانك" أن أعلى مستويات الإبداع هو وصول الانسـان الى المستوى الروحى، وهذه بدورها مرحلة ولادة جديدة. وعند هذه المرحلة لا يشعر الإنسان أنه فى حاجة الى إبداع آخر.

وتبدأ هذه المرحلة بتقمص عميق وتوحد فكرى وفلسفى وروحى، وتصبـح الذات متوحدة مـع الـروح ويصبـح الانسـان متصـلا بـالخلود والكـون، وفـى بعـض الحالات بالإله المتشخص (Personified God) على حد تعبير "رانك". وهذه إعادة ولادة دينية عميقة(*).

وحين الوصول الى هذه المرحلة من المثل الخلقية يصبح الانسان فى سلام مـع

(*) هذا كلام الاتحادية والحلولية وبعض الطوائف الأخرى (دكتور / صالح اللحيدان).



الوجود بأكمله ومع الحياة ومع القدر وأيضا مع المـوت، ويصبـح الانفصـال النهـائى بالموت شيئا غير مخيف حيث لا يشعر الانسان بالندم على حياته لأنه يكون قد عاشـها الى أقصاها، لأن الخوف من الموت هو فى الأساس خوف الإنسان من الفشـل فـى أن يعيش.

وفى هذا المستوى الروحى يعيش الانسان فى تناغم مـع الوجـود، ولا يحمـل التوحد والاتحاد بعد ذلك أى توتـر أو صـراع، فقـد أصبـح الانسـان فـى توحـد مـع المطلق حتى وإن أحس أنه شيء مستقل.

ويعتقد "رانك" أن الانسان ينتقل من مرحلة الى مرحلـة أخـرى بإرادتـه وأن الإرادة هى قوة ذاتية لدى الانسان لهـا القـدرة علـى التوجيـه والتنظيـم ولا تمثـل أى دافع بيولوجى أو اجتماعى، وإنما تمثل التعبير الابداعـى للشـخصية ككـل وتميـز كـل شخص عن الآخر. والارادة هى التى توحد وتـوازن بـين الدوافـع والضوابـط لذلـك فهى العامل النفسى الذى يحدد سلوك الانسـان، والارادة هـى الأداة التـى بواسـطتها يقرر الانسان التوحد فى إقامة علاقة أو الانفصال من تلك العلاقة.

وإذا حاولنا تقييم نظرية "رانك" فلاشك أنه قد عمق مفهـوم الانسـان أكـثر من فرويـد ويرجـع هـذا الى محاولتـه الاسـتفادة مما ورد قديما فـى الكتـب السـماوية والكتب التاريخية القديمة، ويتضح هذا من ربطه الرمزى بين حياة آدم الهانئة فى الجنة وحياة الجنين الهانئة فى الرحم ثم طرد(*) آدم من الجنة عاريا ومـا صاحبـه مـن ألم مـع طرد الجنين من الرحم عاريا وما يصاحبه من ألم. ولكنـه يعتـبر أن قصـة آدم وإقامتـه بالجنة وطرده منها ما هى إلا عملية رمزية استطاع القدماء أن يعبروا بهـا عـن عمليـة نشأة الانسان فى الرحم. فى حين أن قصة آدم فى مفهومنا الدينى هـى قصـة حقيقيـة وقعت وأخبر عنها القرآن.

ويحسب لرانك أنه تحدث عن عملية التوحد والانفصـال فـى حيـاة الانسـان وعملية التبادل الديالكتيكى بين الثنائيات المتضادة، وهذه تكاد تكون حقـائق واقعيـة نلمسها فى حياة الانسان.

أيضا لا ننسى أن رانك قد أعطى تصـورًا طوليًا لحيـاة الإنسـان وسـعيه نحـو النمو حتى يصل الى المستوى الروحى، وهو بذلك يكون قد هرب من مفهوم الحتمية النفسية التى تمسك بها أسـتاذه فرويـد والتـى تجعـل مصـير الإنسـان محـددًا بـأحداث

(*) لم يُطرد بل أُخرج ثم عُفي عنه (دكتور / صالح اللحيدان).

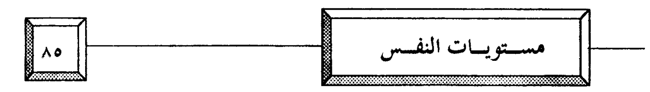
الطفولة الاولى. ومما يزيد من قوة هذا المفهوم عند "رانك" هو إعلائه لقيمة الارادة واتخاذ القرار بحرية عند الانسان فى عمليات اتحاده وانفصاله عبر المراحل المختلفة. وهو قد جعل الارادة حرة ومطلقة من جميع القيود البيولوجية والاجتماعية. وهنا يتفق بعض الشىء مع المفهوم الدينى فى تمتع الانسان بالارادة والحرية فى اختيار طريقه، إلا أن المفهوم الدينى يضع فى الاعتبار مسألة القضاء والقدر المرتبطة بالاعتقاد وبهيمنة الله على ما يسير فى هذا الكون من أحداث. وقد بالغ "رانك" فى تقديس إرادة الانسان والإعلاء من قدرتها أكثر من الواقع لدرجة أنه عزى إليها قرار الموت، فالانسان فى نظره هو الذى يقرر موته بإرادته حين يصل الى مستوى معين فيقرر التوحد مع الخلود بالموت.

وتحدث "رانك" عن المستوى الروحى وما يسوده من سلام وطمأنينة، وعن الخلود... الخ، ولكنه لم يحدد بوضوح طريقة الوصول الى هذا المستوى، وهل يصل إليه كل الناس كمرحلة نمو حتمية وعامة ؟ أم أنه قاصر على بعض الناس ؟ فهل هذا يرجع الى تميزهم بصفات وراثية أو ملكات خاصة ؟ أم راجع الى جهد يبذلونه فى ذلك ؟

وخصائص المستوى الروحى يمكن أن تتشابه فى بعض الوجوه مع النفس المطمئنة فى المفهوم الديني، غير أن المفهوم الدينى يوضح تفاصيل الطريق الموصل الى النفس المطمئنة من مجاهدة النفس والتوجه بالعبادة الخالصة والدائبة نحو الله والتخفف من علائق الدنيا... الخ.

أما فكرة التوحد الروحى مع الكون ثم مع الإله (حسب تعبير "رانك") فهى فكرة وقع فيها قبل "رانك" بعض المتصوفة من الاتحاديين، وهى فكرة مرفوضة من جمهور علماء الدين الاسلامى حيث إنها تتعارض مع تنزيه ذات الله عن التمثيل والتشبيه.

ويؤخذ على رانك أنه قد ركز اهتمامه على حركة الفرد لصالح نمو الفرد ذاته فى مراحله (مستوياته) المختلفة، وجعل المجتمع فى خلفية الصورة، ولم يتحدث عن حركة الفرد لصالح المجتمع؟، وهو بهذا يقف فى خندق واحد مع الوجوديين والإنسانيين فى تقديسهم المطلق للفرد. وتتضح هذه النقطة حين نجد أن "رانك" قد أعطى القدرة المطلقة لارادة الانسان وخلع عنها التأثر بالعوامل البيولوجية والاجتماعية، بل وخلع عنها التأثر بالقضاء والقدر، وكأن الانسان هو فى ذاته إله مطلق القدرة (فى نظره). وحين يتحدث "رانك" عن الإله والتوحد به فإنه يقول بأنه



إله متشخص (Personified God) أى أنه فى نظره إله يصنعه الشخص فى مخيلته وليس إلها مطلقا.

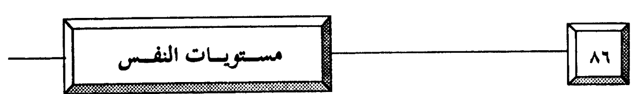
وحين يتصور "رانك" أن الانسان طيلة حياته يعيش فى مجموعة تغيرات دائمة بين التوحد والانفصال، فإن هذا التصور له رصيد من الواقع لا ينكره أحد فلاشك أن الحياه مليئة بالمتغيرات. ولكن فى المفهوم الاسلامى لابد أن تتوازن هذه المتغيرات بثوابت فى حياة الانسان، وكلاهما - الثوابت والمتغيرات - ضروريان لنمو الانسان وحركته فى الاتجاه الصحيح. وبالطبع فإن المجال هنا لا يتسع لشرح هذه القضية ولكننا نكتفى ببيان ضرورة وجود علاقة قوية وثابتة بين الانسان وبين الله تستمر من لحظة مولده الى أن يلقى ربه، وهذه العلاقة تكون دعامة ثابتة تحمى الانسان من الهزات وخبرات الألم العنيفة التى يتعرض لها أثناء حياته المليئة باللقاء والفراق. ويتضح تأثير هذه العلاقة فى قول أحد الصالحين حين أحاطت به الدسائس والمؤمرات: "وما عساهم ينقمون منى: إن سجنى خلوه ونفيى سياحة وقتلى شهادة فى سبيل الله"، فإلى هذا الحد يكون الأنس بالله عامل تثبيت للنفس فى رحلتها نحو الخلود. ولذلك نجد أنه من السنة حين يولد المولود أن يؤذن ذووه فى أذنه اليمنى ويقيمون الصلاه فى أذنه اليسرى، وكأنها إشارة الى ضرورة الصلة المستمرة بالله عبر الصلاة (الأذان والاقامة).

إذن فأوتو رانك حاول أن يتتبع مسيرة الانسان الطولية عبر مراحله المختلفة وكان متأثرا فى ذلك بخبرة الميلاد الأولى وما يصاحبها من ألم (صدمة الميلاد) وما يتبعها من نمو الى أن وصل الى المستوى الروحى، وهنا تاهت كلماته وضلت خطواته (رغم عبقريته). وهذا الموقف يشابه موقف "فيكتور فرانكل" فيى نظريته "العلاج بإحياء المعنى" والتى وصل فيها الى ضرورة أن يكون لحياة الانسان ومعاناته وموته معنى، ولكنه (كما هو الحال مع أوتورانك) لم يستطع التقدم أبعد من هذا.

ومن هنا يتأكد ضرورة المفهوم الدينى الصحيح فى مجال علم النفس ليضىء الطريق للباحث فيى محاولته لفهم الانسان ونموه وتطوره وخاصة فى مراحله العليا (المرحلة الروحية أو مراحل ما بعد الموت)، تلك المراحل التى لا يملك الانسان رؤيتها أو قياسها أو ملاحظتها بوسائله العلمية المباشرة.

المستويات عند "الكسيس كاريل" :

يعتبر الكسيس كاريل من علماء الطب البارزين وقد حصل على جائزة نوبل فى الطب. وفى نهاية مشواره العلمى الطويل وضع كتابه الشهير "الانسان ذلك



المجهول" يشرح فيه وجهة نظره فى مسار التفكير العلمى وفى مسار الحضارة الحديثة ككل، وأعطى النواحى النفسية والعقلية اهتماما خاصا، وكانت تسيطر على آرائه فكرة تقسيم النشاط الانسانى الى مستويات كما يتضح من استعراض الفقرات التالية:

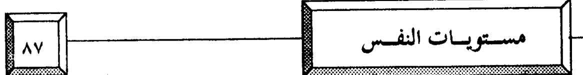
«إن العلوم التى تهتم بالبشر قصرت اهتمامها حتى الآن على نشاطها فى نواح معينة من موضوعاتها، ولهذا فإنها لم تفلح فى التخلص من جمودها، وبخاصة لطغيان المادة عليها وتحكمها فيها، ففى الفسيولوجيا والصحة والطب كما فى دراسة التعليم والاقتصاد السياسى والاجتماعى انهمك العلماء انهماكا شديدا فى النواحى العضوية والأخلاط والجانب العقلى للانسان، ولكنهم لم يعطوا أى قدر كبير من الاهتمام لتكوينه العقلى المؤثر، وحياته الداخلية، وأخلاقه، ومطالبه الدينية، والعلاقات الوثيقة العامة بين وجوه النشاط العضوى والفسيولوجي، والعلاقات الوثيقة بين الفرد وبيئته العقلية والروحية»[٤].

«والجسم يبدى وجوه نشاط أخرى، مع ما يبديه من النشاط الفسيولوجي، وذلك فى آن واحد. ويطلق على هذه الوجوه اسم النشاط العقلي. وتعبر الأعضاء عن نفسها بالعمل الآلى والحرارة والظاهرة الكهربائية والمبادلات الكيميائية القابلة للقياس بواسطة فنون الطبيعة والكيمياء. أما العقل والشعور فيكشف عن وجودها بواسطة إجراءات أخرى، مثل تلك التى تستخدم فى فحص النفس ودراسة السلوك الإنساني. وإدراك الشعور مرادف للتحليل الذى نجريه لأنفسنا، ولما يقوم به أترابنا من البشر من التعبير عن ذاتهم. ولاشك فى أن مما يساعدنا على تفهم حقيقة الموضوع أن نقسم النشاط العقلى الى نشاط عقلى وأخلاقى وذوقى ودينيى»[٥٣].

ويبدو هنا أن كاريل يعتقد أن النشاط العقلى هو من نتاج نشاط الجسم، ولكنه مع هذا يعترف بأن هذا النشاط له طبيعة مختلفة تحتاج الى وسائل مختلفة لقياسها منها الاستبطان.

ثم يعلن "كاريل" أن تفهم الموضوع يحتاج الى تقسيم النشاط العقلى الى عدة أقسام هي:

١-النشاط العقلي.
٢-النشاط الاخلاقي.
٣-النشاط الذوقي.
٤-النشاط الدينيي.



ويوضح "كاريل" وجهة نظره فى طرق الدراسة والبحث العلمى بقوله:

«إن كل نظام آراء يمكن أن يستخدم بطريقة مشروعة فى مملكة العلم التى يتبع لها فقط، فالآراء الخاصة بالطبيعة والكيمياء وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس يمكن تطبيقها على المستويات التى تتصل بها فى تركيب الجسم. ولكن يجب ألا تخلط الآراء التى تلائم أحد المستويات بتلك التى تقتصر على مستوى آخر دون تمييز. مثال ذلك أن القانون الثانى للديناميكا الحرارية وقانون تشتيت النشاط الحر لا معدى منهما فى المستوى الجزيئى، ولكنها عديمة الجدوى فى مستوى علم النفس حيث تطبق مبادئ أقل الجهد وأعلى حد من المتعة.. ولن تكون محاولة إيضاح إحدى الظواهر النفسية بعبارات قاصرة على فسيولوجية الخلية أو الميكانيكا، إلا تلاعبا بالألفاظ. ومع ذلك فإن علماء الفسيولوجيا بالقرن التاسع عشر وتلاميذهم الذين لا يزالون يتسكعون حولنا ارتكبوا مثل هذا الخطأ حينما حاولوا أن يختزلوا الانسان اختزالا تاما الى كيمياء مادية»[٥].

المستويات عند التطوريين :

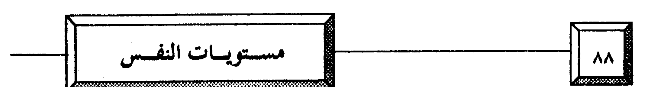
من الصعب الحديث عن النفس وعن الصحة النفسية بدون وضع البعد الأفقى (النظرة المستعرضة لحالة الشخص) والبعد الطولى (التاريخ والمستويات) والبعد الحركى فى الحسبان، لأن الانسان متحرك ومتغير من وقت لآخر. لذلك نجد أن النظرة التشخيصية الأحادية لا تعطى إلا فكرة مسطحة عن الحالة النفسية للانسان.

وقد ظهرت فى الآونة الأخيرة محاولات غير قليلة للنظرة المتعددة المستويات للصحة النفسية وللمرض النفسى، نذكر منها على سبيل المثال ما وضعه الدكتور يحيى الرخاوى من تصور لمستويات الصحة النفسية من منظور تطورى. يقول الدكتور الرخاوى[٦]:

«إن للصحة النفسية مستويات متتالية تقابل الوسائل الغالبة للحصول على التوازن، وأنه يمكن تمييز ثلاثة مستويات محددة دون إغفال المستويات المتوسطة بينها، وإنما نشرح كل مستوى بصفاته الكاملة نظريا حتى تتحدد الصورة بوضوح أولا، أما التوفيقات البينية فيمكن استنتاجها بسهولة :

أولا ـ المستوى الدفاعى :

وفيه يمارس الانسان مظهر الحياه دون جوهرها، ويستمر يدافع عن نفسه وبقائه وقيمه الاجتماعية الثابتة أكثر مما يسعى الى معرفة طبيعتها وإطلاق قدراته



لتغييرها. وهذا المستوى يتصف به (ربا للأسف) أغلب الناس وخاصة في المجتمعات البدائية والتقليدية والمتخلفة، ويتم التوازن بالدفاع والهجوم معا، وتقاس الصحة النفسية بمدى نجاح العمى النفسي الذى يتمتع به الفرد.

ثانيا - المستوى المعرفى :

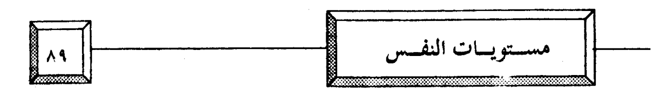
وهنا يعرف الانسان أكثر، فيدرك كثيرا من دوافعه وغرائزه كما يدرك القيم الاجتماعية من حوله ويتقبل هذا وذاك فيحصل بذلك على التوازن، وبهذه الرؤية الواضحة قد لا يحتاج الى كثير من الحيل الدفاعية إذا اعتبرنا أن المعرفة فى بعض صورها دفاع ضد البصيرة الأعمق، وهو يصل إلى درجة من الراحة والتلاؤم لا تثير قدراته الخالقة للعمل الجديد والتغيير فيكون هدفه أساسا فى هذه المرحلة هو الراحة واللذة والهدوء، وربما القراءة أو المناقشة العقلية. ويصل الفرد الى هذا المستوى من التوازن بالمعرفة وربما بالاستبصار الذاتى عن طريق معلم أو كتاب أو صديق أو محلل أو طبيب. وكما سبق أن ذكرنا أن التوازن عند هذا المستوى لا يخلو من وسائل دفاعية أو ممارسة بعض النشاطات الخلاقة (ولكنه ليس نشاطا بالضرورة للتغيير، رغم أصالته).

ثالثا - المستوى الخالقى (الانساني) :

وقد وضعت الإنسان بين قوسين حتى لا أنفى صيغة الانسان عن المستويات السابقة، لأن هذا المستوى وإن وصف الانسان كما ينبغى أن يكون، إلا أنه لا ينطبق إلا على ندرة من الناس فى المرحلة الحالية لتطور الانسان، ونظرا لأن الطبيب النفسى يعالج كل البشر فعليه أن يحترم مراحل تطور كل البشر. على أن هذا المستوى هو غاية تطور الانسان "كنوع" والانسان "كفرد" لأنه إذا امتد معنى التكيف الى اهتمام الانسان بوجوده زمانيا كمرحلة من النوع البشرى تصل الماضى بالمستقبل، ومكانيا كفرد من البشر فى كل مكان، وأصبحت راحته وصحته لا تتحقق إلا بأن يساهم طوليا فى التطور وعرضيا فى مشاركة الناس آلامهم ومحاولة حلها بالتغيير والعمل الخلاق، ولم يخل كل ذلك بحياته اليومية، ولم ينتقص من قدرته على كسب عيشه مثلا. أو تكوين أسرة ورعايتها، فإنه يكون قد حقق إنسانيته وتوازنه على أرقى مستوى معروف للصحة النفسية والحياه" (انتهى كلام الدكتور/ الرخاوي).

المستويات التشخيصية :

من المعتاد فى الطب بشكل عام أن يكون تشخيص المرض عبارة عن كلمة أو اثنتين أو أكثر قليلا، أى أنه تشخيص أحادى المستوى. ولقد جرى التشخيص فى

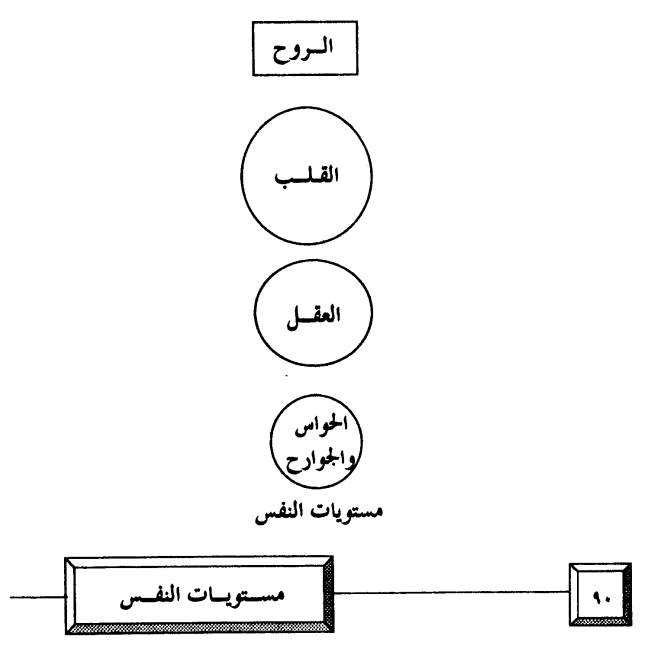


الطب النفسى على نفس المنوال، ولكن مع الممارسة العملية اتضح أن التشخيص الأحادى المستوى للمرض النفسى يعطى مجرد فكرة أفقية سطحية عن المرض (وعن الانسان)، ومن هنا نادى الكثيرون من علماء النفس والأطباء النفسيين بالتشخيص المتعدد المستويات.

ولهذا فإن الجمعية الأمريكية للطب النفسى قد قامت بتصنيف الاضطرابات النفسية على شكل مستويات خمسة ثم صنفت كل من المستوى الرابع والخامس الى مستويات متعددة محاولة منها للإحاطة بأكبر عدد من جوانب الوجود البشرى، وسارت على هذا النهج التصنيفات العالمية الأخرى.

المستويات التصاعدية الحركية للنفس (من منظور ديني) :

كما قلنا من قبل فإن كلمة "النفس" تطلق على الذات بجملتها (الحواس والجوارح والعقل والقلب والروح)، وتطلق أحيانا على الروح وحدها؟، ولكن آطلاقها على الذات الانسانية بجملتها هو الأغلب. والنفس فى علم النفس الحديث تعنى مجموع الوظائف النفسية المختلفة مثل الإدراك والانتباه والتفكير والذاكرة والوعى والارادة والعاطفة والسلوك.



مستويات النفس

والنفس بهذا المفهوم (أو ذاك) كلمة شاملة، ولها عدة مستويات، ونشاطها يختلف من شخص لآخر حسب المستوى النفسى الغالب. وفيما يلى نذكر خواص كل مستوى من هذه المستويات بناءا على المصطلحات الواردة فى القرآن الكريم ومدلولاتها اللغوية والعلمية (كما سيتضح تفصيلا فى الفصول القادمة)، واستنادا لما قاله علماء المسلمين من السلف والمحدثين. وهذه المستويات نذكرها بترتيب تصاعدى بدءا بالأدنى وانتهاءا بالأسمى :

(١) المستوى الجسدى للنفس (مستوى الحواس والجوارح) :

الحواس والجوارح هى الوسائل المادية التى تستخدمها النفس للتواصل مع العالم المادى، ولها الخواص التالية :

١- أعضاء جسمية محسوسة.

٢- محدودة الوجود زمانا ومكانا.

٣- محدودة الادراك.

٤- لكل حاسة أو جارحة وظيفة نوعية منفصلة ومحددة.

٥- المقصود بالحواس : كل أجهزة الاستقبال (الحس) مثل السمع والبصر واللمس والشم والتذوق بكل اتصالاتها العصبية وصولا الى القشرة الدماغية (cerebral cortex).

٦- المقصود بالجوارح : كل أجهزة الارسال (الحركة) التى تقوم بتنفيذ الأوامر السلوكية الصادرة من وحدة العمليات المركزية بالنفس. وهذه الجوارح هى اليدين والرجلين واللسان وكل الأعضاء ذات القدرة على الحركة والتأثير.

(٢) مستوى العقل :

لقد ثبت من الدراسات الفسيولوجية العصبية أن الحواس وأعصاب الحس حتى القشرة الدامغية تقوم فقط بعملية نقل وتكثيف الاشارات العصبية، ولم يثبت حتى الآن بدليل علمى موثوق به أن العمليات النفسية المعقدة (كالتفكير والذاكرة والادراك والتخيل والوعى والارادة) تتم فى المخ (الدماغ)، وأن ما نستطيع أن نقوله فى هذه المرحلة هو أن تلك العمليات النفسية المعقدة تتم فى كيان آخر غير محسوس له علاقة ارتباط (غير معروفة على وجه التحديد فى هذه المرحلة) بالبدن. وهذا الكيان غير المحسوس له ثلاثة مستويات تصاعدية حركية (ديناميكية) هى : العقل والقلب والروح.

أما خصائص العقل فيمكن أن نوجزها فيما يلى :

١- كيان غير محسوس (ربما فى شكل من أشكال الطاقة الحرة).

٢- يختص بالنواحى الفكرية التجريدية مثل : استقبال المعلومات الواردة عن طريق القشر الدماغي، الادراك العقلي، الفهم، التفكير، التخيل، الذاكرة.

٣- استعراض المعلومات وتصنيفها وتنظيمها واستنتاج أحكام عقلية مجردة (أى ليست لها ارتباط بالنواحى العاطفية والإيمانية).

٤- توجد دلائل كثيرة (لا مجال لطرحها هنا) على وجود علاقة قرب مكانية بين العقل وبين الدماغ.

وربما يسأل سائل : وكيف تنتقل الاشارات العصبية من القشرة الدماغية cerebral cortex للعقل Mind ؟

والاجابة غير معروفة على وجه التحديد حتى الآن، ولكن يفترض أن خلايا القشرة الدماغية تقوم بتكثيف النشاط الكهربى الصادر عن الاشارات العصبية ثم ترميزه وإصداره بشكل موجى الى مستقبلات خاصة موجودة فى الكيانات غير المحسوسة (العقل، القلب، الروح).

(٣) مستوى القلب :

تنتقل المعلومات المعالجة بواسطة العقل الى المستوى الأعلى وهو القلب، والذى يتميز بما يلى :

١- كيان غير محسوس.

٢- يختص بالنواحى العاطفية والفكرية والروحية معا.

٣- يعتبر بمثابة وحدة العمليات المركزية فى النفس حيث تصل إليه المعلومات القادمة من الحواس مرورا بالعقل ثم القلب حيث يتم معالجتها ثم يقوم القلب أيضا بإصدار الأوامر السلوكية لتنفذ بواسطة الجوارح.

٤- جماع الوظائف النفسية كلها وخاصة الادراك العميق والوعى والارادة.

٥- لديه القدرة على الادراك الشامل للماضى والحاضر والمستقبل، والقدرة على الادراك الكونى الأشمل والأعمق (بالمقارنة بالادراك العقلي).

٦- يستقبل المعلومات والاستنتاجات الواردة إليه من العقل ثم يدخلها فى عملية الادراك والوعى الشامل، ويستند فى ذلك الى الوجدان العميق والبصيرة النافذة والالهامات الخفية القادمة إليه من عالم الروح.

٧- يمثل حلقة الوصل بين عالم المادة وعالم الروح.. وله القدرة على الادراك المادى القادم إليه عن طريق الحواس مرورا بالعقل، وأيضا له القدرة فى ظروف خاصة على استقبال الرسائل القادمة إليه من عالم الروح فى صورة رؤى صادقة وإلهامات (للمؤمنين الصادقين) أو فى صورة وحى (للأنبياء والرسل).

٨- توجد دلائل كثيرة (لا مجال لطرحها هنا) على وجود علاقة قرب مكانية بين القلب العضوى المعروف والقلب المعنوى غير المحسوس الذى نتحدث عنه.

(٤) مستوى الروح :

وعلى عكس المستويات السابقة فإننا لن ندخل فى ذكر تفاصيل كثيرة عن الروح حيث إنها عالم غيبى مجهول لنا (استأثر الله بعلمه)، ولكننا سنكتفى بذكر بعض الخواص البسيطة التى يمكن استنتاجها من الآيات القرآنية والأحاديث التى ذكرت فيها الروح، وكذلك من أقوال العلماء :

١- كيان غير محسوس.

٢- لها صفة الخلود فهى لا تنتهى بموت الجسد(*) .

٣- لها اتصال لا نعرف طبيعته بعالم الملكوت، ولها اتصال فى ذات الوقت بمستويات النفس المختلفة، وإن كان اتصالها بالقلب هو الأقوى والأقرب والأعمق.

٤- هى بمثابة الطاقة التى تعمل بها كافة مستويات النفس، ولكن يغلب عليها التواجد فى المستويات الأعلى للنفس حيث يزيد صفاءها وشفافيتها وقدرتها على التواصل مع عالم الملكوت.

٥- والروح تسمى نفسا إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها.

مستويات البشر :

وفى كل إنسان يطغى أى من هذه المستويات على المستويات الأخرى (وفى قلة من الناس تتكامل هذه المستويات)، فمنهم من يغلب عليه نشاط المستوى الجسدى للنفس فيصبح وجوده متقلصا ومحصورا فى ضرورات الحياة المادية اللازمة للإبقاء على حياة الجسد والحصول على اللذة الحسية وتجنب الألم من أقرب طريق. وهذا المستوى نجده فى المجتمعات البدائية بكثرة.

ومن الناس من يغلب عليه نشاط المستوى العقلى فيجعل همه تحصيل

(*) أين الدليل الشرعى ؟ (دكتور / صالح اللحيدان).

المعلومات والبحث فى القوانين المادية للحياه، ويعلى من قيمة العلم التجريبى المجرد من معانى الخير والشر والبعيد عن المعانى الوجدانية والايمانية والغيبية. وهذا المستوى نجده بكثرة فى مجتمعات الحضارة المادية الحديثة.

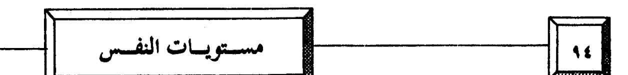
أما المستوى القلبى فيرقى إليه بعض البشر حين يضيف الى وجوده العقلى أبعادا وجدانية وإيمانية شمولية، حيث يبحث فى أصل وجوده وموقعه من هذا الكون، والهدف من خلقه، وينمى إدراكه ووعيه وإرادته، ويعى أهدافه وغاياته ومصيره الأبدى.

ومن الناس من يرتقى الى المستوى الروحى الأعلى والأعمق والأشمل حيث يشع على كل المستويات السابقة نور البصيرة ويتواصل الانسان عن طريق الروح مع العوالم الخالدة واللا محدودة.

وفى الحقيقة فإن كل هذه المستويات كامنة فى الانسان وقابله للعمل بتوجيه إرادى ومجاهدة منه، وأن توجيه كل مستوى يأتى من المستوى الأعلى منه مباشرة، فالحواس والجوارح يوجهها العقل، والعقل يوجهه القلب والقلب توجهه الروح، والروح تتلقى الارشاد والهداية من الله سبحانه وتعالى بطرق مختلفة مثل الالهام والرؤى الصادقة أو الوحى الذى يتنزل على صفوة مختارة من البشر هم الأنبياء والرسل.

والوظائف النفسية المختلفة (النفس) يمكن أن تعمل على أى مستوى من هذه المستويات المتصاعدة الحركية، وهى تزداد رقيا كلما تصاعد مستوى وجودها وعملها، فمثلا إذا توقفت عند الحواس والجوارح (المستوى الجسدى) فقط، أصبحت المدركات عبارة عن جزئيات منفصلة غير ذات المعنى، فإذا انتقلت الى مستوى العقل أصبحت مترابطة ومفهومة ومنطقية، فإذا انتقلت الى القلب ارتبطت بالوعى والارادة والعواطف والادراك الشامل، فإذا انتقلت الى الروح ارتبطت بالخلود والالهام والطمأنينة والعالم اللانهائى.

ويخطئ من يعتقد أن العقل والقلب والروح كيانات منفصلة، وإنما هى مستويات لنشاط النفس الواحدة، وكل مستوى يؤدى الى الآخر، وخصائص كل مستوى حين تبلغ قمتها تتداخل مع خصائص المستوى الذى يليه، فالعقل حين يبلغ أقصى درجات كماله يبدأ فى اكتساب بعض الصفات القلبية، والقلب حين يبلغ أقصى درجات كماله يبدأ فى اكتساب بعض الصفات الروحية... وهكذا. ومن هنا يحدث مزج فى بعض الأحيان - وخاصة بين معانى العقل والقلب - لدرجة أن أحدهما



ربما يستخدم بديلا عن الآخر فى التعبير اللغوى، وهذا يرجع لسببين :

١- السبب الأول : أن القلب يحتاج للعقل كمرحة أساسية من مراحل الادراك لكى يعمل بشكل جيد، والعقل يحتاج لتوجيه القلب نحو المدركات وبيان درجة أهميتها. أى أن وظيفة كل منهما مرتبطة بالآخر.

٢- السبب الثانى : هو ما ذكرناه آنفا من عدم وجود حدود فاصلة بين هذا المستوى وذاك، بمعنى أن هناك منطقة مشتركة تتداخل فيها وظيفتى العقل والقلب بدرجة أو بأخرى.

لذلك إذا نظرنا الى النفس (أو الوظائف النفسية) نجد أن نشاطها يتمركز فى أحد المستويات المذكورة أو يتحرك عبر مستوى واحد أو أكثر، ولا يعنى هذا غياب نشاط النفس بالكامل عن بقية المستويات، ولكن نشاطها فى تلك المستويات الأخرى يكون هامشيا وضعيفا.

مفهوم التكامل النفسى :

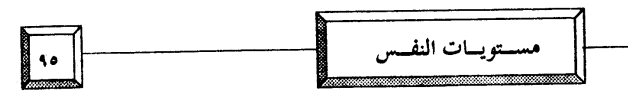
وإن التكامل النفسى - من هذا المنظور - يحدث حين تصبح الوظائف النفسية طليقة الحركة من مستوى الى آخر بحيث يمكنها أن تنطلق تصاعديا وبكفاءة عالية ومرونة من المستوى الجسدى الى مستوى القلب دون عوائق، وأن يكون القلب على درجة من القوة والشفافية تسمح له بأن يكون هو مركز العمليات النفسية من ناحية وأن يتلقى نور البصيرة (من عالم الروح) من ناحية أخرى.

مفهوم المرض النفسى :

والمرض النفسى يمكن تفسيره بأنه إعاقة لحركة الوظائف النفسية (الانطلاقة المرنة والسلسة للنفس) عبر هذه المستويات التصاعدية، وأن شدة المرض تزداد كلما كانت الإعاقة قرب المستويات الأدنى، أو تكون مستتبة لمدة طويلة عند هذه المستويات الأدنى. ولنأخذ بعض الأمراض النفسية الشائعة ونطبق عليها هذا الفرض:

(١) الفصام :

وإذا ضربنا لذلك مثلا بمرض الفصام - وهو أخطر الأمراض النفسية - نجد أنه فى أقصى حالات تدهور المريض تتعطل معظم هذه المستويات السالفة الذكر، وتصبح نشاطات المريض ومعالم وجوده محصورة فى المستوى الجسدى (النباتى)، وأحيانا عند المستوى العقلى (العقل) أو فى المسافة الواقعة بين المستوى الجسدى والعقلي. فإذا توقف النشاط عند المستوى الجسدى (أقصى حالات النكوص الفصامي) فإن وجود المريض ينحصر فى السمع والبصر. والأكل والشرب والتبول



والتبرز، وهذا ما يسمى بالمستوى النباتي، ونجده في حالات الفصام المزمن المتدهور. أما إذا أدى التدهور الى نكوص الوظائف النفسية الى المسافة بـين المسـتوى الجسـدى للنفس والمستوى العقلى فإن الأفكار تبدو مجزأة وغير مترابطة وغير مفهومة. فى حـين إذا حدث التدهور أو الإعاقة عند المستوى العقلى (العقل) فإن المريض يبدى انشـغاله بقضايا عقلية وشبه فلسفية مجردة مـن العواطـف المصاحبـة لهـا، ومجـردة مـن الادراك الشامل والوعى العميق، ويفقد المريض إرادة التوجيه والفعل (التى هـى مـن صفـات المستوى القلبي).

وفى بعض حالات الفصام (وخاصة المتدهورة) نجد أن المريض يفقـد القـدرة على التفكير التجريدي، أى يفقد القدرة على خلع الصفات عن الأشياء التى تتصـف بها. وهذه القدرة على التفكير التجريدى هى من وظائف العقل، وهـى تعنـى تكويـن مفهوم ذهنى للمفردات الجزئية التى نراهـا بـالحواس. ونحـن نختبر هـذه القـدرة عنـد المريض بإعطائه أحد الأمثال العامية ليشـرحها ويسـتخلص منهـا مفهومـا ذهنيـا عامـا مجردا عن المفردات اللغوية للمثل العامي. وفى هذه الحالات المرضية نجد أن الفصامى يفقد هذه القـدرة التجريديـة بدرجـة أو بـأخرى ويميـل الى التوقـف عنـد مـا تدركـه الحواس من أشياء عيانية مرئية أو مسموعة أو ملموسة، وبهـذا يـرى الفصـامى العـالم المحيط به فى صورة جزئيات عيانية، ولهذا نقول بـأن تفكـير الفصـامى تفكـير عيـانى. وهذا دليل على فشل الادراك العقلى السليم عند الفصامى المتدهور (فضلا عن فشل الادراك القلبى الأعمـق) وذلـك نظـرا لتوقـف ذلـك الادراك عنـد مسـتوى الحـواس (المستوى الجسدى).

(٢) الاضطرابات الوجدانية :

وفى الاضطرابـات الوجدانيـة يفـترض أن تكـون الإعاقـة قـد حدثـت عنـد مستوى القلب فأصبح هذا المستوى يعمل بصورة تكراريـة تراكميـة فتسـود مشـاعر الحزن الزائد أو مشـاعر الفـرح الزائـد (يعمـل القلـب فـى هـذه الحالـة كالاسـطوانة المشروخة التى تعيد نفس النغمة باستمرار ولا تنتقـل الى مـا بعدهـا بسـهولة). وهـذا النشاط التكرارى يفسر لنا كيف أن حركة ونشاط مريض الهوس لا يكونان منتجـان رغم فرط الحركة وفرط النشاط (وفرط الكـلام)، والسـبب فـى ذلـك هـو أن ذلـك النشاط القلبى المرضى ليس نشاطا تصاعديا حركيا، وإنما هو نشاط حركى يدور فـى دائرة أفقية مغلقة أو شبه مغلقة.

(٣) العصاب :

أما العصاب فهو إعاقة جزئية أو صعوبة انتقال الوظائف النفسية من مستوى لآخر مما يجعل أداء الشخص العصابى تنقصه المرونة والتلقائية والبساطة فى الأداء.

وإذا أخذنا عصاب توهم المرض أو الاضطرابات النفسجسمية كمثالين نجد أن هناك إعاقة واضحة (فى المرضين) للنشاط النفسى تجعله متمركزا عند المستوى الجسدى (الحواس والجوارح) مع قدر قليل من النشاط النفسى فى المستويات الأخرى. ولذلك يبدو المريض منشغلا طول الوقت بقلبه ومعدته ومفاصله ورأسه.. فهو يستقبل الإشارات الصادرة عن هذه الأعضاء الجسدية وينصت لها ويعيرها كل انتباهه واهتمامه. ولهذا يصعب جذب المريض لأى اهتمامات أخرى بعيدة عن هذا المجال الجسمانى الضيق. ويظل المريض يدور فى حلقه مفرغة من توهم المرض والبحث عن العلاج دون جدوى.

وفى حالات الهستيريا التحولية يغلب على المريض الاهتمام بالمستوى الجسدى والاحتماء فيه من خلال ظهور الأعراض الجسدية الهستيرية (التحولية) كالشلل أو العمى أو فقد النطق هربا من مواجهة الضغوط النفسية على المستويات الأعلى.

(٤) اضطرابات الشخصية :

وفى اضطرابات الشخصية يكون التشوه شاملا لمعظم المستويات، وإن كان يغلب على الوظائف النفسية (المشوهة) تواجدها فى المستوى الجسدى ومستوى العقل معا بحيث أن الحواس (المستوى الجسدى) تسخر العقل للعمل والتفكير فى الوسائل التى تحقق لتلك الحواس رغباتها ولذائذها السريعة وبطرق مباشرة بصرف النظر عن البعد الاجتماعى والدينى (الذى هو من خواص المستوى القلبى الغائب فى هذه الحالات).

وفى اضطرابات الشخصية تنعكس مراكز السيطرة عن وضعها الطبيعى فنجد أن المستوى الجسدى هو الذى يستخدم العقل لتحقيق رغباته وملذاته فنجد على سبيل المثال الشخصيات المعادية للمجتمع تستخدم عقلها (وبذكاء شديد أحيانا) لتحقيق رغبة أو لذة غير مشروعة.

(٥) الإدمان :

وفى الإدمان تضعف مراكز السيطرة من المستويات العليا، لذلك نجد أن

المريض يتأرجح بين المستويات الأدنى ويتلاعب بنشاطها. فمثلا يلجأ أحيانا الى بعض المواد التى تلغى الألم على المستوى الجسدى نظرا لعدم قدرته على احتمال أى قدر من الألم أو الصبر عليه. وأحيانا أخرى يلجأ المريض الى تغييب أو إضعاف مستوى العقل ويستمتع بما يستتبع ذلك من انطلاق وتحرر لغرائز الجسد. وفى بعض الحالات يلجأ المدمن الى استعمال أدوية منشطة ومنبهة للعقل بحثا عن نشاط أكثر. وفى حالات أخرى يتعاطى المدمن بعض المواد بحثا عن مشاعر نشوة وسعادة بديلا للمشاعر الحقيقية التى يفتقدها. وهكذا يظل المدمن يتلاعب بمستوياته النفسية (ووعيه) بحثا عن أمان أو اطمئنان أو سعادة أو متعة جسدية أو تخلصا من ألم، أو بحثا عن شيء لا يعلمه.

الاختلافات الفردية ومستويات الصحة النفسية :

ومن خلال هذا المنظور نستطيع أن نفهم مستويات وجود البشر، واختلاف تلك المستويات، ونستطيع أن نحدد ماهية الصحة النفسية ومستوياتها.

فالصحة النفسية ـ من هذا المفهوم ـ تعنى سهولة حركة الوظائف النفسية عبر المستويات سالفة الذكر (المستوى الجسدى والعقل والقلب والروح)، وسهولة أدائها على كل مستوى بكفاءة عالية وبما يناسب الموقف.

وهذا الافتراض يحل مشكلة أزلية وهى : هل الروح هى النفس أم أن كل منهما شيء منفصل ؟

فكما قلنا. إن النفس تطلق على الذات بكامل مستوياتها بما فيها المستوى الروحى، وأن النفس (بمعنى الوظائف النفسية) تصعد وتهبط (بسهولة أو بصعوبة حسب طبيعة صاحبها) من مستوى الجسد الى مستوى الروح، فهى تلتقى بالروح حين تسمو، فى حين يصبح الرباط بينهما خافتا وهامشيا حين تهبط النفس. والروح هى مصدر الطاقة لكل المستويات، ولذلك فهى تسمى نفسا حين اتصالها بالجسد (أو قربها منه)، وتسمى روحا حين تحررها من قيوده.

أما اضطراب الايمان فانه يقع على مستوى القلب، وفى هذا المعنى يقول الدكتور / محمد على الجوزو (١٩٨٣) : "وهذا معناه أن النفاق والكفر من أمراض القلب، وأن هذه الأمراض التى تمس عقيدة الانسان وإيمانه ويقينه هى أمراض متساوية فى الدرجة، وأن القلب مركزها ومحلها جميعها.

ويقول الدكتور / الوفى أرجيبى إن الكفر هو أشد مرض يصيب النفس. وهذا قول حق لان الكفر اضطراب شديد يصيب وحدة العمليات المركزية فى

النفس وهى القلب فينتج عنه تشوه كل الادراكات القادمة عن طريق الحواس مرورا بالعقل وينتج عنه أيضا حجب القلب عن تلقى الالهام والرؤى الصادقة(*).

ولو تأملنا الآية ٤٦ من سورة الحج لوجدنا أن هناك علاقة ارتباط وثيقة بين القلب والعقل والحواس بحيث أن القلب هو القائد والموجه وأن فساده أو تعطله يفسد ويعطل عمل العقل والحواس. يقول تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦).

وربما يسأل سائل : لماذا وضع هذا الافتراض ؟ والاجابة : أن النفس ذكرت فى القرآن ١٦٥ مرة، وذكر العقل ٤٩ مرة (فى اشتقاقات فعلية تعنى وظائف نفسية فكرية)، وذكر القلب ١٢٢ مرة وعزى إليه القرآن غالبية الصفات النفسية (عقلية ووجدانية وروحية)، وأيضا تحدث القرآن عن الحواس (خاصة السمع والبصر) والجوارح ودورها فى حياة الانسان، وتحدث عن الروح. وأفاضت الأحاديث وأقوال العلماء (خاصة الغزالى وابن القيم) فى الحديث عن النفس والروح والقلب والعقل.

وبجانب هذا نجد أن المريض النفسى يعزو الوظائف النفسية فى الصحة والمرض الى هذه الاشياء، فهو يعزو التفكير للعقل (ويشير الى رأسه)، ويعزو الايمان والعواطف للقلب (ويشير الى صدره).

إذن فاستخدام هذه المصطلحات (والمستويات) فى علم النفس سوف يزيل اغترابنا عن أنفسنا وعن مرضانا وعن ثقافتنا، ويجعل بناءنا العلمى يقوم على أساس متين تدعمه الخبرة الدينية ثم الخبرة الإكلينيكية (السريرية).

النمو التصاعدى للمستويات النفسية :

(١) مرحلة الجنين والطفولة المبكرة :

فى هذه المرحلة تتركز وظيفة النفس حول الاحتياجات الأولية للجسد، فالجنين أو الطفل يشعر بالألم ويبدى مظاهر عدم الارتياح (بكثرة الحركة أو البكاء) عندما يجوع أو يؤثر عليه مؤثر خارجى مؤلم.

(*) الكفر أصله التغطية، أى تغطية الحبوب فى الأرض ليخرج الزرع ومعناه عبادة غير اللهن راجع العبودية لابن تيمية (دكتور / صالح اللحيدان).

وفي مرحلة الطفولة المبكرة يكون الادراك غاية في الذاتية والبدائية، فالطفل لا يدرك من العالم إلا نفسه واحتياجاته الخاصة ثم يبدأ في إدراك أمه أو من يلبي حاجاته، ثم قليلا قليلا يبدأ في التمييز بين نفسه وبين العالم الخارجي، ولكن مع هذا يظل تفكيره ومشاعره وسلوكه متمركزا حول تلبية حاجاته الجسمية بشكل أساسي. وهذه المرحلة تستمر حتى نهاية السنة الثانية من العمر.

(٢) مرحلة الطفولة المتقدمة :

حين يبدأ الطفل يعقل ما حوله ويميز بين نفسه وبين العالم الخارجي المحيط به تبدأ مرحلتان هامتان:

أ-الاستطلاع: فنجد أن الطفل يحاول أن يتعرف على البيئة المحيطة به.

ب-محاولة إقامة علاقة بينه وبين البيئة التي تعرف عليها.

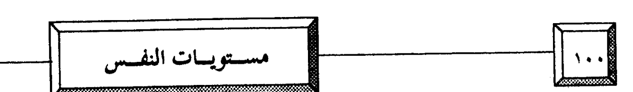
وفي تلك المرحلة يمتد نشاط النفس (الوظائف النفسية) من مستوى الحواس والجوارح ليشمل مستوى العقل الذى يستقبل المعلومات القادمة من الحواس ويحاول ربطها وترتيبها وإدراك ما وراءها، وهذا هو المستوى الثاني، وفيه يبدأ تمايز الانسان عن الحيوان. ولكن في هذه المرحلة يكون العقل غير ناضج وغير واع وغير مسئول، ولذلك فالمسئولية الجنائية لا تقع على الطفل إلا بعد بلوغه سن الرشد (حوالى ١٨ عاما) رغم أنه عاقل، ولكن يبدو أن هذا العقل المجرد وحده ليس أهلا للتكليف والمسئولية الكاملة.

(٣) مرحلة الرشد :

وفيها تنتقل النفس الى المستوى القلبي حيث يصل الادراك الى مستوى كاف لأن يتحمل الشخص أعباء التكليف ويكون مسئولا عن أفعاله. ومعنى المستوى القلبي أن الشخص يكون قد اكتسب الصفات العقلية الواعية والوجدانية التي تمكنه من معرفة الخطأ والصواب، ويكون قد استوعب قوانين الخير والشر من الأسرة والمدرسة والمسجد والمجتمع، وأصبح واعيا بالماضي والحاضر والمستقبل، ويستطيع أن يفهم فهما عميقا ويعرف بدايات الأمور وغاياتها وعواقبها.

وهذا المستوى يبدأ من سن الثامنة عشر ويبلغ قمة نضجه عند سن الأربعين.

ولا يصل الشخص الى هذا المستوى إلا بعد فترة صراع تفجره شهوة الجنس التي اشتعلت مع بداية البلوغ وأيضا يحدث الشك في ما تلقاه الصبي من قبل. إذن يحدث الصراع بين شهوة البالغ وشكه وبين قيم المجتمع وتقاليده ودينه. وإذا كانت هذه القيم والتقاليد والدين قائمة على أسس صحيحة ومتينة وكانت هناك وسائل توصيل



جيدة توصلهـا الى إدراك المراهق ووعيـه، وكـانت الأسـرة متماسـكة وفيهـا القـدوة الحسنة، فإن المراهق يمر بمرحلة الصراع فـي هـدوء نسـبي ويصـل الى مرحلـة الرشـد (المستوى القلبي) بسلام، فيحدث تناغم بين المعرفة العقلية في المرحلـة السـابقة وبـين الوجدان العميق الذى اكتسبه في المرحلة الحالية.

(٤) مرحلة النضج :

نطلق على هذه المرحلة اسم "المرحلة الروحية" وهى تبدأ في الغالب في سـن الأربعين، ولكنها ربما تحدث مبكرة في بعض الناس أو تتأخر في بعضهـم الآخـر وفـي هذه المرحلة يتسع إدراك الشخص ويصبح أكثر شمـولا، وتقـل حـدة المتناقضـات فـي وعيه ويصبح وجدانه أكثر عمقا، وتغلب عليه النزعـة الروحيـة والدينيـة. وإذا كـان الشخص مؤمنا فتغلب عليه إشراقات الـروح ويشـعر بتنـاغم نفسـي ورضـا يصاحبـه خشية الله، وينعم بالسكينة في جوار الله. أما إذا كان الشـخص غـير مؤمـن فتغلـب عليه النزعة الفلسفية.

(٥) مرحلة ما بعد الموت :

نحن لا ندرى كثيرا عن تفاصيل هذه المرحلة (حيث إنها مـن أمـور الغيـب)، ولكننا نؤمن بما وصـل عنهـا مـن أخبـار وردت فـي القـرآن الكريـم والسـنة النبويـة الصحيحة. وليس هنا مجال استعراض هذه الأخبـار بـالتفصيل، ولكـن موجزهـا يفيـد بأنه بعد فناء الجسد يبقى هنـاك شيئا يعى ويـدرك وينعـم أو يعـذب، وقـد اختلفـت الأقوال في هذا الشيء الذى يبقى : هل هو النفس ؟ أم هو الروح ؟ ... فالبعض قال إنها النفس وكانت له أدلته، والبعض الآخر قال إنها الروح وكانت له أدلته، وفريـق ثالث حاول حسم القضية فقال إن النفس والروح مترادفات وهما في الحقيقـة شـيء واحد.

وفي الفرض الذى افترضناه (عن مستويات النفس من منظور دينيى) في هذا الكتاب نقول بأن النفس (الوظائف النفسية) تنتقل مـع تطـور الانسـان مـن مسـتوى الحواس والجوارح (المستوى الجسدى) الى المستوى العقلى ثم إلى المستوى القلبـى ثـم الى المستوى الروحى. ليس هذا فقط بل إنها تتحرك في الانسـان النـاضج مـن وقـت لآخر (هبوطا وصعودا)، فربما هبطت الى أدنى مستوياتها الحسية فـي لحظـات سـقوط الانسان وانغماسه في الملـذات الماديـة، وربمـا ارتفعـت وسمت الى أعلـى مسـتوياتها الروحية فيى لحظات الايمان والإشراق الروحى. وطبقا لهذا الفرض يمكن القـول بأنـه مع الموت الجسدى يفقد الانسان حواسه ووسائل إدراكه العقلى والقلبى (عن طريـق

الحواس المعتاد)، فلا تجد النفس إلا المستوى الروحى فتبقى فيه، وتنتقل معها الى هـذا المستوى كل اللطائف ـ من غير مادة الجسد ـ وتستمر حيـاة الانسـان ولكـن بشـكل روحى مطلق (طاقة مطلقة)، ثم يهبط الانسـان الى أسـفل سـافلين أو يعلـو الى أعلى عليين بحسب ما كان عليه وقت اكتمال وجـوده المـادى والروحـى. وهـذه اللطـائف التى تتوحد مع الروح (لطائف العقل والقلب) مخزون فيهـا كـل مـا كسـب الانسـان حين كان قادرا على الحركة والتأثير.

ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف تكون النفس فى أحوال مختلفة كما وصفها القرآن :

١ فهى أحيانا متدنية فى الشهوات الحسية وسـاقطة فـى ملـذات العـالم المـادى فهـى "نفس أمارة بالسوء"، وتكون مقيمـة فـى أدنـى المسـتويات (المسـتوى الجسـدى للنفس).

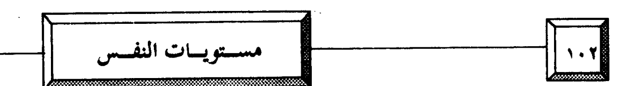
٢ وأحيانا تكون فى صراع بين رغباتها الحسية وبين مـا تحملـه مـن رغبـة فـى الخير والبعد عن الشر، فتسـمى "النفـس اللوامـة"، وهـذه النفـس اللوامـة تكـون فـى المنطقة الوسط بين المستوى الجسدى والمستوى القلبي.

٣ وأحيانـا تصعـد النفـس وتسـتقر فـى المسـتويات الروحيـة العليـا فتكـون "نفسـا مطمئنة" لأنها تخلصت (أو تخففت) من علائق العالم الحسى وضغوطـه وسمت الى حيث الرضا والهدوء والطمأنينة والأمن.

ونسـتطيع بعـد الاسـتعراض السـابق لآراء السـلف والمحدثـين أن نسـتخلص النظرة الشاملة للحياة النفسية والروحية للانسان. فلكل إنسان نفـس، وهـى صـورة الحياة، بحيث أن قبضها يعنـى موتـه، والنفس موجـودة فـى الانسـان والحيـوان على السواء، ولكن الذى يفرق الانسان (أيا كان) عن الحيـوان هـو وجـود نفخـة الـروح (التى تعلو بمستويات نفس الانسان)، وهى تعنى هذا الشيء المجهول لنا والذى يمكـن أن نتصوره كمستقبل للمؤثرات والرسائل العلوية الإلهية.

إذن فالانسان سواء كان مؤمنـا أو غـير مؤمـن قـد منـح نفسـا (هـى صـورة الحياه) ونفخ فيه روحا (مستقبلات المؤثرات العلوية الإلهية)، والانسان يملـك الارادة فى استخدام تلك المستقبلات بشكل جيـد أو تعطيلهـا، فـإن اسـتخدمها اسـتطاع أن يتصل بـالملكوت الأعلى بـالتفكر والتـأمل والاهتـداء بالرسـل والرسـالات، وعـرف الطريق ومشى فيه وظل يرتقى بروحه الى مستويات أعلي. والانسان يعـرج الى تلـك المستويات بثلاثة أشياء هى :

١ -العلم.



٢-التقوى.

٣-العمل الصالح.

ولذلك فقد وصفت النفس فى القرآن فى ثلاث مستويات :

١-النفس الأمارة بالسوء (لدى عامة الناس).

٢-ثم النفس اللوامة (لدى من آمنوا ولكن مازالت تغلب عليهم بعض شهواتهم).

٣-ثم النفس المطمئنة (المؤمنة الصادقة المرتقية دائما). وأن النفس المطمئنة هى أعلى المستويات لذلك يخاطبها الله فيقول: "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتي"، فهى التى ارتقت الى مستوى سمح لها فيه بالدخول فى عالم الملكوت الأعلي.

والنفس يمكن أن تكون فى مستويات مختلفة ولكنها تظل أقرب الى الحياة المشاهدة، أما الروح فإنها بطبيعتها منجذبة الى أعلى لذلك يغلب عليها التواجد فى المستويات الأعلى لأنها فى المستويات الأدنى تكون مطموسة وسط الكثير من الشهوات والرغبات الدنيوية حتى لا تكاد تبين.

والروح فى صعودها تتعدد مستوياتها، وقد عبر الإمام ابن القيم[٧] عن ذلك حين قال على لسان بعض الطوائف :

للكافر والمنافق روح واحدة..

وللمؤمن ثلاثة أرواح..

وللأنبياء والصديقين خمس أرواح.

وقال أيضا على لسان بعضهم :

"الأرواح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت الى الملكوت".

وقال :

"فللعلم روح وللإحسان روح وللإخلاص روح وللمحبة والإنابة روح وللتوكيل والصدق روح، والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت منهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيا بهيميا" (انتهى كلام ابن القيم).

ومن هذا نفهم أن الكافر والمنافق له روح واحدة هى التى خلق بها فلم ينميها بل بالعكس عطلها فبقيت كما هى أو ضعفت. أما المؤمن فإنه نماها وتصاعد بها فى مستويات قدرها بعض الناس بمستويات ثلاثة (أرواح ثلاثة). وأما الأنبياء

والصديقين فقد صعدوا بأرواحهم الى مستويات أكثر وأعلى (قمة أرواح). ونذكر فى هذا السياق قصة المعراج حيث توقف جبريل عند سدرة المنتهى وتجاوز محمد صلى الله عليه وسلم فى الصعود حتى وصل الى الملكوت الاعلى حيث الحضرة الإلهية وحيث رأى نور الله.

وهناك حديث يفسر لنا المستويات الروحية الثلاثة للمؤمنين وهو الحديث الذى رواه عمر رضى الله عنه من أن جبريل أتى فى صورة رجل الى الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله عن الاسلام ثم سأله عن الايمان ثم سأله عن الاحسان، وقال الرسول صلى الله عليه قوسلم فى نهاية الحديث: "هذا جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم". وفى الحديث تتضح المستويات الثلاثة للتدين.

والدرجات الروحية يقابلها درجات فى الجزاء فالله يقول "إن كتاب الأبرار لفى عليين" ويقول عن المنافقين "إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار" فالجنة درجات حسب الصعود الروحى والنار درجات حسب الهبوط الدنيوي.

والحياة أيضا كذلك، فكلما هبط الانسان بنفسه وطمس روحه كلما زادت معاناته حتى وإن اكتسب فى ظاهره صورة الترف والمتعة الحسية، وكلما صعد فى مراتب الروح زادت طمأنينته النفسية حتى وإن بدت حياته خشنة فقيرة من مباهج الحياه.

والمستويات التى تحدثنا عنها من المنظور الدينى ليست مقابلة لأى نوع من المستويات التى ذكرها علماء النفس المحدثون وإن بدا التشابه فى بعض الجزئيات، فالمجال هنا مختلف حيث تنظر المدارس النفسية الى مجال الحياه والوجود البشرى فيها فقط، أى المستوى الأفقى لوجوده وتكيفه وعمله ورضاه فيها. أما النظرة الدينية فمجالها يشمل الحياة الدنيا كمرحلة لها حجمها، وتتجاوز ذلك الى عالم الملكوت الأعلي.

والمقياس فى المدارس النفسية هو الإنتاج والإبداع، أما المقياس فى المفهوم الدينى فهو يشمل ذلك كجزئيات ولكن العامل الأهم فيه هو التقوى والعمل الصالح "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، "الذين آمنوا وعملوا الصالحات". إذن فالدوافع مختلفة والغايات متباينة (بين المدارس النفسية والمفهوم الديني).

وإن المعالج النفسى حين يضع فى اعتباره هذه المقاييس وهذه المستويات يسهل عليه معرفة موقعه منها وموقع مريضه فيستطيع أن يحدد بوضوح خطة العلاج ومتطلباته بشكل دقيق، ويعرف إمكانيات العلاج مع مريض معين وإمكانية نقله من مستوى الى آخر يسمح له بتوازن واطمئنان أكثر.

كما أن التصور الشامل للانسان جسدا ونفسا وروحا يعطى للمعالج النفسى فكرة واضحة وواسعة عن المجال الذى يجب أن يعمل فيه، فالنفس التى هى صورة الحياة ليست هى نهاية المطاف وأن التوقف عندها بالفهم والعلاج (كما يحدث الآن فى علم النفس والطب النفسى الغربي) سيكون بالضرورة قاصرا، إذ لابد من وضع المستوى الروحى فى الحسبان، فإن له قوة توجيه وتأثير لا يمكن ولا يصح إنكارها أو تجاهلها. فالروح كما قلنا هى بمثابة مستقبل لمؤثرات هامة للغاية ينتج عنها تغيير شامل فى مسار تفكير وانفعال وسلوك الانسان.



الفصل السادس

≈≈≈≈≈

المستوى الجسدي للنفس

(الحواس والجوارح)



المستوى الجسدى للنفس
(الحواس والجوارح)

إن النفس فى مستواها العقلى أو القلبى أو الروحى تظل شيئا غيبيا إن لم يترجم عن أحوالها الجسد. والجسد مرآة لأحوال النفس حيث تظهر عليه آثار التفكير والانفعال والدوافع من خلال التغيرات الفسيولوجية المختلفة مثل: حركة العضلات (وخاصة عضلات الوجه التى ترسم الانفعالات المختلفة على الوجه)، والتغيرات الحادثة فى الجلد (إحمرار الجلد أو إصفراره، وإفراز العرق، انتصاب الشعر... الخ)، والتغيرات الحشوية مثل سرعة ضربات القلب والتقلصات المعوية أو المعدية.

ونظرا للارتباط الشديد بين النفس والجسد ظهرت مجموعة أمراض أطلق عليها اسم " الأمراض النفسجسمية (Psychosomatic Disorders) ، وفيها تظهر الاضطرابات النفسية فى صورة اضطرابات فى الوظائف الفسيولوجية للجسم، فيظهر الصداع وقرحة المعدة والقولون العصبى والقيء العصبى وتقلصات شرايين القلب، وأزمة الربو... الخ. ليس هذا فقط بل إن هناك اضطرابات نفسية تظهر فى صورة اضطراب استقبال صورة وحالة البدن فيحس المريض بتغير فى شكله (Deperosnalization) أو اضطراب فى تناسق أعضائه (Dysmorphia) ، أو يشكو من أعراض مرضية كثيرة دون وجود أى دليل عضوى على المرض وهذه الحالة تسمى "توهم المرض" (Hypochondria) ، وسوف نناقش هذه الأمراض بتفصيل أكثر فى نهاية هذا الفصل.

إذن فالحواس والجوارح رغم أنها كيانات عضوية وليست جزءا من تركيب النفس - التى هى بطبعها معنوية غير محسوسة - إلا أن الحواس والجوارح هى وسائل الاستقبال والارسال للنفس، وهى التى تظهر عليها مظاهر النشاط النفسى المختلفة. ولذلك فنحن نضعها هنا كأحد مستويات النشاط النفسى. ويعزز هذا الوضع أن الحواس والجوارح بمتطلباتها الفطرية الغريزية المادية اللازمة لبقاء الجسد حيا تشكل توجيها للنفس لتلبية هذه المتطلبات (وذلك ما يسمى الدوافع الغريزية الفطرية)، بل إنها فى بعض الاحيان تسخر كل النشاط النفسى لخدمة احتياجاتها الغريزية.

والحواس والجوارح فى الانسان متفردة، تفرد الانسان، فعلى الرغم من أنها أعضاء جسدية، وأنها مشتركة بين الانسان والحيوان إلا أنها فى الانسان بلغت من

الدقة والتناسق والتكامل مبلغا هائلا. ففى الحيوانات يمكن أن نجد حيوانا متميزا بدقة حاسة معينة أو قوة عضو معين، ولكننا لا نجد مثل هذا التناسق والتكامل فى كل الحواس والجوارح إلا فى الانسان. وهذه الأعضاء فى الانسان بالغة التعقيد من الناحية التشريحية، وذلك أعطاها مرونة هائلة وقدرة على أداء أعمال كثيرة لا نهائية ومعقدة وبالغة الدقة، وهى قابلة للمزيد من التدريب لتصل إلى مستويات مدهشة من الأداء.

والحواس كما قلنا سابقا هى وسائل الاستقبال الخارجى مثل السمع والبصر والشم والتذوق واللمس وكل الأعضاء الحسية بكل وصلاتها العصبية حتى القشر الدماغى.

أما الجوارح فهى الاعضاء ذات القدرة على الحركة والتأثير مثل اليدين والرجلين واللسان، وكل عضو قادر على إحداث تغيير فى البيئة.

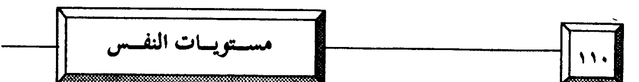
ونحن لن ندخل هنا فى تفاصيل تشريحية أو فسيولوجية هذه الأعضاء ففى كتب التشريح والفسيولوجيا ما يغنى عن ذلك، وليس هنا مجالها.

وتأتى أهمية الحواس بالنسبة لنا من أن الحواس هى وسائل إدخال المعلومات لوحدة العمليات المركزية بالنفس، وهذه الحواس بالغة الدقة إذا استخدمها الانسان بشكل صحيح ولم يعطلها أو يشوهها. وتعطيل الحاسة يأتى من إهمالها وعدم استخدامها بشكل جيد أو تعرضها للتلف العضوى كإصابة العين أو إصابة الأذن.

أما تشوه وظيفة الحواس فيأتى من استخدامها فى ما لا يفيد أو استخدامها فى شيء يؤدى الى نتائج سلبية على النفس، ونضرب مثالا لذلك بالبصر، فقد خلقه الله للتعرف على البيئة والاستمتاع بجمال الطبيعة والتأمل فى هذا الكون المنسق الرائع، فإذا استخدم الانسان بصره بهذا الشكل كانت له وظيفة إيجابية تساعد على التكامل النفسى والرضا والاستقرار. أما إذا استخدم بصره فى تتبع عورات الناس والنظر الى ما هو محرم فإن ذلك يؤثر تأثيرا سلبيا فى النفس وينحدر بها بعيدا عن طريق التكامل.

البعد الجسدى ودوائر المجهول :

ربما يعتقد بعض الناس أن النفس فقط هى المليئة بالدوائر المجهولة ، وأن الجسد الآن أصبح واضحا وضوحا تاما من الناحية التشريحية والفسيولوجية. أليس الجسد موجودا وملموسا ونستطيع رؤية دقائقه بالميكروسكوبات الدقيقة ؟ ونستطيع ملاحظة وقياس وظائفه بالوسائل العلمية الحديثة ؟.. نعم هذا صحيح.. ولكن كل



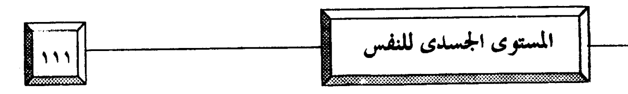
هذه الوسائل العلمية، وهذه المعرفة بالجسد لم تتخط الاجابة عن سؤال: ما هذا ؟.. فكل معرفتنا للجسد هي معرفة وصفية لتركيباته ونشاطاته المختلفة. أما لماذا ؟ وكيف تتكون هذه التركيبات وتعمل هذه الوظائف ؟ فمازالت منطقة (أو مناطق) مجهولة تماما. ويعبر عن هذه الحقيقة دكتور / الكسيس كاريل، وهو من أكبر علماء الطب، في السطور التالية :

«إن الخلايا أشبه بالنحل الذى يبنى عيونه الهندسية ويفرز عسله الصناعى ويطعم أجنته كما لو كانت كل نحلة منها تعرف الحساب والكيمياء وعلم التشريح، وتعمل مجردة من كل أنانية لمصلحة المجموع كله.. وما ذلك الميل التلقائى لتكوين الاعضاء بواسطة الخلايا الإنشائية، الشبيه بالاتجاه الاجتماعى للحشرات، إلا فروضا أولية ملاحظة لا يمكن تفسيرها على ضوء الآراء الحاضرة».

«إن كل عضو فى الجسم يبنى نفسه بواسطة فنون غريبة جدا على العقل البشرى. فهو لا يصنع من مادة غريبة مثل المنزل، كما أنه ليس نظاما خلويا أو مجرد تجمع خلايا. بالطبع، إنه مكون من خلايا كما يتكون المنزل من قوالب الطوب، ولكنه يولد من خلية كما لو كان المنزل ينشأ من قالب طوب واحد سحرى يتولى صنع قوالب أخرى. وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعمارى ولا مجيء البناءين، ولكنها تجمع نفسها وتكون الجدران، كما أنها تتحول أيضا الى نوافذ، وألواح للسقف، وفحم للتدفئة وماء للمطبخ والحمام.. وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك التى تنسب الى الجنيات فى القصص الخرافية التى كانت تروى للاطفال فى الايام الخوالي.. إنه يوجد بواسطة خلايا تدل الظواهر على انها عالمة سلفا بالبناء الذى ينبغى أن تنشئه فى المستقبل، فتصنع من المواد الموجودة فى بلازما الدم مواد البناء، وحتى العمال أيضا».

«ولحن لا نستطيع أن نفهم فى الوقت الحاضر طريقة تنظيم جسمنا وتغذيته ووجوه نشاطه العصبى والعقلي.. إن قوانين الميكانيكا والطبيعة والكيمياء قابلة للتطبيق على المادة الجامدة فقط، أما تطبيقها على الانسان فجزئى فقط، ومن ثم وجب أن تهمل تماما أوهام ميكانيكى القرن التاسع عشر، ومذهب جاك لويب والآراء الطبيعية الكيميائية الصبيانية الخاصةبالانسان التى ما زال كثيرون من الفسيولوجيين والأطباء يؤمنون بها»[1] (انتهى كلام الكسيس كاريل).

هذه هى الحقيقة فعلا، بعيدا عن التبسيط المخل وعن خداع الاعتقاد بمعرفة كل ألغاز الجسد كما يدعى بعض الأطباء أو الباحثين.



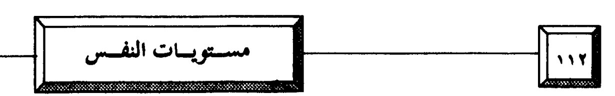
وإن كان الجسد مازال لغزًا كما رأينا بوجه عام فإن عمل الجهاز العصبي هو أكثر غموضا بوجه خاص. ولقد حاول بعض العلماء تبسيط الأمور أو اختزالها فاعتقدوا أن الادراك والتفكير والعواطف والارادة والوعى كلها نشاطات فسيولوجية لخلايا المخ، وبعضهم قسم المخ الى منطقة الذاكرة ومنطقة الادراك ومنطقة التفكير... الخ. وقد كان هذا وهما علميا كبيرا ومازال حتى الآن يسيطر على تفكير كثير من الناس، ولا يملك أى عالم حتى الآن أن يثبت بأدلة علمية مقبولة ومحترمة بأن هذه الوظائف يقوم بها المخ (الدماغ).. وإن كانت هناك أدلة كثيرة تدل على أن المخ وسيط هام لهذه الأنشطة، وأن تلف بعض أجزائه يؤثر فى بعض هذه الوظائف ولا يلغيها، بدليل قدرة الانسان على استعادة الذاكرة بعد إصابة مخية كبيرة.. ولو كانت المعلومات المخزونة موجودة فى خلايا المخ حقا لاختفت بعد تلف هذه الخلايا، ولكن يبدو أن هذه الخلايا المخية هى وسيط هام لهذه العمليات، وأنه يمكن الاستعاضة عنها عند التلف بتنشيط خلايا أخرى (كامنة) فى المخ تقوم بهذا الدور.

ويبدو أيضا أن هناك نوع من التحكم الخارجى فى نشاط الجسد يخرج عن نطاق التكوين المادى لهذا الجسد، وأن هذا التحكم والتوجيه يصدر من مركز قيادة موحد لا نعلم كنهه حتى الآن.. وبعض العلماء يفترضون أن هذا المركز هو الروح، وأنها عبارة عن نوع من الطاقة الصرفة له اتصال ما بالجسد. ونحن نعتقد أن الاعتراف بقصور معرفتنا المؤكدة فى هذا الجانب سوف يكون له تأثيرا أيجابيا على المسار العلمى نحو البحث فى هذه المناطق المجهولة، وذلك أفضل من اللجوء الى التبسيط المخل الذى يفترض أن كل شيء موجود فى الجسد وخاصة فى المخ (الدماغ)، دون وجود دليل، بل على العكس كل الأدلة المتاحة تقول بعكس ذلك، والدليل عملية نمو الخلايا الجسدية ذاتها بما فيها خلايا المخ، ونمو الأعضاء الدقيق المعقد بنمط معين، فهل يعقل أن خلايا الجسم تركب نفسها فى هذه الأنماط الدقيقة دون تأثير خارج عنها ؟ .. ربما يقول البعض إنها الشفرة الموجودة داخل الجينات، ونحن نقول لهم: ومن الذى وضع هذه الشفرة وأشرف على تنفيذها بهذه الدقة المتناهية ؟

والجواب : أن هناك فعلا ما يدعونا للايمان بوجود قوى وطاقات خارج نطاق هذا الجسد تؤثر فيه بشكل مباشر وغير مباشر، والمجال مفتوح أمام العلماء لملاحظة وتأمل تأثيرات هذه القوى المؤثرة فى الانسان.

وسائل الاستقبال :

إن سطح الجسد تغطيه شبكة هائلة من الأعصاب الحسية التى تستقبل



وبدقة شديدة كل التغيرات الحادثة فى البيئة المحيطة بالجسد، وتنقل هذه التغيرات عن طريق الأعصاب التى تتجمع حتى تصل الى المخ ليجرى هذه المعلومات مزيدا من التجميع والتكثيف والتنظيم والترميز، ثم يطلقها بعد ذلك فى صورة موجات كهربية - مغناطيسية (أو فى شكل آخر من الطاقة) الى المستويات الأعلى غير المحسوسة.

والأعصاب الحسية تنتشر على سطح الجلد فتستقبل الحرارة والبرودة والألم والضغط، وتنتشر فى شبكية العين فتستقبل الأشعة الصادرة عن الأجسام المرئية، وتنتشر فى الأذن الداخلية فتستقبل التغيرات فى الموجات الصوتية، وتنتشر فى الغشاء المخاطى المبطن للأنف فتستقبل الروائح الصادرة من البيئة المحيطة، وتنتشر فى اللسان فستقبل الطعوم المختلفة.

وهكذا تنقل الأعصاب الحسية كم هائل من المعلومات الى المخ فى كل لحظة، وبناءا على هذه المعلومات تتشكل الاستجابة أو الاستجابات المناسبة.

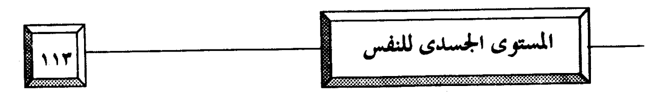
وسائل الإرسال :

بعد أن يستقبل الانسان المعلومات الواردة إليه عن طريق الأعصاب الحسية يتم معالجة هذه المعلومات فى المراكز العليا، ثم يجهز الرد المناسب فى صورة خطة سلوكية تبثها المراكز العليا الى المخ خاصة الفص قبل الأمامى (Prefrrontal Gyrus) ، وهذا الجزء من المخ يقوم بتوزيع الأوامر السلوكية على مراكز الحركة فى المخ (Precentral Gyrus) والتى تقوم بدورها بتوزيع هذه الأوامر السلوكية على الأعصاب الموزعة عن طريق جذع الدماغ والحبل الشوكى فتتحرك العضلات المستهدفة وتقوم بتنفيذ الأمر السلوكى.

النشاطات الفسيولوجية ودلالاتها النفسية :

إن من الأشياء المفيدة فى العلوم النفسية، ملاحظة التغيرات الفسيولوجية الناتجة عن التغيرات النفسية، فقد وجد أن أى فكرة تدور فى ذهن الانسان أو أى انفعال أو إرادة أو سلوك يصاحبه تغير فسيولوجى يمكن ملاحظته وقياس شدته ومدته مثل التغيرات فى النبض والضغط وسرعة التنفس وإفراز العرق وتغيرات الموجات الكهربية الصادرة عن المخ وتوتر العضلات ... الخ.

وقد كانت هذه دلالات هامة لقياس بعض مظاهر نشاطات النفس معمليا، ولكنها فى نفس الوقت خدعت بعض الباحثين حين ظنوا أنهم أصبحوا بمثل هذه



القياسات يعرفون النفس جيدا، وهذا بالطبع بعيد جدا عن الحقيقة، فالنفس أعمق وأكبر بكثير من تلك الظواهر الفسيولوجية الخارجية ذات الدلالة الجزئية.

ولكن إذا أعطينا هذه الدلالات الفسيولوجية الجزئية حجمها الطبيعي لأمكن الاستفادة منها بشكل منطقي دون مبالغات وتعميمات خاطئة، فمثلا حين نرى سرعة ضربات القلب، وارتفاع في الضغط وزيادة في إفراز العرق وسرعة في التنفس واتساع في حدقة العين، يمكننا القول بأن هذا الشخص قلق ومتوتر نفسيا وأن درجة قلقه بسيطة أو شديدة حسب درجة تلك التغيرات الفسيولوجية. أما إذا تجاوزنا هذا وزعمنا أننا بملاحظتنا لهذه التغيرات الفسيولوجية قد فهمنا النفس كلها ووضعناها تحت التجربة في المعمل فإننا نكون قد تجاوزنا حجم الحقيقة العلمية الجزئية وشوهناها، وهذا يضر بالمسار العلمي أكثر مما يفيده. وقد كان هذا هو خطأ المدرسة التجريبية (ولا يزال سائدا حتى الآن في معظم الأبحاث العلمية النفسية البيولوجية، رغم أهمية تلك الأبحاث).

وأيضا المدرسة السلوكية حين راحت تفسر الانسان على أنه مجموعة من العادات وردود الفعل الشرطية المنعكسة (Conditioned Refelexes) التي تنميها البيئة (أو لا تنميها)، والتي لا يختلف بعضها عن بعض إلا باختلاف المؤثر.. لم تكن في الحقيقة تفسر "الانسان" بقدر ما كانت تفسر "الحيوان"، ثم تحيل الانسان على ما تتصوره من سلوك الحيوان، فترد السلوك كله الى اسباب "فسيولوجية" (أي جسدية)، وترد "التعلم" إلى الأفعال وردود الافعال ذات الطابع الحسي البحت.. وتضيق "مساحة" الانسان بذلك الى درجة مزرية، فلا فكر ولا إرادة ولا مثل ولا قيم عليا ولا مشاعر رفيعة.. إنما هي الحيوانية الحسية وفي أضيق نطاق[٢].

خصائص الوجود على المستوى الجسدى :

هناك فئة من الناس تكون بؤرة اهتمامهم في الجسد بكل ما يرتبط به من احتياجات، فترى الواحد منهم كل ما يهمه هو تأمين مأكله والاهتمام بكل فنون الطعام والشراب وعلاقاتها بالجسم من حيث النحافة أو السمنة أو جمال البشرة، وتأمين ملبسه والاهتمام بكل فنون اللباس من حيث اللون ونوعية الملبس وتمشيه مع آخر صيحة، وتأمين المسكن، والاهتمام بكل فنون العمارة من حيث الاتساع والجمال والأساسات الفاخرة، وتأمين الإشباع الجنسي والاهتمام بكل ما يتصل بهذه الغريزة من نشاطات موجهة في غالبها نحو الاتصال بالجنس المرغوب وما يحيط به من وسائل تشويق كالغناء والخمر والرقص... الخ.

ولا شك أن كل انسان له احتياجات جسدية مطلوبة لاستمرار وجوده، وله الحق أيضا في التمتع بإشباع هذه الاحتياجات. يقول تعالى :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران ١٤).

أما إذا صار إشباع هذه الحاجات الجسدية هو محور حياة الانسان، وبالغ في تعاطيها وتزيينها، ولم يهتم إلا بها وبما يتعلق بها، وسخر كل نشاطاته العقلية لخدمة هذا الهدف الجسدي فإن هذا الانسان يقال عنه أنه يعيش على المستوى الجسدي، ويقال له باللغة الدينية أنه إنسان دنيوى.

وهذا المستوى هو أدنى مستويات الوجود البشرى بالرغم مما قد يبدو فيه أحيانا من لذة المأكل والمشرب، وفخامة الملبس والمسكن، وتنوع المتع الجنسية. وهذا المستوى يشترك فيه الانسان مع الحيوان، بل إن الحيوان يتفوق على الانسان فيه أحيانا، فكثير من الحيوانات تأكل أكثر من الانسان وتمارس الجنس أكثر منه وتتمتع بقوة جسمانية أكثر منه. وإنما تميز الإنسان بمستوياته الأعلى لا بهذا المستوى.

يقول تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ١٦٨).

ففى هذه الآية يبيح متطلبات الجسد من المأكل ولكنه سرعان ما يرتفع به الى المستويات الاعلى فيشترط أن يكون حلالا، ويحذر الانسان من اتباع الشيطان.

ويقول تعالى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف ٣١).

وفى هذه الآية يجتمع إباحة الزينة والأكل والشرب بشرط عدم الإسراف، وترتبط الزينة حتى بالعبادة (الذهاب للمسجد) بشرط عدم المبالغة والإسراف.

ونفهم من الآيات السابقة أن احتياجات الجسد مطلوبة ومعترف بها، فهى دوافع فطرية لازمة لبقاء الانسان، ولكن يجب اعتبارها مستوى يجب أن يكون موصولا وموظفا لصالح المستويات الأعلى.

يقول تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد ١٢).

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر ٣).

فى هاتين الآيتين يتضح موقف من توقفوا عند المستوى الجسدى وجعلوه كل همهم، فهم كالحيوانات، لأنهم نبذوا ما يميز الانسان من مسويات أعلي.

وعندما نصف انسان بأنه يقع فى المستوى الجسدى فإن ذلك لا يعنى غياب باقى المستويات تماما وإنما يعنى أن المستوى الجسدى هو السائد وهو الموجود دائما فى بؤرة الاهتمام والشعور، بل وربما يستغل المستوى الجسدى المستويات الاعلى فيسخرها لخدمته، فنجد مثلا بعض الناس يستعملون عقولهم فقط فى تدبير احتياجات الجسد وتنويعها وزيادة فرص التلذذ بها، وتتضح هذه النقطة بشكل صارخ فى الشخصيات السيكوباتية التى تعلى قيمة اللذة الجسدية العاجلة وتستخدم كل امكاناتها العقلية فى رسم الخطط والتحايل للوصول إلى أهدافها الحسية من أقرب طريق.

المستوى الجسدى والغرائز :

فى هذا المستوى تنشط الغرائز بشكل زائد، فتشتد غريزة الطعام والشراب لدرجة الإسراف والتخمة، وتشتد غريزة الجنس وتصبح ملحة معظم الوقت ولا تشبع أبدا مهما غذيت من الحلال أو الحرام، وتشتد غريزة العدوان فيصبح الشخص جشعا عنيفا وأنانيا وقاسيا على من حوله، ويتزايد عدوانه إذا أحس بأى انتقاص لغرائزه من الآخرين، أو إذا وقف أحد فى طريق أطماعه، فهو يصبح كالحيوان الذى يتصارع مع حيوان آخر على فريسة.

ونعود لنؤكد بأن الغرائز الفطرية موجودة فى كل انسان وهى فى الأصل طبيعية ولازمة لوجوده بشرط أن تكون موصولة بالمستويات الاعلى للانسان، فعندئذ تجرى لها عملية تنظيم وتوجيه فى المسارات الصحيحة، وتجرى لها عملية تهذيب وضبط إذا مالت الى الجنوح والتهور.

أما إذا ضعفت تلك المستويات الاعلى فى نفس الانسان فإن الغرائز تنطلق بلا ضابط وتصبح خطرا على مسيرة صاحبها وعلى تطوره الانسانى وعلى مصيره النهائي.

المستوى الجسدى والصراع :

تختلف حدة الصراع فى هذا المستوى تبعا للعوامل التالية :

١- إذا ضعف اتصال هذا المستوى الجسدى مع المستويات الأعلى (العقل والقلب والروح)، ووجد الجسد إشباعًا كافيًا لاحتياجاته الغريزيـة، فإن الصـراع داخل هذه النفس يكـون محـدودا، لأن الانسـان يعيـش فـى هـذه الحالـة علـى مسـتوى حيواني، ويقنع في وجوده بإشباع رغبة الأكل والشـرب والجنـس، ويظـل يخمـد أى بادرة يقظة لمستوياته الاعلي. وأحيانا يعبر أحدهم عن رغبته في قتـل ضـميره حتى يستريح ويمارس حياته علـى هـذا المسـتوى الجسـدى بـلا منغصـات. وهـذه الحالة تتسم بالعمى النفسى وكـثرة الدفاعـات النفسـية، وإذا وجـد صـراع فإنـه يكون بين الشخص وبيئته فى محاولة لتأمين احتياجات الجسد من البيئة.

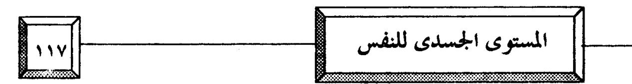
٢- أما إذا حدث واستيقظت المستويات الأعلي، أحدها أو كلها، فإن الشخص يبدأ فى المعاناه من الصراع النفسى (الداخلي)، حيث تزداد بصيرتـه ورؤيتـه ويعـرف أنه ليس على الطريق الصحيح، وتبدأ جولات من الصراع بين المستوى الجسدى الأدنى، باحتياجاته الغريزية، وبين المستويات الاعلى باحتياجاتها الأرقـي. ويمكـن أن يستمر الحال هكذا لمدة طويلة، أو تحسم المعركة الدائرة لصالح أحد الطرفين، وعندها تخف حدة الصراع.

وهذه الحالة نجدها فى ممارستنا لمهنة الطب النفسـي، حيـث يأتينـا الشـخص فيقول: إننى بدأت التزم بالدين حديثا بعد حياه حافلة باللهو والعبث والمجـون، ومـع بداية تدينى أشعر بالقلق والوساوس والصراعات الداخلية. وهـذا الشـخص إمـا أنـه يستمر فى التزامه الدينى حتـى يصـل الى مرحلـة الاطمئنـان الروحـى بعـد اسـتقرار الدين فى جوانب حياته بعمق مناسب، وإما أنه يجنح الى العودة لما كان فيــه مـن لهـو وعبث اعتقادا منه انه كان مستريحا لهذا النوع من الحيـاه. وهنـا تـأتى وظيفـة المعـالج والمربى الذى يقابل الشخص من هذا النوع فى هذه المرحلة فيحاول أن يثبت أقدامه على طريق الدين، وأن يسـاعده ليرتقى فـى مـدارج الايمـان حتـى يصـل الى مرحلـة اليقين والاطمئنان.

تأثير حالة الجسد على النشاط النفسى :

هناك ملاحظة علمية لا يمكن إنكارها وهى أن الحالـة العضويـة للجسـد لهـا تأثير واضح على النشاط النفسي، ولنضرب بعض الأمثلة البسيطة لذلك :

١- إن نمو الذكاء والقدرة علـى التفكـير وبقيـة المظـاهر النفسـية يتواكـب مـع نمـو ونضج خلايا المخ فى الأطفال، وإن تدهور هذه الوظائف فى كبار السن يتواكب مع ضمور خلايا المخ.



٢- إن نشاط الغدد الصماء يؤثر تأثيرا واضحا فى النشاطات النفسية فمثلا زيادة نشاط الغدة الدرقية (Thyriod Gland) يؤدى الى حالة من القلق وعدم الاستقرار والإفراط فى الحركة وسرعة الانفعال، فى حين أن نقص نشاطها يؤدى الى البلادة وبطء التفكير والحركة.

وإن نشاط الغدد الجنسية ضرورى للحفاظ على حيوية الانسان وقدرته على المبادرة وسلامة حالاته الانفعالية، أما إذا نقص إفراز هذه الغدد فإن الصفات الذكرية تخبو عند الذكر (المبادرة والشجاعة والقوة) ويصبح الرجل خاملا جبانا ضعيفا.

٣- إن إصابات المخ العضوية لها تأثير ملحوظ على التفكير والانفعال والسلوك، فإذا حدث مثلا تهتك فى المخ، أو إصابة بعدوى فيروسية أو بكتيرية فإن ذلك يحدث تغيرا فى شخصية الانسان بدرجة أو بأخرى.

٤- تحدث التغيرات الكيميائية فى الدم تغيرا فى الشخصية، فمثلا التسمم الكحولى يؤدى الى هلاوس وذهان العظمة والغيرة والشك... الخ، والتسمم بالأدوية والمخدرات يؤدى الى اضطرابات متباينة حسب نوع الدواء أو المخدر.

وهذه الأدلة ليست إثباتا على أن العمليات النفسية تتم بالكامل فى المخ، وإنما هى دليل على أهمية دور المخ (كوسيط هام) فى العمليات النفسية.

اضطرابات المستوى الجسدى للنفس :

ومهما اشتد غموض الجسد، واشتد أكثر غموض النفس، إلا أن هناك ملحوظة بسيطة لا يستطيع أحد إنكارها، وهى أن النفس والجسد يؤثر كلاهما فى الآخر.

فليس هناك شك فى أن النمو الطبيعى للجسد وانسجام أعضائه وأنسجته وإفرازات غدده يعطى إحساسا بالراحة والانسجام والصحة، وأن اضطراب نمو أى عضو أو أى نسيج أو أى غدة ينتج عنه شعور بالاضطراب النفسى يأخذ أشكالا مختلفة.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الراحة النفسية والرضا والاطمئنان يصاحبهما تناسق فى الإفرازات الكيميائية الحيوية فى الجسد ويصاحبهما أداء طيب ومتناسق للأعضاء والأجهزة المختلفة. وحين تضطرب النفس يضطرب الجسد والعكس أيضًا صحيح. وفيما يلى نستعرض بعض هذه الاضطرابات والتى يطلق عليها فى التقسيمات العلمية الحديثة: الاضطرابات جسدية الشكل (Somatoform

(Disorders ، وهى تعني: الاضطرابات النفسية التى يعبر عنها الجسد فى صورة اضطرابات جسدية وهى تظهر فى إحدى الصور التالية :

(١) اضطراب صورة الجسد (Body Dysmorphic Disoder)

ينشغل الشخص بوجود عيب فى شكل عضو أو أكثر من أعضاء جسده، أو أن شكله بوجه عام غير طبيعي، على الرغم من أن كل من يراه لا يجد فيه أى عيب، ولكنه شخصيا مشغول بالتفكير طول الوقت فى هذا العيب الجسدى. وأحيانا يكون فى الشخص تلف عضوى بسيط (فى أحد الأصابع مثلا)، ولكن المريض يظل مشغولا طول الوقت بهذه الحالة، وربما تعطله عن عمله وعن حياته، وتنغص عليه حياته. وأنا أذكر مريضا كان يتمتع بقوة جسمانية عضلية تلفت النظر، ومع ذلك فهو يشكو من هزال جسمه وضعف بنيته ولين عظامه، وقد تردد (وما زال) على الاطباء لسنوات لعلاج هذه الحالة.

(٢) اضطراب الهستيريا التحولى :

(Hysterical Neurosis, Convention Type)

وهو يظهر فى صورة فقد أو تغير فى وظيفة (أو وظائف) عضوية بما يوهم بوجود اضطراب عضوى. فمثلا عندما يتعرض الشخص لموقف صعب أو صدمة نفسية يحدث توقف عن الكلام أو شلل فى أحد اليدين أو الرجلين (أو كلاهما) أو فقد القدرة على الرؤية.. الخ، على الرغم من أن أعضاء جسمه سليمة ولا يوجد بها أى تلف عضوى بدليل عودة هذه الوظائف كاملة بعد تحسن الظروف أو حتى بالإيحاء.

(٣) توهم المرض (Hypochondriasis)

يأتى المريض فى هذه الحالة وهو يشكو من خوف دائم من أن يكون لديه مرض خطير، أو اعتقاد بأنه مصاب فعلا بمرض خطير كمرض فى القلب أو الصدر أو المخ أو سرطان .. الخ.

ويستند المريض - فى خوفه هذا أو اعتقاده بوجود المرض ـ على بعض الاعراض العضوية أو الإحساسات التى تنتابه ويفسرها على أنها أعراض مرض خطير. ويعزز من ذلك تركيز المريض على جسمه بشكل دائم، فهو دائما يعد ضربات القلب ويتحسس النبض، ويعد دورات التنفس وعمق التنفس ويتابع حرارة الجسم أو برودته.. وهكذا يظل طوال اليوم مشغولا بهذه الأنشطة الفسيولوجية اللاإرادية. ومن المعروف أن هذه الأنشطة المذكورة تعمل بشكل منظم ولا إرادى،

ولكن إذا ركز الانسان عليها فإن بعضها يضطرب فعلا، مثل سرعة وعمق التنفس وسرعة ضربات القلب. وهكذا يدخل المريض فى دائرة مغلقة، فهو يخشى على نفسه المرض فيحاول التركيز على النبض وسرعة ضربات القلب ومعدل التنفس فتضطرب بعض هذه الانشطة أو كلها بسبب تركيزه عليها، فيزداد خوفه.. وهكذا بلا انقطاع.

ويبدأ مثل هذا المريض رحلة طويلة لا تنتهى من الفحوص الطبية والتحاليل والأشعات، ولا يكف عن زيارة الأطباء، وكلما سمع اسم طبيب فى أى تخصص بادر بزيارته واستشارته. وهذا المريض نعرفه عند دخوله غرفة الكشف، حيث نجده يحمل أكياسا مليئة بالوصفات الطبية والتحاليل ونتائج الأشعات. ولست أنسى مريضا من هؤلاء دخل غرفة الكشف وهو يحمل ثلاث حقائب كبيرة مليئة بالأوراق الخاصة بمرضه أو أمراضه (التى يتوهمها)، وكان مصرا على أن أتفحصها كلها قبل الكشف عليه أو كتابة أى علاج له.

وبعد الكشف على مثل هذا المريض وطمأنته بأنه لا توجد علامات ذلك المرض الخطير أو الأمراض التى يخشاها، فإنه يطمئن لفترة قصيرة وتتحسن حالته مؤقتا، لكن سرعان ما يعود الى الشكوى والتجوال فى العيادات والمستشفيات مرة أخرى ليطمئنه طبيب آخر فيستريح فترة ثم يعود.. وهكذا.

وإذا قابلت أحد هؤلاء المرضى تجده لا يتحدث إلا عن المرض والأدوية والأطباء والمستشفيات ولا تستطيع تحويل انتباهه بسهولة لأى موضوع آخر.

وهذه الحالات المرضية الثلاثة السابقة (اضطراب صورة الجسد واضطراب الهستيريا التحولى وتوهم المرض) التى ذكرناها تعطينا ملحوظة بسيطة، وهى فى نفس الوقت هامة وشديدة الصعوبة، هذه الملحوظة هى أن المريض من هذا النوع يعطى اهتماما زائدا لمستواه الجسدى على حساب المستويات الاعلى، فهو يركز تركيزا هائلا على أهمية جسده وصورته وشكله وتغيراته، وكأن جسده هو كل شيء بالنسبة له، ومن هنا ينشأ خوفه الشديد وهلعه نحو هذا الجسد وسلامته.

وربما ينشأ هذا من البيئة، التى تتسم بضيق الأفق والتفكير، والتى نشأ فيها المريض وتعلم منها أن هذا الجسد هو كل شيء بالنسبة له ولا شيء يعلو عليه، ويتمثل هذا فى خوف الأب الزائد أو خوف الأم الشديد على صحة الطفل وطعامه وشرابه ووزنه وشكله، مع إهمال الجوانب العقلية والقلبية والروحية أثناء النشأة.

ومن هنا تأتى صعوبة التعامل مع هؤلاء المرضى، حيث إن المشكلة تكون

عميقة الجذور، فنحن أمام اعتقاد راسخ بإعلاء قيمة الجسد على كل شيء وبالتالى الخوف الشديد عليه.

وهذه الأمراض نجدها أكثر فى المهن التى تعتمد كثيرا على الشكل مثل الممثلات والمطربات وعارضات الأزياء، والمهن التى تتطلب قوة بدنية مثل عمال الزراعة والبناء والرياضيين، وتكثر فى المرأة وخاصة المراة الجميلة التى تشعر أن جمال شكلها هو ثروتها الوحيدة. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه فى تفسير آلية تلك الأمراض.

أما العلاج من هذا المنظور فهو يتلخص فى توسيع أفق المريض ومجال رؤيته، وبمعنى آخر الارتقاء به الى المستويات الأعلى حتى يعلم أن هذا الجسد هو أدنى مستوياته، وإن كان يستحق الاهتمام، فإن هناك مستويات أخرى تستحق أيضا مثل هذا الاهتمام وربما أكثر، وأن قيمته الحقيقية ليست فى جسده وشكله وقوة عضلاته وإنما فى عقله وقلبه وروحه.

(٤) اضطرابات الجسدنة (Somatization Disorders):

وهى اضطرابات جسدية متعددة يشكو منها المريض (أو المريضة) وبإجراء الكشف الطبى وعمل الفحوصات الطبية لا نجد أى أمراض عضوية تفسر هذه الأغراض :

١-الجهاز الهضمى : الغثيان، القيء، آلام البطن، انتفاخ البطن، الإسهال، عدم تحمل العديد من الأطعمة.

٢-أعراض الألم : آلام فى الأطراف أو فى الظهر أو المفاصل أو ألم أثناء التبول.

٣-أعراض قلبية صدرية : الشعور بقصر أو صعوبة التنفس، خفقان بالقلب، ألم فى الصدر أو دوخة.

٤-أعراض عصبية كاذبة : النسيان، صعوبة البلع، فقدان الصوت، الصمم، الرؤية المزدوجة، الزغللة فى العين، فقد البصر، الدوخة أو فقد الوعى، التشنجات، اضطراب المشى، الشلل أو ضعف العضلات، صعوبة التبول أو احتباس البول.

٥-أعراض جنسية : الشعور بحرقان فى الاعضاء الجنسية أو الشرج، عدم الشعور باللذة الجنسية، آلام أثناء الجماع، ضعف جنسي.

٦-أعراض تظهر فى الأنثى : آلام الطمث، اضطراب الدورة الشهرية، زيادة النزف أثناء الدورة، استمرار القيء طوال الحمل.

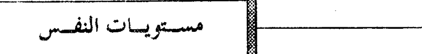
وفى كل هذه الاعراض السابقة لا يوجد عند الكشف الطبى اضطراب

عضوى واضح يفسرها، وإذا وجد اضطراب عضوى فإنه يكون أقل من الاعراض الموجودة بكثير ولا يفسر وجودها وحده.

(٥) اضطراب الألم المجسدن (Somatoform Pain Disorders):

فى هذه الحالة نجد الشخص مشغولا طول الوقت بألم يحسه فى جزء أو أجزاء من جسمه، وعند الكشف الطبى عليه لا يتضح وجود أى مرض عضوى مسئول عن هذا الألم المستمر، وإن وجد مريضا عضويا فإنه لا يتناسب مع كم الألم الذى يشكو منه المريض.

وفى هاتين الحالتين الأخيرتين (الاضطرابات النفسجسمية واضطراب الألم المجسدن) نجد من استكشاف حالة المريض أنه عانى أو يعانى من صعوبات نفسية، ولكنه لم يعبر عنها بصورة أعراض نفسية صريحة، لذلك ظهرت فى صورة أعراض جسمانية، وهذا يعلن مرة أخرى عمق التفاعل المتبادل بين النفس والجسد.



الفصل السابع

المستوى العقلي

العقل فى اللغة العربية :

يعتبر "العقل" من الألفاظ المتداولة بكثرة فى اللغة العربية ونلمح ذلك فى كثير من الشعر الجاهلى ثم الشعر الاسلامى ثم كلام العلماء. وقد أيد كل هذا كثرة ورود معانى ومشتقات العقل فى القرآن الكريم.

ففى الشعر الجاهلى ورد العقل بمعنى "القوة العاقلة" وقد فارقت صاحبها بسبب العشق، كما فى قول الأعشى ميمون بن قيس :

تصابيت أم بانت بعقلك زينب وقد جعل الود الذى كان يذهب[١]

أما فى الشعر الاسلامى فإن لفظ "العقل" يرد بمعنى المرجع الذى يعود إليه الانسان عند تقرير الأمور، أو بمعنى الميزة التى تميز الكائن المدرك عن سواه مما لا يعقل ولا يعى كالأصنام[٢]. قال خزاعى بن عبد نهم وكان سادنا للصنم نهم ثم كسره وأسلم :

ذهبت الى "نهم" لأذبح عنده عتيرة نسك كالذى كنت أفعل

فقلت لنفسى حين راجعت عقلها أهذا إله ؟ أبكم ليس يعقل

وورد أيضا بمعنى القوة العاقلة التى تدفع الإنسان الى الحذر والتنبه وتبعده عن فعل الشر، قال عمار بن ياسر :

جزى الله خيرا عن بلال وصحبه عتيقا وأخزى فاكها وأبا جهل

عشية همّا فى بلال بسوءةٍ ولم يحذرا ما يحذر المرؤ ذو العقل[٣]

وفى المعجم الوسيط[٤] :

- عقل عقلا : أدرك الاشياء على حقيقتها..
- وعقل الغلام : أدرك وميز. يقال : ما فعلت هذا مذ عقلت.
- وعقل إليه : عقلا وعقولا : لجأ وتحصن.
- وعقل الشىء : أدركه على حقيقته.
- وعقل البعير : ضم رسغ يده الى عضده وربطهما معا بالعقال ليبقى باركا.
- وعقل فلان عن حاجته : حبسه عنها.
- تعاقل الرجل : تكلف العقل.
- العاقل : المدرك.

وفى "لسان العرب"[٥] :

- العقل : الحجر والنهى، ضد الحمق.

وفى القاموس المحيط[٦] :

- العقل : العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين، أو مطلق لأمور أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن ولمعاير مجتمعة فى الذهن يكون بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح لهيئة محمودة للانسان فى حركاته وكلامه.

وفى "المنجد"[٧] :

- عقل الغلام : أدرك.

- عقل فلان بعد الصبا : عرف الخطأ الذى كان عليه.

- اعتقل لسانه : حبس عن الكلام.

- العقل : مصدر : نور روحانى به تدرك النفس ما لا تدركه بالحواس.

- العقلى : نسبة الى العقل : ما لا يكون للحس الباطن فيه مدخل.

- العاقل : المدرك، الفاهم، الحكيم.

العقل فى القرآن الكريم :

لقد وردت مادة "عقل" باشتقاقاتها المختلفة فى القرآن الكريم ٤٩ مرة.

«ويلاحظ أن الآيات التى وردت فيها مادة "عقل" كان أكثرها بصيغة فعل المضارع على سبيل الاستفهام "أفلا تعقلون" أو الترجى "لعلكم تعقلون" أو التقرير "لقوم يعقلون" أو النفى "لا يعقلون". إن القرآن فى كل آية من هذه الآيات التى تنتهى بهذه الصيغة الفعلية يطرح قضية فكرية معينة تقتضى مخاطبة العقل فى ظاهر سياقها لأنها تتعرض لأمور فى الطبيعة تدعو الى التأمل والنظر، والصيغة الفعلية تدل على حدث + زمن، فإذا كان الفعل مشتقًا من الاسم الجامد الذى هو المصدر أو مما اشتق من المصدر كاسم الفاعل أو اسم المفعول على قول آخر، فإننا نفهم من ذلك أن المصدر هو حدث لا زمن له، وأن الفعل هو الحدث أضيف إليه مضمون زمنى يحدد فترة وقوعه، سواء كان الزمن يدل على الماضى أو الحاضر أو المستقبل»[٨].

وهناك تفسيران لذكر العقل فى صورة الفعل وعدم ذكره فى صورة الاسم نوردهما على سبيل الاجتهاد القابل للنقاش :

١- الأول : أن العقل قوة كامنة فى كل البشر، وهذه القوة ليس لها قيمة فى ذاتها إلا إذا استخدمت بالفعل، وأن قيمتها تعلو وتهبط حسب درجة الاستفادة منها،

لذلك فالعقل لا تتضح قيمته إلا إذا كان فعلا حقيقيا فى الاتجاه الصحيح الذى خلقه الله من أجله. وربما يكون فى هذا كبح لجماح من عظموا العقل لذاته، ووصل بعضهم الى اعتبار أن العقل هو الإله المسير لهذا الكون.

٢- الثانى : أن ورود العقل بصيغة الفعل الذى يعنى حدث + زمن محدد (ماضى أو مضارع أو مستقبل) يجعل للعقل مجالا زمنيا محددا يعمل فيه، وهذا يفرقه عن القلب الذى يمتد إدراكه بلا حدود زمانية أو مكانية، فالعقل إذن هو صاحب الإدراك المحدد بظروف الزمان، أما القلب فهو صاحب الادراك الممتد عبر كل الازمنة. وبعبارة اخرى فإن العقل يدرك قطاعا زمنيا مستعرضا، إما أن يكون ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا، فى حين أن القلب يستطيع إدراك ذلك القطاع الزمنى المستعرض ويدرك معه فى ذات اللحظة بقية الأبعاد الزمنية الأخرى فى صورة شاملة.

العقل والقلب :

يجب أن يلاحظ القارئ أن هناك بعض المناطق المشتركة بين العقل والقلب جعلت الكثيرين من العامة وحتى بعض الخاصة يستخدمون لفظ "العقل" مكان "القلب" أو العكس، أو يعتبرونهما لفظان يدلان على شيء واحد. وسوف يتضح من خلال الدراسة أن هناك فروقا جوهريا بين هذا وذاك. وسوف نجد أن بعض الباحثين يتحدثون عن العقل وحديثهم فى الواقع ينطبق على العقل والقلب معا، ليس هذا فقط بل إن العقل والقلب كثيرا ما يختلطان بالنفس والروح فى كثير من الكتابات كما سنرى، وهذا الخلط بالطبع يعوق مسيرة البحث العلمى الواضح المحدد، ولذلك سنحاول بعون من الله وتوفيقه تحديد مفاهيم هذه المصطلحات تمهيدا لاستخدامها الصحيح فى كتاباتنا وأبحاثنا.

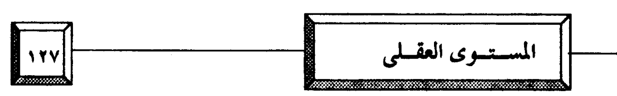
مفهوم العقل لدى علماء المسلمين :

يورد الغزالي[٩] معنيين للعقل :

١- أحدهما : أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب.

٢- والثانى : أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب.

ونفهم من كلام الغزالى فى معنى العقل أنه إما أن يكوم محله القلب أو أنه هو القلب ذاته. وهناك آراء كثيرة تخالف هذا الرأى، بل إن استعراض الآيات التى أوردت معانى العقل يوحى بأن العقل يختص بالملاحظة والتأمل والتفكير، أما الآيات



التى تحدثت عن القلب فإنها أعطت للقلب أبعادا وجدانية وإيمانية ليست فى العقل المجرد.

ويقول الغزالى فى بيان حقيقة العقل وأقسامه(١٠):

"الحق أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان :

١- **الأول** : الوصف الذى يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراده الحارث ابن أسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف به فى القلب به يستعد لإدراك الاشياء.

٢- **الثانى** : هى العلوم التى تخرج الى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

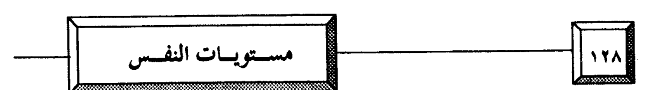
٣- **الثالث** : علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبى غمر جاهل.

٤- **الرابع** : أن تنتهى قوة تلك الغريزة الى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث أن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضا من خواص الانسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان. (انتهى كلام الغزالى مختصرا).

وإن كان الغزالى قد وصف ما سبق بأنه أقسام للعقل، إلا أننا سنعيد رؤيتها على أنها مستويات تصاعدية للعقل يتدرج الناس فى الصعود إليها كل حسب طاقته وجهده (ومجاهدته)، فنرى :

١- **المستوى الأول** (وهو يمثل القاعدة الواسعة) : هو الاستعداد والغريزة الفطرية لدى الانسان للإدراك والفهم والتفكير وتلقى العلوم، وهو مجرد استعداد.

٢- **المستوى الثانى** : وهو اشتمال العقل (المستعد) للعلوم الضرورية والحقائق البديهية اللازمة للحفاظ على حياة الانسان المادية البسيطة، وهذه العلوم لا غنى عنها للانسان.



٣- المستوى الثالث : وهو المستوى العقلي الذى صقلته التجارب والممارسات فأثرت تلك التجارب والممارسات العقل الفطرى بكم هائل من الاستنتاجات والحقائق تجعله يتعامل مع البيئة المحيطة بصورة أكثر فاعلية.

٤- المستوى الرابع : وهو العقل المتبصر بعواقب الأمور، والعقل المشبع بقانون الضمير الأخلاقى والمستنير بالأبعاد الايمانية والروحية فى مأخذه للأمور.

والانسان الناضج فى نظر علم النفس هو الذى يصل الى المستوى الرابع مرورا بالمستويات السابقة بتدرج منطقى هادئ. وإن التدرج ليس فقط متمثلا فى هذه المستويات الأربعة، بل إن كل مستوى فيه درجات مختلفة. وفى هذا يقول الغزالي(١١):

«إن التفاوت يتطرق الى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى (وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات)، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق اليها، أما القسم الرابع، وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه. فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا، وإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا، وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقد لا يقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذ لم يكن طبيبا، وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة، لكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد، فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له فى قمع الشهوات وكسرها. وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيه لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة وإما تفاوتا فى الممارسة فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل الى جحده فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه، ومبادئ إشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج الى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة.. بل سنة الله عز وجل جاريه فى جميع خلقه بالتدريج فى الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر فى الصبى عند البلوغ دفعه وبغتة بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج وكذلك جميع القوى والصفات» (انتهى)(*).

(*) انظر "بدائع الفوائد" لابن قيم الجوزية (دكتور / صالح اللحيدان).

وقال معاوية بن أبى سفيان فى تعريف العقل وبيان ماهيته :

«العقل عقلان : عقل تجارب وعقل نحيزه (أى طبيعة وهو العقل الفطرى)، فإذا اجتمعا فى رجل فذاك الذى لا يقام له، وإذا تفردا كانت النحيزة أولاهما»[١٢].

وقيل لعمرو بن العاص : ما العقل ؟ فقال : الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان[١٣].

ويقول القرطبى :

«اتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم، لأنه لو كان معدوما لما اختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض، وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالي. وقد صارت الفلاسفة الى أن العقل قديم، ثم منهم من صار الى أنه جوهر لطيف فى البدن ينبث شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات. ومنهم من قال: إنه جوهر بسيط غير مركب. ثم اختلفوا فى محله، فقالت طائفة منهم محله الدماغ، لأن الدماغ محل الحس. وقالت طائفة أخرى : محله القلب، لأن القلب معدن الحياه ومادة الحواس. وهذا القول فى العقل بأنه جوهر، فاسد من حيث إن الجواهر متماثلة، فلو كان جوهر عقلا لكان حقائق المعاني. وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحي، والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا مشتهيا»[١٤].

ثم يعرض القرطبى آراء العلماء فى تعريف العقل فيقول :

«وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى والأستاذ أبو اسحاق الأسفرايني وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم، بدليل أنه لا يقال : عقلت وما علمت، أو علمت وما عقلت. وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو اختيار أبى المعالى فى الإرشاد، واختار فى البرهان أنه صفة يتأتى بها درك العلوم. وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة. وحكى الاستاذ أبو بكر عن الشافعى وأبى عبد الله بن مجاهد أنهما قالا: العقل آلة التمييز. وحكى عن أبى العباس القلانسى أنه قال : العقل قوة التمييز. وحكى عن المحاسبى أنه قال : العقل أنوار وبصائر»[١٥].

ويقول المحاسبي فى تعريف العقل وماهيته :

«العقل غريزة وضعها الله سبحانه فى أكثر خلقه، لم يطلع عليها العباد

بعضهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ولا بحس، ولا ذوق، ولا طعم. وإنما عرفهم الله (سبحانه وتعالي) إياه بالعقل منهم فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذى عرفوه به من أنفسهم، بمعرفة ما ينفعهم، ومعرفة ما يضرهم.. فالعقل غريزة، جعلها الله عز وجل فى الممتحنين من عباده، أقام به على البالغين للحلم الحجة، وأنه خاطبهم من جهة عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهي، وحض وندب.. فهو غريزة، لا يعرف إلا بفعاله فى القلب والجوارح، لا يقدر أحد أن يصفه فى نفسه ولا فى غيره بغير أفعاله، ولا يقدر أحد أن يصفه بجسميه، ولا بطول، ولا بعرض، ولا طعم، ولا شم، ولا مجسه، ولا لون، ولا يعرف إلا بأفعاله».

ويتضح من هذا التعريف للمحاسبى أن العقل غريزة غير محسوسة بذاتها ولكننا نلاحظ مظاهر نشاطها، وأنه هو وسيلة التفريق بين ما ينفع وما يضر، وأن نضجه يكون عند البلوغ ولذلك يكون التكليف الشرعى بدءا من سن البلوغ.

والعقل ـ كما يتضح من هذا التعريف ومن غيره ـ ليس هو المخ (الدماغ)، فالمخ البشرى يتم نضجه بيولوجيا فى سن السابعة، ومع ذلك لا نقول أن الصبى فى هذا السن صار عاقلا مكلفا. والعقل غريزة غير محسوسة وهو يستعمل المخ (الدماغ) وما يتصل به من حواس وجوارح كوسائل استقبال وتجميع وإرسال، وهو ينمو بالتعلم واكتساب الخبرات.

والمحاسبى يرى أن المعرفة تحصل نتيجة لوجود العقل، وينكر على من قالوا إن المعرفة هى العقل، والفرق واضح بين الرأيين، فالمحاسبى يقرر بأن :

«العقل غريزة يولد العبد بها، ثم يزيد فيه معنى بعد معني، بالأسباب الدالة على المعقول»(١٦).

فالمعرفة تتحصل بواسطة العقل عن طريق التعلم وإضافة الخبرات وذلك يتضح من قوله :

"إنه غريزة والمعرفة عنه تكون"(١٧).

ثم يورد المحاسبى معنيين للعقل(١٨):

١ – أحدهما : الفهم لإصابة المعني. وهو البيان لكل ما سمع من (أمور) الدنيا والدين، وكما مس، أو ذاق أو شم، فسماه الخلق عقلا، وسموا فاعله عاقلا.. وهذه خصلة يشترك فيها أهل غريزة العقل، التى خلقها الله فيهم، من أهل الهدى وأهل الضلال.

٢- الثاني : البصيرة، والمعرفة بتعظيم قدر الاشياء النافعة والضارة، في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله تعالى.

وقد سمى المحاسبى المعنى الاول للعقل : "عاقل للبيان"، وسمى المعنى الثانى "عاقل عن الله عز وجل"، ثم يقول : "وقد وصف الله عز وجل من هذا فى كتابه رجالا، وسمى لهم عقلا فقال تعالى :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج ٤٦).

يعنى : عنه، ثم سمى بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلا للبيان الذى لزمتهم به الحجة، فقال تعالى :

﴿يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٧٥)، فأخبر أنهم لا يعقلون. يعنى : عنه، وعن عظيم قدره المبين عنه. ثم قال :

﴿يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ (البقرة ٧٥)، يعنى عقل البيان.

وآخرون لهم عقول الغرائز، لا يعقلون البيان، ولا عن المبين عنه بالفهم له، إلا أنهم يسمعون بلغة يعرفونها كلاما لا يعقلون معانيه بالفهم له كمشركى العرب، فقال :

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان ٤٤)، فلم يعقلوا ما قال الله عز وجل، لإعجابهم برأيهم، ولتقليدهم آبائهم وكبرائهم، وقد كانت لهم عقول غرائز يعقلون بها أمر دنياهم :

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم ٧).

قال : حدثنى عفان، قال : حدثنا صخر بن جوبريه عن الحسن، فى قوله تعالى : "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا" قال : لا جرم والله، لقد بلغ من علم أحدهم بدنياه، أنه يقلب الدرهم على ظفره، ويخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي"[١٩].

مستويات العقل عند المحاسبى :

ويمكن استنتاج ثلاث مستويات للعقل ذكرها المحاسبى وهى :

(١) مستوى عقل الغريزة :

وهو موجود فى كل الناس وهو العقل الذى يدبر للانسان وييسر له

الحصول على ضرورات حياته وعوامل بقائه : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم ٧).

وهذا هو العقل الذى يستخدمه الانسان فى العلوم الدنيوية والاختراعات وإقامة الحضارات المادية. فهو ملكة منحها الله لكل الناس بدرجات متفاوتة.

(٢) مستوى عقل البيان :

وهو مستوى أعلى من سابقه، وبه يدرك الانسان الحقائق الكونية ويعرف الصحيح والخطأ والنافع والضار ويعرف الدنيا والآخرة ويتوصل بالأدلة والبراهين الموجودة فى الكون الى حتمية وجود إله، ولكن مع هذا فإن هذا العقل عند هذا المستوى ليس بالضرورة مؤهلا للوصول الى درجة الايمان واليقين لانه تنقصه الجوانب الوجدانية والجوانب الروحية. قال تعالى فى وصف هؤلاء.

﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٤٦).

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام ١١٤).

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأحقاف ٢٦).

(٣) مستوى عقل الفهم عن الله :

وهذا هو أعلى مراتب العقل، فيه يدرك الانسان إدراكا أعمق، عظيم قدر الله وقدرته ووعده ووعيده، ويخشع له ويتوجه إليه. وهذه المرتبة من العقل هى مرتبة العقل المتصل بالقلب الواعى السليم، فهو يتلقى التوجيه والترشيد من ذلك القلب فيحسن الإدراك وقراءة الأدلة. ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦).

بل إن هذا المستوى يكاد يكون هو المستوى القلبى ذاته ولا يعدو العقل فيه كونه وسيلة من وسائل الإدراك القلبى الوجدانى الايماني، وهذا يتضح أيضا من كلام المحاسبى حين قال :

«فلما اتصل عقله بمشاهدة ذلك (يعنى آيات الله فى الملك والملكوت) حن واشتاق.. فلما حن واشتاق نطق قلبه، واشتغل قلبه»[٢٠].

فيبدو واضحا من الفقرة السابقة أن للعقل مستوى هـو المشـاهدة والإدراك المعرفي، ثم يأتى دور الادراك القلبـى الأعمـق حيـث ينطـق القلـب ويتوجـه وينفعـل للحقيقة.

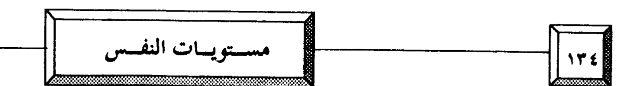
العقل لدى علماء الغرب :

لقد أخذ العلم الغربى منحى ماديا لا يؤمن إلا بكل شيء ملمـوس أو واقـع تحت التجربة. ومن هنا اختفت أو كادت أن تختفى كل المفاهيم والاصطلاحات التى لا يستطيعون اختبارها فى المعامل. ولقد سبق أن أشرنا فى فصـل "الوجـود البشـرى بين الثنائية والوحدة" الى تلك القضية والآراء المختلفة حولها.

وقد كانت هناك قلـة مـن العلمـاء الحقيقيـين ــ الذيـن لم ينجرفـوا مـع تيـار التبسيط العلمى الذى أعلن جزافا معرفتـه الكاملـة بأسـرار الانسـان ــ ومـن هـؤلاء ألكسيس كاريل، ونحن نلمح هذا فى قوله :

«نحن نتأمل كائنا معقدا قسمت وجوه نشاطه الى نشاط فسيولوجى وعقلـى بطريقة عرفية. بالطبع سيظل الانسـان يتحـدث عـن الـروح باعتبارهـا شـيئا ذاتيـا.. فالروح هى جانب نفسنا المحدد لطبيعتنا والـذى يميز الانسـان عـن جميـع الحيوانـات الأخرى. ونحن غير قادرين على تعريف هذه الذات المألوفة والشديدة الغموض.. ثم ما هو الفكر، ذلك الكائن العجيب الذى يعيش فى أعمـاق ذاتنـا دون أن يسـتهلك أى قدر قابل للقياس من النشاط الكيميائى ؟ هل يتصل بأشكال النشـاط المعروفـة ؟ هل يمكن أن يكـون منظم الكون وأنه، برغم تجاهل الأطباء له، أهم من الضوء قطعا؟ إن العقل مخبأ بداخل مادة حية يهمله الفسيولوجيون والاقتصاديون إهمالا تاما، كما لا يكاد الأطباء يلاحظونه.. ومع ذلك فإنه أعظم قوة فى هذا العالم.. فهل هـو نتـاج الخلايا العقلية مثلما ينتج البنكرياس الانسولين والكبدالصفراء ؟ ومن أية مواد يفـرز ؟ هل يأتى من مواد كانت موجودة سلفا، كما يأتى الجلوكـوز مـن الجليكوجـين، أو الفيبرين من الفيبرينوجين ؟ وهل يحتوى على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الـذى يدرسه الأطباء، ويعبر عن نفسه بقوانين أخرى، وتولده خلايا الغشاء المخـي، أم هـل يجب اعتباره كائنا غير مادى يوجد خارج الفراغ والزمن، خارج أبعاد العالم الكونى، ويدخل نفسه فى مخنا بطريقة مجهولة لنا»[٢١].

ونحن نشارك "كاريل" فى تساؤلاته، ونرفـض الاسـتنتاجات القاطعة بـدون أساس علمى يقينى، وإن كان هذا لا يمنع من الفروض التى تقوم على بعـض الحقـائق والملاحظات المتاحة فى هذه الفترة من عمر البشـرية وتطورهـا. فـلا نحـن مـع الذيـن



يجزمون بوجود الوظائف النفسية كاملة فى خلايا المخ، ولسنا فى نفس الوقت نجزم بوجودها فى تراكيب مستقلة خارج الجسد، وإنما نجمع الملاحظات المتاحة، ونفترض ما هو أقرب إلى الحقيقة حسب المعلومات المتاحة (قديما وحديثا).

وظائف العقل :

إن العقل هو المحطة المتوسطة لإدراك المعلومات القادمة عن طريق الحواس (مرورا بالمخ)، وهذه المعلومات تصل الى العقل فى صورة جزئيات فيقوم العقل بتجميعها وترتيبها وتنظيمها وتحليلها واستنتاج مغزاها، وهو فى هذه العمليات يستعين بالذاكرة والتفكير والتخيل. والإدراك العقلى إدراك مستعرض، بمعنى أنه يدرك لحظة بذاتها فى زمن بذاته (قطاع عرضى)، وهو إدراك فكرى مجرد من تأثير العواطف. وإذا كنا نقول بأن العقل هو المحطة المتوسطة للادراك فإننا نكمل الصورة بأن نقول ان الحواس والمخ هما المحطة الأولى للادراك وأن القلب هو المحطة الأخيرة. وإذا قلنا بأن الادراك العقلى إدراك مستعرض فإننا نكمل الصورة بأن نقول إن الإدراك القلبى هو الادراك الشامل ذات الأبعاد المتعددة، وهذا ما سيتضح أكثر حين نتحدث عن المستوى القلبى النفسي.

والآن لنستعرض بعض وظائف العقل كما وردت فى القرآن الكريم :

الوظائف الايجابية للعقل :

١- الملاحظة والتأمل والتفكر فى مظاهر الكون :

يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (المؤمنون ٨٠).

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء ٢٨).

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية ٥).

من هذه الآيات الكريمات نلاحظ :

أ- إن الله سبحانه وتعالى يسوق مظاهر كونية يراها ويحسها كل الناس على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم حتى لا يدعى أحد بأن هذه المظاهر فوق مستوى إدراكه.

ب- يوقظ الله فينا ملكة الادراك بذكر الشيء وضده مثل الليل والنهار، الشمس والقمر، الحياة والموت، السماوات والأرض ... الخ.. لأن الانسان ربما من كثرة تعوده رؤية هذه الآيات قد ألفها فلم تعد تثير انتباها حادا لديه، ولكن إذا أعمل الفكر فيها ورأى الشيء وضده فإن ذلك يحرك ملكة إدراكه وانتباهه. ليس هذا فقط، بل إن الآيات تعرض مظاهر الطبيعة فى صورة حركية توقظ الحس والانتباه، وكيف لا يستيقظ الحس والانتباه أمام حركة الليل والنهار والسماوات والأرض، والفلك التى تجرى فى البحر، والرياح، والسحاب، والموت والحياه، والإنبات من باطن الأرض .. الخ.

جـ- ثم تختتم الآيات بكلمة "يعقلون"، ويفهم منها اللوم والاستنكار لتعطيل ملكة العقل أمام كل هذه الظواهر الكونية المعجزة.

د- والدعوة الى التأمل فى الظواهر الكونية بالعقل دعوة إيمانية فى المقام الاول ليؤمن الانسان بخالق هذه الظواهر، ثم دعوة التفاعية فى المقام الثانى لينتفع الانسان بهذه الظواهر فى إقامة حياته وتحقيق عمارة الارض والخلافة فيها.

(٢) الملاحظة والتأمل والتفكر فى معجزة خلق الإنسان :

يقول تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر ٦٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (المؤمنون ٨٠).

إن خلق الانسان وتطوره يعتبر من أعظم معجزات الخلق، وهو ظاهرة جديرة بالتأمل. وإذا كانت عقول الفلاسفة والعلماء قد حارت وضلت فى فى هذه القضية الغيبية فإن القرآن يبسطها فى صورة حقائق ميسرة وموجزة ثم يدعو العقل أن يلاحظ ويتأمل ويتفكر. فالانسان الأول (آدم عليه السلام) خلق من تراب، ثم تزاوج هو وأبناؤه وأحفاده وجاءت الذرية عن طريق التناسل : نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنين ثم طفل ثم شاب ثم شيخ ثم تنتهى حياة الانسان بالموت.

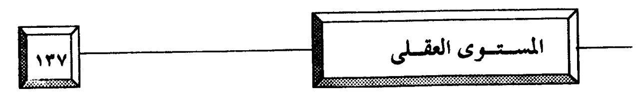
وإن كان خلق الانسان أمر معجز ومحير فإن موته أيضا يثير كثيرا من التساؤل. وبين ظاهرتي الحياة والموت لابد وأن يقف العقل مشدوها ومتسائلا، ولابد أن يعرف الاجابة حتى يعرف بدايته ونهايته ومصيره فلا يشقى أمام أسئلة بلا أجوبة أو يسمع أجوبة فلسفية تزيده حيرة واضطرابا فى قضية مصيرية لا تحتمل الترف الفلسفي.

(٣) أخذ العبرة من التاريخ :

والقرآن يعرض لقطات تاريخية أمام العقل ليأخذ منها العبرة فلا يكرر نفس أخطاء الأولين. يقول الله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨).

وقال تعالى :



﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء ٥٢-٦٧).

وهنا حوار عقلي حول قضية الإيمان والكفر، حيث يغتر النمروذ بملكه وقدرته على التصرف فيه فيواجهه ابراهيم بقدرة الله على الإحياء والإماتة فيدعى النمروذ أنه قادر على ذلك، ويختزل هذه القضية الهائلة فى قدرته على العفو عن

شخص كان محكوم عليه بالإعدام، وقدرته على قتل شخص آخر، فيعاجله ابراهيم بقضية تظهر ضعفه فى الحال وتوطيد أمامه طريق المناورة الكاذبة فيقول له : "إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب"، وهنا يظهر النمروذ على حقيقته بضعفه ومحدودية قدرته. إذن فقد حاوره ابراهيم بالحجة العقلية وبالطريقة التى يفهمها.

ثم يأتى حوار آخر بين ابراهيم وبين قومه الذين أعماهم تقليدهم لآبائهم فى قضية الإيمان، فهم نشأوا على عبادة الأصنام التى عبدها آباؤهم، وهم غير مستعدين لمناقشة هذا الأمر، فعمد ابراهيم الى طريقة تقنعهم بأن حطم أصنامهم كلها إلا كبيرهم. وحين سأله القوم إن كان قد فعل ذلك بآلهتهم، قال لهم : "بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون". وهو بهذه العبارة قد هز تبلدهم وأيقظ إدراكهم وحرك عقولهم الجامدة، حين كشف لهم عجز تلك الأصنام عن النطق فضلا عن عجزها عن الدفاع عن نفسها.

ومفهوم الأصنام يتغير من عصر الى عصر، فهى فى عصرنا هذا المادة التى عبدها الناس وعزوا إليها كل شيء، ولم يروا، ولا يريدون أن يروا غيرها، فهم يتعامون عن كل الآيات والظواهر الكونية التى تقول بأن هناك إلها خالقا ومسيطرا ومحاسبا.

(٤) إدراك نسبية القيمة بين الحياة الدنيا والآخرة :

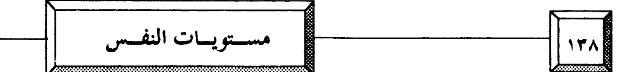
من أخطر ما يقع فيه الانسان هو عدم قدرته على إدراك النسبية الحقيقية بين الأشياء، فيصب كل اهتمامه على أشياء صغيرة لا تستحق كل هذا الاهتمام، وينسى قضايا أكبر وأخطر تستحق جل الاهتمام. والعقل المتفكر هو الذى يعيد إدراك نسبية الاشياء الى بعضها البعض.

يقول الله تعالى :

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام ٣٢).

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص ٦٠).

فإن إعمال العقل ضرورى فى هذه القضية المصيرية حتى لا ينخدع الانسان بزخرف هذه الدنيا القصيرة وينسى مصيره الخالد، وهو بهذا يكون كالطفل الذى يجذبه ضوء براق فيمسكه بيده فإذا هو نار تحرقه.



(٥) إدراك المعانى الخفية والنوايا :

والعقل ليس فقط لإدراك الأشياء الظاهرة، بل هـو قـادر أيضًا على إدراك المعانى الخفية. قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمـران ١١٨).

فالعقل هنا وسيلة تحذير من الانخداع بمظاهر النفاق والموالاة الكاذبة.

(٦) الاختيار والمسئولية :

والعقل هـو أداة الاختيـار بـين البدائـل المطروحـة، ولذلـك فالمسئولية عن الاختيار منوطة به، والاختيار هنا سوف ينبنى على رؤيـة عقليـة مجـردة للتفريـق بـين النافع والضار ومعرفة التكاليف الشرعية :

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم ٢٨).

وفى هذه الآية دحض لقضية الشرك، فالله يقول لمن يجعلون له شـركاء مـن خلقه، ما معناه؟، هل لو كان عند أحدكم عبد يملكه فهل يشـاركه هـذا العبـد فيمـا لديه، وهل يخاف السيد مـن عبـده ويهابـه.. إذن فـالعقل الآن موضـوع أمـام قضيـة التوحيد وقضية الشرك وعليه أن يختار بينهمـا بعـد ضـرب هـذا المثل بهـذا الشـكل المنطقي، وهو مسئول عن اختياره بعد هذا التوضيح.

ويقول تعالى :

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام ١٥١).

فذكر العقل هنا آخر الآية التى ورد فيهـا بيـان بعـض التكـاليف الشـرعية الاساسية، يعنى أن العقل يختار التكاليف الشرعية لعلمه بأنها صادرة من الله الخالق، ولعلمه أيضا بأنها متمشية مع مصلحة الدنيا والأخرة فى ذات الوقت.

ويقول تعالى :

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد ١٠).

فالعقل يرى كلا الطريقين وعليه أن يختار بينهما ويتحمل مسئولية هذا الاختيار.

الوظائف السلبية للعقل :

وكما أن العقل هو وسيلة الملاحظة والتأمل والتفكر فى مظاهر الكون وخلق الانسان، وهو الذى يختار بين البدائل المطروحة، رغم كل هذا فإنه كثيرا ما ينحرف عن وظيفته الايجابية هذه، فيشوه الحقائق ويحرف الكلمات عن مواضعها، وهو يفعل هذا اتباعا للهوى واستمراءا للباطل وطلبا للراحة واللذة العاجلة.

يقول تعالى :

﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٧٥).

فهنا تشويه متعمد للادراك لخدمة أهداف ذاتية عاجلة ومؤقتة، وهذا هو الضلال المبين.

وأحيانا يتعامى العقل عن آيات وأحداث واضحة يراها ويدركها الانسان ولا يعتبر بها. يقول تعالى :

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات ١٣٦-١٣٨).

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (يس ٦٢).

وأحيانا يستخدم الإنسان عقله للخداع والتمويه.

يقول تعالى :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ٧٦).

أو يستخدم العقل فى اختلاق بدع وأكاذيب وافتراءات.

وفى هؤلاء يقول تعالى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة ١٠٣).

والعقل فى وظائفه الايجابية أو السلبية لا يعمل منفصلا تماما، وإنما يعمل بتوجيه من القلب، فالعقل فى حد ذاته قوة كامنة، وإنما الذى يوقظه وينبهه ويحركه هو القلب، وهذا هو السر فى التداخل بين استخدام لفظ العقل والقلب.

العقل والإطار المرجعي :

يبدو العقل من تعريفاته المختلفة أنه قدرة كامنة على الادراك والتمييز والتحليل وحل المشكلات بشكل منطقى. والعقل شيء فطرى يوجد مع الانسان وينمو بالخبرات والتجارب. والعقل لكى يعمل بصورة صحيحة يجب أن يكون مخزونا فيه دستورا للعمل، أو إطارا مرجعيا يقيس عليه ما يعرض له من مشكلات. والعقل الفطرى أشبه ما يكون بآلة الكومبيوتر (مع الفارق)، والإطار المرجعى (أو الدستور) أشبه بالبرنامج الذى يوضع فى الكومبيوتر. والدين الصحيح بما يحويه من نظام كامل للتوحيد والعبادة والأخلاق والمعاملات هو بمثابة إطار مرجعى يغذى به العقل لكى يعمل بصورة صحية.

فالعقل وحده يضل، والشريعة تهديه، ولابد للقائهما واتفاقهما من أن تكون الشريعة متفقة مع روح العدالة والإخاء الانسانى ومحققة للسعادة النفسية لدى البشر، وهذا هو دور الدين الذى ينظر الى الناس جميعا على أنهم خلق الله وعباده، وأنهم على هذا الأساس متساوون أمامه فى الحقوق والواجبات.. إن العقل يمكنه أن يكتشف الحقيقة، ولكنه لا يكون ملزما بها إلا إذا توجه ضميره الباطن الى مثل أعلى يشعره بوجوب احترام الشرائع والقوانين، وذلك هو الدين"[٢٢].

حدود العقل :

على الرغم من ان كثيرين مجدوا العقل ـ بل إن بعضهم جعله فى مصاف الآلهة ـ فإن هذا العقل وحده محدود الوظيفة (رغم أهميته الكبيرة) ما لم يتحد مع المستويات الأخرى.

يقول ألكسيس كاريل :

«ويكاد الذكاء يكون عديم الجدوى لمن لا يملكون شيئا آخر عداه؟، لأن الشخص الذكى البحت انسان غير كامل. إنه ليس سعيدا لأنه غير قادر على ولوج العالم الذى يفهمه. إذ أن القدرة على فهم العلاقات الموجودة بين الظواهر تظل عقيمة ما لم تتحد مع ألوان أخرى من النشاط، مثل الاحساس الأدبى والعاطفى وقوة الإرادة وأصالة الحكم والخيال وبعض القوة العضوية. ويمكن فقط استخدامها ببذل الجهد. ولهذا يجب على من يرغبون فى الظفر بالمعرفة الحقيقية أن يحتملوا

الإعداد التأويل الشاق. عليهم أن يستسلموا الى لون من التقشف. إن العقل يصبح غير منتج إذا لم يوجد التركيز. فإذا ما نظم العقل فإنه يصبح قادرا على تعقب الحقيقة.. ولكنه يحتاج الى مساعدة الإحساس الأدبي حتى يستطيع بلوغ هدفه.. وإن ألوان النشاط العاطفى ضرورة لا غنى عنها لتقدم العقل.. وينمو التفكير بداخل أولئك القادرين على الحب والبغضاء فقط»[٢٣].

إذن فالعقل كيان مهم للغاية ولكنه لا يحقق هذه الأهمية إلا بارتباطه بتكوين عضوى جسدى صحيح، وارتباطه الأهم بالمستويات الأعلى (القلب والروح)، فالمستوى العضوى يمنح العقل الغذاء المادى اللازم لنشاطه، والمستوى القلبى والروحى يمنحان العقل الطاقة العاطفية المحركة والموجهة والمحفزة والطاقة الروحية التى تسمو به الى الأهداف النبيلة والأعمال الصالحة.

يقول أكسيس كاريل :

«وإن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفى أو الجمالى أو الدينى يخلق أشخاصا فى المرتبة الدنيا، ذوى عقول ضيقة غير صحيحة.. فأكثر الناس تمدينا يظهرون شكلا ابتدائيا فقط من الشعور. إنهم قادرون على العمل السهل الذى يؤمن حياة الفرد فى المجتمع العصرى.. إنهم ينتجون، ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية. وهم أيضا يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية والأفلام السينمائية الصبيانية الخشنة، كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان الى آخر دون بذل أى جهد، وحينما يتطلعون إلى الأشياء سريعة الحركة.. إنهم ناعمون، عاطفيون، شهوانيون، قساه، مجردون من الاحساس الأدبي، والدينى والشعور بالجمال...»[٢٤].

العقل ومنهج التفكير فى الإسلام :

إن العقل هو أداة تحصيل العلم، والعلم هو شرف العقل وشرف الانسان.

«ولكن هناك ما هو أهم من العلم فى الحقيقة، وهو منهج التفكير. لأنه هو الذى يولد العلم والثقافة وطريقة النظر فى الأمور. ويقول المنصفون من أهل الغرب - وما أقلهم - إن أهم ما تعلمته. أوروبا من المسلمين فى بدء نهضتها هو المنهج التجريبى فى البحث العلمي، الذى بنت عليه أوروبا كل تقدمها العلمى فيما بعد. والمنهج التجريبى فى البحث العلمى هو بلا ريب نتاج الإسلام والتوجيه الاسلامى للعقل البشرى. فقد كان المنهج - قبل المسلمين - هو منهج اليونان العقلى الفلسفي، الذى يكتفى بالإثبات العقلى وحده، ويعتبر القضية صحيحة إن صحت فى الذهن، بصرف النظر عن موضعها من الواقع . فجاء الإسلام بتوجيهاته وتطبيقاته فحول

العلم الى مجراه التجريبي الواقعي. ثم إن للإسلام منهجا للنظر في الأمور، هو المنهج العقلي المتجرد من الهوى وشهوة النفس، المنضبط في الوقت ذاته بالوحي»[٢٥].

فالإسلام يحترم مرحلة التفكير العقلي المتجرد من الهوى والانفعال، وهذه منهجية ضرورية للبعد عن الشطط وللوصول الى أكبر قدر من الموضوعية، ويظهر الالتزام بهذه المنهجية حتى في القضايا الايمانية حيث تدلل الآيات القرآنية حتى على وجود الله بعظمة مخلوقاته التي تراها الأعين وتسمعها الآذان وتلمسها الأيدي ثم يأتي بعد هذه المرحلة من التفكير الموضوعي المتجرد مرحلة الاعتقاد الايماني القلبي فتصبح القضية الايمانية أكثر رسوخا واطمئنانا.

وقصر منهج التفكير على العقل المجرد وحده دون ضبطه بمعطيات الوحي الإلهي الذي يضع الإطار لنشاطه يجعل العقل يدور في مدارات فلسفية أو شبه فلسفية مغلقة لا تثمر حركة إيجابية في عمارة الكون. وأيضا قصر منهج التفكير على العواطف القلبية دون ضبطها بموضوعية العقل يجعل هذا التفكير متقلبا بتقلب تلك العواطف من لحظة لأخرى. وتلك هي أزمة منهج التفكير المعاصر الذي يميل ميلا متطرفا إما الى العقل المجرد وإما الى العواطف والحماسات الطاغية فيضيع التوازن في الحالتين.

والعقل يجب أن لا يتجاوز حدود طاقاته ولا أن يتضخم بالباطل حتى يصير إلها يعبد ولا يتبع الظن ولا يقفز الى استنتاجات بدون دليل :

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٦).

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون ٧١).

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم ٢٨).

يقول الاستاذ / محمد قطب :

".. فللإسلام أولا منهجه للنظر العقلي :

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا.. ﴾ (سبأ ٤٦).

فالتفكر، وإعمال العقل، وعدم اقتضاء مالا دليل عليه، والشعور بالمسئولية عن كل كلمة ينطق بها الانسان وكل فكر يرد في ذهنه أن يمحصه ويقيمه على

أسس سليمة، كل ذلك يجعل التفكير أدنى الى السلامة وأبعد عن الشطط.
ثم هناك التجرد الواجب فى هذا الشأن :
"أن تقوموا لله .. ثم تتفكروا ..".
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفسَ عَنِ الْهَوَى..﴾ (النازعات ٤٠).
﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا..﴾ (النساء ١٣٥).
﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان ٤٣).
ومقتضى ذلك هو النظر الى الحقيقة فى ذاتها، بحسب ما تهدى إليه الأدلة، دون تأثر بالهوى الذى يضل دائما عن الحق. كذلك لا ينبغى التقليد بغير بينه، واعتماد أقوال مسبقة للآخرين ليس عليها برهان :
﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٧٠).
ولا اتباع الظن :
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (النجم ٢٣).
هذا من جهة.. ومن جهة أخرى يدعو الإسلام الى النظر فى الغاية المقصودة من كل أمر، لكى يكون التفكير مثمرا، ولا يكون سفسطة فارغة، ولا تأملا مبددا فى الهواء" [٢٦].

ولاشك أن العقل ملكة جبارة منحها الله للإنسان، ولكن هذه الملكة تحتاج الى الاستخدام بطريقة صحيحة حتى تؤدى وظيفتها بالشكل الصحيح وفى حدود مجالها المتاح لها.

«والإسلام يبدأ التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي، فيصون الطاقة العقلية أن تتبدد وراء الغيبيات التى لا سبيل للعقل البشرى أن يحكم فيها وهو يعطى الانسان نصيبه من هذه الغيبيات، بالقدر الذى يلبى ميله للمجهول. ولكنه يكل أمر ذلك الى الروح، فهى القادرة على ذلك المزودة بوسائل الوصول. أما العقل فوسيلته الى الله وإلى معرفة الحق، هى تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل، ومن ثم يحدد الإسلام مجاله بهذا النطاق، ولا يتركه يغرق فى التيه الذى غرقت فيه الفلسفة من قبل واللاهوتيات، فلم تصل الى شيء حقيقى يستحق ما بذل فيها من جهد، إن لم تكن قد غبشت مرآة الفكر البشرى، وشتتت ما ينعكس عليها من أضواء» [٢٧][*].

[*] انظر حقيقة العقل ووظيفته (شرح الطحاوية) (دكتور / صالح اللحيدان).

الفصل الثامن

المستوى القلب

المستوى القلبى

تعريف القلب :

هناك تباين كبير حول لفظ ومفهوم القلب، فبعض الناس لا يعنى القلب عندهم سوى ذلك العضو القابع فى تجويف الصدر والذى يضخ الدم فى الشرايين، وبعضهم يقصد بالقلب تلك اللطيفة التى يعزى إليها النواحى الوجدانية والإيمانية، والبعض الآخر يرى أن القلب هو وحدة العمليات المركزية فى النفس (Central Processing Unit)، فما هى الحقيقة بين هذه الرؤى والمفاهيم ؟

يقول الغزالى :

"يطلق لفظ القلب لمعنيين :

١- أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفي ته، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية. وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت.

٢- والمعنى الثانى : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق، وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان، وهو المدرك العالم العارف من الانسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب. ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة"[1].

مكان القلب :

وكما ذكرنا فإن هناك قلبا عضويا (وهو الموجود فى الناحية اليسرى من تجويف الصدر)، وهناك قلبا معنويا هو الذى نتحدث عنه فى بحثنا هذا. وهناك علاقة ارتباط مكانى بين القلب العضوى والقلب المعنوى يؤيدها الأدلة التالية من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال علماء المسلمين والممارسة الطبية النفسية.

(١) القرآن الكريم :

يقول الله تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦).

فهذه الآية الكريمة تؤكد وجود القلب المعنوى فى الصدر، وبذلك تؤكد ارتباط القلب المعنوى بالقلب العضوى من ناحية وجود الاثنين فى الصدر[*] .

والقرآن الكريم فى كثير من المواضع يستخدم تعبير الصدر أو الصدور فى الحديث عن وظائف قلبية، وهذا أيضا يؤكد وجود القلب المعنوى فى الصدر. ونعطى هنا أمثلة لبعض الآيات التى تؤكد ذلك :

يقول تعالى :

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر ١٩).

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران ١١٨).

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ (الحشر ١٣).

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (الناس ٥).

(٢) السنة النبوية :

عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألت عنه، فقال لى : "أدن يا وابصة"، فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبته، فقال لى : "يا وابصة"، أخبرك عما جئت تسأل عنه"، قلت : يا رسول الله اخبرني. قال : "جئت تسأل عن البر والإثم ؟". قلت : نعم، فجمع أصابعه الثلاث، فجعل ينكت بها فى صدرى، ويقول : "يا وابصة، أستفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى القلب، وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك"[٢].

وفى حديث آخر يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«ألا وإن فى الجسد مضغه إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[٣].

فالحديث الأول فيه دلالة صريحة على مكان القلب حيث نكت الرسول صلى الله عليه وسلم بأصابعه فى صدر وابصة بن معبد وهو يحدثه عن القلب. أما الحديث الثانى فهو يؤكد ارتباط القلب المعنوى بالقلب الجسمانى حيث إن استخدام كلمة مضغه وإضافتها للجسد تدل على العضوية وهذا لا يعنى أن القلب العضوى هو الذى يقوم بالوظائف المعنوية التى نعنيها حين نتحدث عن القلب، وإنما هو مجاز

---

[*] انظر تفسير ابن كثير وتفسير ابن سعدى (دكتور / صالح اللحيدان).

لغوى حيث يعبر عن الكل (القلب المعنوى بوظائفه الهائلة) بالجزء (القلب العضوى)، وهناك ارتباط بينهما لا يعرف كنهه حتى الآن، ولكن لا يستطيع أحد إنكاره بعد ثبوته بالآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة.

(٣) أقوال علماء المسلمين :

يقول الترمذى :

«ولكن الصدر فى القلب هو فى المقام من القلب بمنزلة بياض العين من العين، وأما القلب فهو المقام الثانى فيه، وهو داخل الصدر، وهو كسواد العين الذى هو فى داخل العين.. فالقلب هو الأصل والصدر هو الفرع، وإنما يتأكد بالأصل الفرع»(٤).

ويقول الشيخ محمد على الجوزو :

«استعمل لفظ الصدر مكان لفظ القلب من باب الاستعارة المحلية، إذ أن الصدر هو محل القلب»(٥).

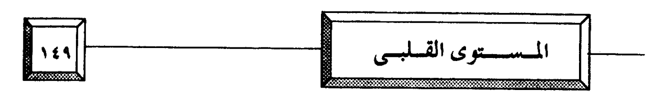
(٤) الممارسة الطبية النفسية :

وفى ممارستى لمهنة الطب النفسى أجد المرضى وهم يعبرون عن كثير من المعانى والأحاسيس يشيرون ناحية الصدر فمثلا يقول المريض :

"أشعر بضيق فى صدري".
"أشعر بكتمة فى صدري".
"أشعر بحقد شديد فى قلبي" (ويشير ناحية الصدر).
"أشعر بوساوس فى صدري".
"أشعر بخوف فى قلبي".
"أشعر بحزن فى قلبي".

أما بالنسبة للناحية الفسيولوجية النفسية فإن القلب العضوى يعد من أسرع الأعضاء استجابة للاحداث فعند الخوف أو الفرح الشديد تزداد ضرباته، وعند الحزن الشديد تبطئ ضرباته، ويشعر المريض بهذه التغيرات ويشعر بالانفعال ذاته وكأنه صادر من مكان قلبه العضوى أو على الأقل من صدره.

كل هذه الأدلة وهذه الملاحظات تستدعى البحث والتأمل فى موضوع القلب العضوى والقلب المعنوى وعلاقاتهما. وأنا أعتقد أن الكشف عن الغموض فى هذه المنطقة سوف يفيد علم النفس والطب النفسى كثيرا فى المستقبل، فإن كثرة ذكر القلب فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية ليس عبثا، ثم إن الملاحظات



السريرية (الإكلينيكية) التى يبديها المرضى بألفاظهم فى تعبيرهم عن انفعالاتهم ليست هراءا، بل تستحق التوقف والتأمل. ونحن نتساءل : لماذا أغفل علم النفس مفهوم القلب، وأغفل احتمال توضع وحدة العمليات المركزية النفسية حول القلب العضوى أو فى الصدر ؟ وهذا سوف يقودنا الى مجالات بحث أخرى، وذلك بعمل دراسات نفسية طولية للحالات التى يتم فى ها عمليات لنقل القلب، وسوف تكون الاحتمالات المتوقعة كالتالى :

١-أن يكون هناك تغيرا جوهريا فى الصفات النفسية (وخاصة الوجدانية) للشخص الذى تمت له عملية نقل قلب شخص آخر. وفى هذه الحالة نستطيع القول بأن هناك ارتباطا وظيفى ا بين القلب المعنوى والقلب العضوى.

٢-أن لا يكون هناك تغيرا جوهريا فى الصفات النفسية (وخاصة الوجدانية) للشخص، وفى هذه الحالة تصبح العلاقة بين القلب المعنوى والقلب العضوى علاقة مكانية فقط. وهذا يعنى أن القلب المعنوى ربما يكون طاقة حرة تتوضع حول القلب العضوى فقط ولا تنتقل بانتقاله.. وهذا هو الاحتمال الأقوى.

وهذا يقودنا الى افتراض مهم، ولكنه مازال افتراضا نظريا حتى الآن، وهو : ماذا يحدث لو تطور علم جراحة المخ بحيث يمكن عمليا نقل مخ (Brain) من شخص لآخر ؟ والاحتمالات القائمة هى :

١-أن تتغير الصفات العقلية للشخص، وهذا يعنى ارتباط الوظائف العقلية بالمخ العضوى. وهذا الارتباط يمكن أن يكون ارتباط إنشاء للوظائف العقلية (أى أنها تنشأ فعلا فى المخ) أو ارتباط وساطه (أى أن المخ يقوم بدور وسيط هام للوظائف العقلية).

٢-أن لا تتغير الصفات العقلية للشخص، وهذا هو الأرجح (فى نظرى)، وهذا يعنى أن الوظائف العقلية عمليات معقدة تتم فى مكان آخر يتوضع حول المخ ولكنه ليس فى المخ ذاته. وهذا الرأى ينادى به الدكتور / راتب عبد الوهاب السمان فى كتابه "النظرية الروحية".

الإثبات العلمى لوظائف القلب النفسية :

«أمكن الاثبات العلمى للمقولة القديمة أن القلب مكان العواطف والانفعال حيث تمكن ماير (Mayer) عن طريق تسجيل معدل ضربات القلب خلال مدة طويلةبيان أن فى القلب نوع من الطبعة عن الحالة النفسية الذاتية، وزعم أنه يستطيع التعرف على الشخص من غيره عن طريق قراءة عدد ضربات القلب

الطفلية. وهناك ما يسمى بالعصاب القلبي، وهو يتصف بخفقان وميل للهبوط، وانقباض وألم صدرى وتعرق ودوخة ووهط عضلى وجسمى (الشعور بالموت القريب)، وهذا المرض تعبير عن حالة قلق خفى ، ولكن ثابت ومستقر، مع تشاؤم وميل للشعور بالدونية، وغالبا ما يثير الهجمة المرضية فقد عزيز سواء كان شيئا أو شخصا كان يمكن الاعتماد عليه»[٦].

وقد وجد أنه أثناء الانتباه الداخلى يحدث تسرع القلب وارتفاع الضغط بسبب تركيز الانتباه على التفكير الداخلى Mental Concentration وثبت لدى Lacy & Lacy 1974 ولدى Elliot 1974 بأن السبب هو تنبهات واردة من الأحشاء تتوسط الحوادث السلوكية Visceral Afferents As Mediators of Behavioral Events وأن تحويل الانتباه نحو المحيط يترافق بنقص بسيط فى الضغط وسرعة القلب، وقد افترض Lacy & Lacy أن التغيرات الانتباهية تؤثر أولا على الوظيفة القلبية (على ضغط الدم فى الانتباه وتركيز الذهن الداخلي)، وهذا يؤدى الى زيادة الإفراغات Firing فى الأعصاب الحشوية فى المستقبلات الضغطية فى الأذينات القلبية أو قوس الأبهر. وهذه التنبيهات تؤدى الى تثبيط عصبى مركزى منتشر (النص الحرفى كما جاء) :

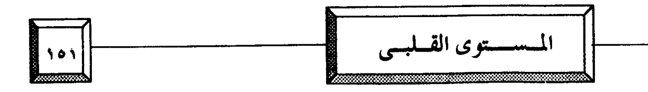
Lacy and Lacy postulated that attentional changes first affect cardiac function, the rise in blood pressure (in the case of internal attention) increase firing in the visceral afferent from activated baroreceptors in the atrial sinus and/or the aortic arch, producing widespread C.N.S inbiabition[7].

«وهنا أعلق (على ما سبق) بما يلى :

إن الانتباه الداخلى يبدأ حول القلب ثم تحدث تنبهات عصبية تتجه نحو الدماغ تثبطه عن استقبال أحاسيس خارجية تشغل الانتباه عن التفكير الداخلي، وهذا يعنى أن الانتباه الداخلى (روحيا) يقع حول القلب. والملاحظ أن المقصود بكلمة انتباه هنا (Attention) هو إدراك ما يدور فى ساحة الوعى لمعلومات قادمة من الداخل/ وهذا يبين مبدئيا أن الإدراك يقع حول القلب (التامور والشغاف)»[٨].

وتوجد علاقة توافقية بين شدة مرض شرايين القلب الإكليلية CAD

ونوع الكلام وطريقته لدى الشخص، حيث إن علو الصوت والكلام العفوى التلقائى يتوافق مع العدائية الكامنة، وكذلك فإن سرعة الكلام تتماشى مع سرعة ضربات القلب، وكذلك فإن علو الصوت يتماشى مع التفاعلية القلبية الوعائية (Vascular Reactivity)[٩].



وإن المرض الاكليلى Coronary Disease هو بسبب عوامل خطر Risk Factors تتجمع مثل السكرى والضغط والشحوم والكولسترول والتدخين، ولكن نوبة الألم أو ظهور المرض لابد له من عوامل نفسية حادة هى : الشخص يرغب أو يطلب منه عمل تام أو متقن، ويطلب منه التقرب من الكمال فى حياته من قبل من حوله ومجتمعة، وتحدث الجلطة أو نوبة المرض عند الفشل الذريع أو الرهيب المفاجئ فهو تعبير عن الفشل وعدم الرضا والإحباط وضياع التعب والأمل، فهو فقد الأمل الكامل وعدم الرضا[١٠].

وكذلك ما ذكر من ترافق الشخصية من نوع : Type A personality ، وهى الشخصية التى تتصف بالمنافسة Competitive والعدائية Aggresivity والطموح Ambition - ترافقها بزيادة الوفى ات مع إصابة شرايين قلبية[١١].

كل هذه الملاحظات السابقة تدل على وجود علاقة وثيقة بين المظاهر النفسية وبين القلب العضوى فى الصحة والمرض، وهذه العلاقة يمكن تفسيرها بشيئين :

١- استجابة القلب للمنبهات القادمة عبر الجهاز السمبثاوى والباراسمبثاوى (Sympathetic and Parasympathetic) .

٢- ارتباط القلب العضوى المحسوس بالكيان غير المحسوس، والذى يسمى أيضا القلب، ويعتبر مركزا هاما للنشاط النفسى رغم عدم معرفة طبيعة تكوينه (يفترض أنه طاقة ذات تركيب خاص)، إلا أن ذكره فى الكتب السماوية وتداوله على لسان البشر على مر التاريخ، وإشارة المرضى إليه فى شكواهم يجعل من الصعب تجاهله (كما هو الحال فى علم النفس الحديث).

مستويات القلب :

اتفق كثير من علماء المسلمين على أن القلوب ثلاثة أقسام (مستويات) :

١-القلب الميت.

٢-القلب المريض.

٣-القلب السليم.

ويتضح هذا من الآتية الكريمة :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ❁ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم



مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج ٥٢-٥٤).

يقول ابن القيم :

«والقلب وغيره من الاعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به، يتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله،وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته، وعدم التأنى لما يراد منه، كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد، فلذلك انقسمت القلوب الى هذه الأقسام الثلاثة :

فالقلب الصحيح السليم : ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الادراك للحق، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسى : لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم"[١٢].

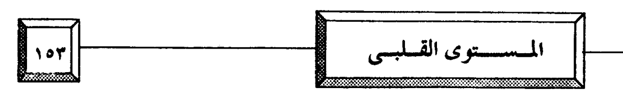
القلب هو المحرك والموجه للجوارح :

«إن شرف الانسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التى هى فى الدنيا جماله وكماله وفخره، وفى الآخرة عدته وذخره، وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله. وهو المتقرب الى الله؛ وهو العامل لله، وهو الساعى الى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة. فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فى فلح إذا زكاه، وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه»[١٣][*] .

فالقلب إذن هو مركز العلم ومركز الوعى والارادة والتوجيه والمسئولية، وهو يستخدم الحواس والجوارح كوسائل استقبال وإرسال تساعده على أداء مهمته.

---

[*] جاء فى صحيح مسلم "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم"، فالقلب وحده لا يكفى بل لابد من صلاح العلم (دكتور / صالح اللحيدان).



جنود القلب :

وإذا كانت الحواس والجوارح هي الوسائل والأدوات الظاهرة التي يستخدمها القلب في الاستقبال والارسال، فإن للقلب أيضا جنود آخرين يمكن أن نطلق عليهم الجنود السريين أو الداخليين، وهم :

١-الغضب (العدوان).

٣-الشهوة.

٣-العلم والحكمة.

ويصور الغزالي نشاطات جنود القلب بقوله :

"فجملة جنود القلب ثلاثة أصناف :

١-صنف باعث ومستحق : إما الى جلب النافع الموافق كالشهوة، وإما الى دفع الضار المنافي كالغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالارادة.

٢-المحرك للاعضاء الى تحصيل هذه المقاصد، ويعبر عنه بالقدرة : وهى جنود مبثوثة في سائر الاعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار.

٣-المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس : وهى قدرة البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وهى مبثوثة في أعضاء معينة، ويعبر عن هذا بالعلم والادراك.

ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود، فإن قوة البطش إنما هى بالأصابع، وقوة البصر إنما هى بالعين، وكذا سائر القوى"[١٤].

وربما يحسن أن نعيد ترتيب جنود القلب (التى أوردها الغزالي) حسب ترتيب عملها كالتالي :

١-الإدراك.

٢-الارادة.

٣-القدرة.

التوازن بين جنود القلب :

إن غرائز الغضب والشهوة والعلم والحكمة التى ذكرناها موجودة في كل انسان، وإن الذى يحدد صحة الانسان النفسية من مرضه هو التوازن بين تلك الغرائز الفطرية.

ويؤكد الغزالي على ذلك التوازن بقوله :

«أعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان انقيادا تاما، في عينه (أى

القلب) ذلك على طريقه الذى يسلكه وتحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده، وقد يستعصيان عليه استعصاء بعى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه، وفى ه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذى وصوله الى سعادة الأبد. وللقلب جند آخر : وهو العلم والحكمة والتفكر، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجنديين الآخرين، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان. فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا، وذلك حالة أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة، وكان ينبغى أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فى ما يفتقر العقل إليه»(١٥).

وفى الحقيقة فإن الحيوان يشارك الانسان فى وجود غريزتى الشهوة والغضب وفى وجود الحواس المستقبلة والجوارح المنفذة. وإنما يتميز الانسان على الحيوان بقوة العلم والارادة، لذلك فكلما كان الانسان جاهلا أو ضعيف الارادة اقترب من مراتب الحيوان.

تركيبة الانسان :

ثم يوضح الغزالى تركيبة الانسان بقوله :

«أعلم أن الانسان قد اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب/ فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهى :

١-الصفات السبعية.

٢-والبهيمية.

٣-والشيطانية.

٤-والربانية.

فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره. ومن حيث إنه فى نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى : "قل الروح من أمر ربي" فإنه يدعى لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاستعلاء، والتخصص، والاستبداد بالأمور كلها، والتفرد بالرياسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها، بل يدعى لنفسه العلم، والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب الى العلم، ويحزن إذا نسب الى الجهل. والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية، فى الانسان حرص على ذلك. ومن حيث يختص

من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرًا يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر فى معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين»(١٦).

ديناميكية نفس الإنسان فى نظر الغزالى :

ويصور الغزالى التفاعل بين تلك القوى المختلفة من قوى (غرائز) القلب بقوله :

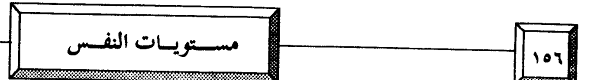
«وكل انسان فى هشوب من هذه الأصول الأربعة — أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية - وكل ذلك مجموع فى القلب. فكأن المجموع فى إهاب الإنسان : خنزير وكلب وشيطان وحكيم.

فالخنزير هو الشهوة، فإنه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وحرصه.

والكلب هو الغضب، فإن السبع الضارى والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر، وفى باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه. فالخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر، والسبع بالغضب الى الظلم والإيذاء.

والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه. والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح، وأنيكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فى كون دائما فى عبادة كلب وخنزير»(١٧).

وربما ينظر بعض علماء النفس المعاصرين الى قوة "الحكيم" هنا على أنها تمثل قوة "الأنا" (Ego) ، فإن بينهما بعض التشابه من حيث السيطرة على الغرائز وتحقيق التوازن بين الدوافع والبيئة، ولكن "الحكيم" هنا ليس محكوما بمتطلبات وقوانين البيئة فقط، بل إنه محكوم بقانون إلهى مستمد من الدين، وهو يعارض متطلبات البيئة فى سبيل تحقيق هذا القانون الإلهي، فهو إذن ليس سائرا فى نفس اتجاه متطلبات البيئة والمجتمع طول الوقت، بل إن له إطارا مرجعيا يستنبط منه خط سيره، فإذا وافق ذلك



خط سير المجتمع كان حسنا، وإن لم يوافق، فإنه يتبع إطاره المرجعى الإلهى ويصحح خط سير مجتمعه إن استطاع ذلك.

وهذا المفهوم لـ"الحكيم" أفضل من مفهوم "الأنا" فهو يحمل كل مزاياه ويزيد عليها التحرر من العبودية للرأى العام والاتجاهات العامة التى ربما تكون خاطئة، بل هى فى كثير من الاحيان خاطئة.

وديناميكية قوى القلب بهذا التصور تجعل من الممكن تغيير نمط تفكير وانفعال وسلوك الانسان بطريقة إرادية، إذا تمت زيادة بصيرته بالعلم (الذى يكتسبه بنفسه أو يتعلمه خلال عملية التربية أو العلاج النفسي)، وتم توجيهه بشكل منظم.

صفات الانسان الظاهرة المترتبة على بواعثه القلبية :

ويحدد الغزالى الصفات النفسية الظاهرة التى تترتب على طغيان نوع أو أنواع من هذه الغرائز القلبية :

«أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها.

وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها الى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها.

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فى حصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها.

ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية : لاستقر فى القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هى عليه، والاستيلاء(*) على الكل بقوة العلم والبصيرة، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب، ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده الى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ويحصل فى ه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها الى

(*) هذا مما أنكره العلماء على الغزالى فليس من صفات الربانية الاستيلاء (دكتور / صالح اللحيدان).

حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها»[١٨].

ونلحظ أن الجانب الإيمانى والأخلاقى واضحا فى الصفات التى يستعرضها الغزالى فى نفس الانسان، وهذا الجانب يفتقر إليه كثيرا علم النفس الحديث، ويعتبر هذا من أوجه قصوره التى جعلته مغتربا عن الحياة الفاضلة للإنسان.

محركات (ديناميات) الشخصية بين علم النفس الغربى وعلم النفس الإسلامى:

ولنستعرض الآن بعض ديناميات الشخصية فى مفهوم علم النفس الغربى للتحليل والمقارنة بالمفاهيم الاسلامية.

(١) نموذج خفض التوتر :

«إن المبدأ الأساسى لهذا الموقف يتلخص فى أن كل سلوك (سواء فى الإنسان أو الحيوانات دون البشرية) يمكن أن يفهم باعتباره جهدا يهدف الى خفض التوتر.. فليس البقاء وحده هو الأمر الهام، بل وأيضا تحقيق حالة مثلى من التوازن فى البيئة الداخلية للانسان. ويمكن أن يتحقق هذا بواسطة الأنشطة التكيفية التى تمنع الجوع والعطش والانخفاض المتزايد لدرجة حرارة الجسم، الخ. وقد شجعت مثل هذه النظرة العالم الفسيولوجى الشهير كلود برنارد **Claude Bernard** الذى كان معاصرا لداروين، والذى قام بالعمل الرائد عن مفهوم "الاتزان الحيوي" (**Homeostasis**) أعنى حفظ التوازن فى البيئة الداخلية. فالأنشطة التكيفية للإنسان قد تسهم فى الاتزان الحيوى لأن سلوكه يحكمه مبدأ خفض التوتر»[١٩].

وإن مبدأ خفض التوتر لا أحد ينكره فالانسان حين يجوع يحس بالتوتر فى سعى الى الأكل فى خف توتره حين يشبع، وحين يعطش يحدث نفس الشىء، وحين تثور عليه شهوة الجنس كذلك. ولكن نموذج خفض التوتر كدافع، يعتبر عاملا مشتركا بين الانسان والحيوان، ولا تبرز من خلاله ميزة الانسان على الحيوان. وأن الانسان يختلف عن الحيوان فى هذه الناحية فى نقطتين هامتين لم يطرحهما علماء النفس :

١- إن المؤثرات التى تؤدى الى التوتر، وأيضا الاستجابات التى تؤدى الى خفض التوتر تختلف باختلاف تصورات الانسان ومعتقداته. فمثلا إذا كان الجوع يؤدى الى التوتر فى الانسان والحيوان، فإننا نجده فى الانسان أحيانا ما يؤدى الى خفض التوتر وذلك فى الصيام الذى يمارسه المؤمنون (الحقيقيون) إرضاءا لله.

وإذا كان إشباع الجنس يؤدى الى خفض التوتر فى الانسان والحيوان فإنه أحيانا ما يجلب مزيدا من التوتر إذا تم هذا الإشباع بطريق غير مشروع وأعقبه شعور عميق بالذنب يجعل الانسان فى حالة شديدة من التوتر بحيث يصبح الموت عنده أكثر راحة من حياته.

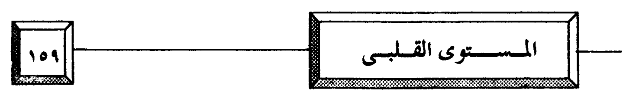
٢- إن علماء الفسيولوجيا اكتشفوا مفهوم "التوازن الحيوى" (Homeostasis)، وسار على نهجهم علماء النفس فى أن هذا التوازن يتحقق بسد احتياجات الانسان المادية (مأكل، مشرب، ملبس، جنس) واحتياجاته الاجتماعية وأغفلوا حاجة ملحة فى نفس الانسان وهى الحاجة الى العقيدة (الجوع العقيدي)، ولا يمكن تصور تحقيق التوازن الداخلى دون إشباع هذه الحاجة بشكل صحيح. والدليل على قوة هذه الحاجة هو محاولات البشر فى العصور القديمة والحديثة البحث عن إله (أو آلهة) يعبدونه، بل إنه فى بعض العصور كان الواحد منهم يذبح ابنه تقربا للآلهة، فأى دافع أقوى من هذا الدافع ؟ .. إننا لم نسمع أن هناك أب يذبح ابنه من أجل شهوة الطعام أو الشراب أو الجنس، ولكنه يذبحه راضيا (كما ورد فى الآثار الدينية والتاريخية) تقربا للإله (أو الآلهة التى يعتقدها). ولولا مجيء الأنبياء والمرسل وإرشاد الناس الى الإله الواحد الحق، وإرشادهم الى الطريقة الصحيحة لعبادته،؟ لحدثت مآسى فى محاولات الانسان للبحث عن الإله بعقله المجرد.

فهل بعد كل هذا ينكر علماء النفس (الغربيون) هذا البعد العقيدى الهام والمؤثر فى ديناميات الشخصية.

(٢) الدوافع عند فرويد :

لقد تحدث فرويد عن غريزة الجنس وغريزة العدوان وعزا إليهما تقريبا كل سلوكيات الانسان، وقد توصل فى النهاية الى أن هاتين الغريزتين يجب أن يتم ضبطهما، فكيف يحدث ذلك ؟ .. قال فرويد إن سلوك الطفل يسير على مبدأ اللذة (Pleasure Principle) فالطفل يبحث عن اللذة من أقرب طريق، فإذا أراد شيئا تكونت لذلك الشيء صورة من ذهنه، وهذه الصورة غالبا ما يشار إليها "بتحقيق الرغبة" (Wish Fulfillment) تؤدى الى خفض التوتر بعض الشيء ولكن هذا التحقيق الخيالى غير كاف، ولكنه يسهل للطفل البحث عن الموضوع المناسب لتحقيق رغبته، وكل هذه العملية تسمى : "العملية الأولية".

أما فى الانسان الراشد فإن عملية "تحقيق الرغبات" تواجه بالعوائق



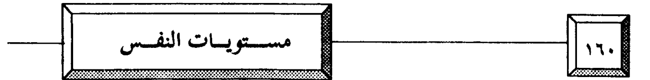
الاجتماعية حيث لا يسمح المجتمع للانسان بتحقيق رغباته الجنسية والعدوانية بشكل فورى ومباشر، لذلك لابد من مراعاة ظروف الواقع الاجتماعي، أى معنى ذلك أنه يحدث تأجيل أو إعاقة لعملية اشباع الغرائز، ومن هذه الإعاقة تظهر "العملية الثانوية" التى تعمل وفق "مبدأ الواقع" (Reality Principle) . وعن طريق هذه العملية تتكون لدى الانسان الطرق التكيفية الاجتماعية، فهو يتعلم تأجيل الحصول على اللذة الى الوقت المناسب والشكل المناسب ومن هذا الصراع بين رغبات الانسان ومخاوفه من المجتمع ينشأ "الأنا" الذى ينظم العلاقة بين الرغبات الداخلية (الجنسية والعدوانية) وبين القوانين الاجتماعية والعرف والتقاليد.

«والأنا يجب أن تكون قادرة على كف التعبير الغريزى الى أن يوجد الموضوع المشبع والمسبب للأمن. وعلى ذلك فمبدأ الواقع يتطلب تأجيل الاشباع المباشر، وقد يؤدى هذا الى تحمل بعض الألم من أجل إشباع لاحق أكثر أمنا. وقد نظر فرويد الى جميع ألوان النشاط العقلى المعقد كالتعلم والإدراك والتذكر والتفكير كوظائف "للأنا" والحقيقة أنه نظر الى كل العمليات الثانوية للنشاط العقلى باعتبارها تقوم على متطلبات تكيفية يفرضها تأجيل أو إحباط التفريغ المباشر للحافز»[٢٠].

«وعلى ذلك، يؤيد فرويد تقسيم الدوافع الى دوافع موروثة وفسيولوجية (دوافع أولية)، ودوافع مكتسبة (دوافع ثانوية). والجنس يعد مثلا للقوة الفسيولوجية الموروثة (الهو) بينما يمثل التعلم والادراك والمساهمة فى مجال واسع من السلوك الاجتماعى الصورة التى اتخذتها الدوافع الثانوية أو الاجتماعية عند فرويد. ودوافع الأنا الأخيرة هذه تظهر فحسب لأن مبدأ اللذة لا يمكنه أن يعمل دائما. فالفرد يولد فى مجتمع يتدخل فى الاشباع المباشر للغرائز من خلال التنظيمات الاجتماعية التى تتجه الى وضع الغرائز الانسانية فى مسالك مقبولة اجتماعيا. وهذا يؤدى الى خلق صور جديدة من تفريغ الحافز، والتى تشبه الى حد ما الدوافع الثانوية التى يؤكدها التعلم بالترابط من خلال نظرية التدعيم»[٢١].

وإذا استعرضنا نظرية فرويد السابقة فى الدوافع نجد أنه قد تحدث عن أهمية دافعى الجنس والعدوان، ولقد سبقه الغزالى بحوالى ٨٠٠ سنة فى الحديث عن هذين الدافعين (الشهوة والغضب)، وللأسف فقد نسبت هذه الدوافع الى فرويد فكأنه ابتكرها ولم يسبقه أحد بها.

وقد اعتبر فرويد الجنس والعدوان دوافع أولية موروثة وفسيولوجية تتهذبان بالخوف من العقوبات الاجتماعية، ويؤدى الصراع بينهما وبين المجتمع الى نمو "الأنا"



الذى يعتبر هو القائد الموجه وهو وحدة العمليات المركزية فى الشخصية. إذن فهذا القائد نشأ فى جو من الصراع والخوف من المجتمع.

أما فى الفكر الاسلامى الذى يمثله الغزالي، فقد كان المفهوم أوسع، حيث عبر الغزالى بلفظ "الشهوة" كرمز لكل رغبات الانسان من جنس وطعام وشراب وتملك .. الخ، وعبر أيضا بلفظ "الغضب" الذى هو منشأ العدوان، ليس هذا فحسب بل إن الغضب ينتج عنه مفردات أخرى مثل الحقد والحسد والضغينة والكراهية والغيرة... الخ.

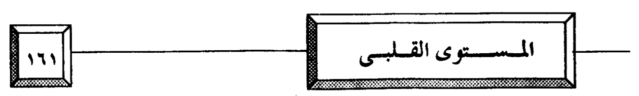
وقد اعتبر الغزالى الشهوة والغضب من قوى (جنود) القلب، وهما غريزتان فطريتان موجودتان فى كل إنسان، ويوازنهما غريزة فطرية أخرى هى العلم والحكمة، وهى أيضا من قوى (جنود) القلب. وهذه القوة الضابطة (العلم والحكمة) لا تنشأ نتيجة الخوف من المجتمع (وإن كانت قوانين وعرف المجتمع من العوامل التى يضعها العلم والحكمة فى الاعتبار)، وإنما هى قوى فطرية فى الانسان تنمو وتزداد قدرتها على السيطرة والتحكم بالعلم المكتسب والتجارب وكل وسائل التعلم المعروفة.

وإذا كان "الأنا" عند فرويد يمثل وحدة التوجيه والعمليات المركزية فى الانسان، فإن القلب فى الفكر الاسلامى هو الذى يتولى هذه الوظيفة من خلال سيطرته على القوى الباطنة (الشهوة والغضب والعلم والحكمة) والقوى الظاهرة (الحواس والجوارح). وتتوقف صحة القلب ومرضه على التوازن بين القوى المختلفة المتضمنة فيه، والانسان لديه الارادة على تغليب أحد القوى على الأخرى، وذلك يتوقف على تصوراته لوظيفته فى الحياة وعلى غاياته ومعتقداته، وعلى مستوى نضجه النفسي.

والقلب هو محتوى دستور الانسان، وهو ليس "كالأنا" ينشأ نتيجة الخوف من المجتمع، وإنما هو شيء فطرى خلقه الله فى الانسان، وهو محل العلم والوعى والارادة وهو مناط التكليف، وهو حلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وهو يصفو ويسمو بالطاعة، ويعتم ويكدر ويعمى بالمعاصي.

(٣) النظرية التأثيرية :

لقد قام بوضع هذه النظرية روبرت هوايت (Robert White 1960) كرد فعل لنظرية فرويد التى عزت معظم نشاطات الانسان وفسرتها تفسيرا جنسيا. وقد رأى هوايت أن الانسان عنده دافع ربما اقوى من تلك الدوافع ألا وهو دافع التأثير



فى البيئة، ويبدأ ذلك بمحاولة التعرف على كل مفردات البيئة المحيطة ثم محاولة التأثير فى ها.

«ويذهب هوايت الى أن حوافز - مثل الجوع والعطش والجنس - قد أعطيت أهمية كبيرة جدا فى تحليل شخصية الانسان المتحضر. وهو يسلم بأن النظرية الجنسية النفسية لفرويد قد فسرت الكثير، وبخاصة أنواع الأمراض التى يمكن أن تظهر نتيجة للصراعات الداخلية على الدوافع الجنسية والعدوانية. ولكن مظاهر السلوك التى يهتم بها هوايت، والتى يشعر أنها غير متضمنة فى نظرة فرويد، إنما يدعمها حافز التأثير، أكثر مما تعتبر مشتقات من الحوافز الجنسية»(٢٢).

«وإن الصراعات النفسية الحاسمة للطفل لا تحدث فحسب فى موقف التغذية أو فى الحمام مع تدريبات الإخراج، ولكن أيضا فى جميع المواقف التى يعبر فى ها الطفل عن حافزه الفطرى للتأثير، أعنى فى أحواض الرمل، وعلى الدراجة ذات الثلاث عجلات، وفى تعلم كيف يتعامل مع العالم وكيف يفهمه. ولا ينكر هوايت أن الحاجات الأولية للأنسجة والتى منها يظهر الجوع والعطش والجنس وغيرها من الحوافز، تلعب دورا فى النمو الدافعي، ولكن الحوافز الانسانية الهامة حقيقة هى فقط "أن يكون نشطا"، و"أن يستطلع"، و"أن يعالج يدويا وأن يضبط"، و"أن ينتج وينجز"، وهذه كلها تندرج تحت العنوان العام لحافز التأثير، أعنى الرغبة فى أن يؤثر»(٢٣).

ولقد اقترب هوايت من الانسان أكثر بهذا الافتراض وهو يدلل عمليا على مذهبه هذا برغبة الطفل الشديدة لأن يمسك الملعقة بنفسه، وأن يأكل بنفسه، ومحاولاته التى لا تهدأ للتعرف على كل شيء من حوله وإعادة ترتيبه بنفسه.

ومبدأ هوايت ليس جديدا تماما، فقد ذكره الغزالى قبله بحوالى ٩٠٠ سنة بشكل أوسع وأفضل. فالغزالى كما ذكرنا من قبل يعزو الى الانسان قوى (دوافع) ربانية وشيطانية (لها صفة التأثيرية) فى قول : "ومن حيث إنه فى نفسه أمر رباني.. فإنه يحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأمور كلها، والتفرد بالرياسة، والانسلال من ربقة العبودية، ويشتهى الإطلاع على العلوم كلها... الخ". وهذه الصفات كلها ليست إلا دوافع للتاثير فى البيئة وتوجيهها.

ونحن لا نذكر هذا لننسب شرفا للفكر الاسلامى بوجه عام أو للغزالى بوجه خاص، وهما يستحقانه عن جدارة، وإنما الهدف هو ربط الفكر الجديد بجذوره العميقة، وهذا يجعل الفكر أكثر أصالة.



ولكن بمقارنة الفكر الغربى المعاصر، فى أية نقطة، بالفكر الاسلامى نجد أن الفكر الاسلامى أوسع[*] وأشمل وأرحب، ويشمل فى طياته الجوانب الايمانية والاخلاقية، فى حين يخلو الفكر الغربى من تلك الجوانب. ولنضرب مثلا واحدا يؤكد تلك الفكرة : فالغزالى حين يتحدث عن تركيبة الانسان يعزو إليه :

١- الصفات السبعية ــ الغضب (العدوان).
٢- الصفات البهيمية ــ الشهوة (بمعناها الواسع، وليست الشهوة الجنسية فقط).
٣- الصفات الشيطانية.
٤- الصفات الربانية.

وهو (الغزالي) حين يتحدث عن جنود القلب (قوى القلب ودوافعه) يصف:

١- الغضب (العدوان).
٢- الشهوة.
٣- العلم والحكمة.

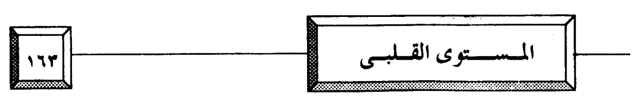
فهو فى هذه الأوصاف قد جمع كل قوى الانسان ودوافعه الشرير منها والخير على حد سواء، ووصف التفاعلات والصراعات والتوازنات بين هذه القوى. ولو بحثنا فى هذه الصفات لوجدناها جمعت فى طياتها أفضل ما قاله فرويد عن الغرائز وما قاله روبرت هوايت عن الرغبة فى التأثير، وما قاله السلوكيون عن التعلم وأثره... الخ. ولكن الغزالى كعالم إسلامى يتميز على كل هؤلاء كما قلنا بشمول النظرة بحيث تتسع لمجالات الدنيا والآخرة، وتبدأ وتنتهى من عقيدة إيمانية أخلاقية قوية تصل الأرض بالسماء.

القلب والعلم :

يعتقد الكثيرون فى هذا العصر أن النشاط العلمي، بكل نواحيه، محصور فى مجال العقل، وأن أى خروج عن حدود المجال العقلى يخرج هذا النشاط من تعريف العلم أو البحث العلمي.

والغزالى يرى بأن العقل وحده لا يكفى لأن يكون وسيلة للمعرفة، وأنه لابد من وجود طور آخر وراء طور العقل تنفتح فيه عين اخرى يبصر بها الانسان الغيب وما يكون فى المستقبل، وهذا لا يأتى إلا لمن كان لديه إيمان العارفين المشاهد

[*] "إغاثة اللهفان" لابن القيم كتاب مهم عن النفس وأنواعها وصفاتها ... إلخ، وهو أوسع بكثير من الغزالى (دكتور / صالح اللحيدان).



بنور اليقين، وقد استدل على ذلك بعجائب الرؤيا الصادقة وإخبار النبى صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور المستقبل(٢٤) (*).

ويقول الكسيس كاريل :

«إن العقل وحده لا يستطيع إيجاد العلم، ولكنه عامل لا مفر منه فى الابتداع.. والعلم بدوره يقوى العقل.. فقد جلب للانسانية موقفا عقليا جديدا، علاوة على الوصول الى الحقيقة بواسطة الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقي.. فالحقيقة المستمدة من العلم تختلف اختلافا تاما عن تلك المستمدة من الايمان. فالأخيرة أكثر عمقا ولا يمكن التشكيك فى ها بالمجادلات.. إنها تشبه الحقيقة التى يعطيها البصر المغناطيسى (الحاسة السادسة)، ولكن مما يدعو للغرابة أن هذه الحقيقة ليست غريبة على العلم. إذ من الواضح أن الاكتشافات الكبيرة ليست نتاج العقل فقط. فإن العباقرة يملكون الى جانب قوتهم على الملاحظة والفهم ـ صفات اخرى مثل البصيرة والخيال المبتدع.. فعن طريق البصيرة يتعلمون أشياء يجهلها الآخرون، ويدركون العلاقات بين الظواهر شبه المنفصلة، كما يحسون بطريقة لاشعورية بوجود الكنز غير المعروف.. وجميع عظماء الرجال وهبهم الله بصيرة، فهم يعرفون دون تحليل أو تفكير، ما هى الاشياء الهامة التى يجب عليهم ان يعرفوها»(٢٥).

ولقد عرف الناس منذ القدم هذه الحقيقة، بل إنهم قسموا علماء الدين الى عالم عقلانى (يهتم بالأدلة والمنطق العقلي) وعالم إيمانى (يضيف الى كل ما سبق روحا إيمانية واعتقادا راسخا، وحدس صائب وقدره على التوصيل والتواصل مع الآخرين).

وفى العصر الحديث ايضا قسم العلماء الى قسمين :

١- عالم منطقى : يهتم بالملاحظة والتجريب والتفكير المنطقي.

٢- عالم سريع الادراك : يصل الى المعرفة العميقة بشكل سريع ولكن بطريقة حدسية لا نعرف كنهها، وهو فى نفس الوقت لا يهمل الملاحظة الدقيقة النافذة، والتفكير العميق.

ويبدو أن العلماء العقلانيين المنطقيين يتمركز وجودهم عند مستوى العقل، وأن العلماء سريعى الادراك والمؤمنين يرتفع وجودهم الى مستوى القلب حيث الحدس الصادق والمعرفة العميقة الدافئة والثاقبة والمؤثرة.

وعلى الرغم من روعة المعارف القلبية الا انها تعتبر خطرة اذا لم تعرض

(*) لا يقاس النبى صلى الله عليه وسلم بغيره (دكتور صالح اللحيدان).

للتمحيص على الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقى والثابت الصحيح من العلوم الدينية.

وهناك قلة (أو ندرة) من الناس لهم قدرات حدسية استثنائية يدركون بها أمورا خارجة عن نطاق الحواس ويثبت عمليا أنها صحيحة. وقد اعترف بها العلماء بحذر (نظرا لوجودها بين ركام من الخرافات والأساطير ومبالغات العامة)، وصنفوها فى ما سمى "علم ما وراء النفس".

«وهكذا فإن معرفة العالم الخارجى قد تصل الى الانسان عن طريق مصادر أخرى غير أعضاء الحس. ومن المحقق أن الفكر قد ينتقل من فرد الى آخر ولو كانت تفصل بينهما مسافة كبيرة.. وهذه الحقائق التى تنتمى الى علم "ما وراء النفس" الجديد يجب أن تقبل على علاتها..إنها تكون جزءا من الحقيقة.. وتعبر عن جانب نادر يكاد يكون غير معروف من أنفسنا.. ومن الجائز أنها مسئولة عن الدقة العقلية الحاذقة التى تلاحظ فى أفراد معينين»[٢٦].

وإن عملية التخاطر عن بعد (أن يعرف انسان ما يفكر فيه آخر وهو بعيد عنه بمسافات طويلة)، أو الرؤية خارج حدود البصر، أو السمع خارج حدود السمع، هذه الظواهر النادرة تعطينا دليلا جديدا على أن العمليات النفسية العليا مثل الادراك والتفكير والذاكرة والوعى والارادة ـ هذه العمليات فى الغالب تتم فى ى كيان غير مادي، وهذا الكيان حر طليق (على الرغم من اتصاله بالجسد) وله القدرة فى حالات معينة (رغم ندرتها) على التواصل مع كيان بشرى آخر بعيد عنه وقراءة شفرة عمله الادراكية أو التفكيرية. أما إذا قلنا بأن العمليات النفسية هذه تتم فى خلايا المخ فكيف نتصور هذا التواصل اللطيف والبعيد بين خلايا مادية ثقيلة محدودة بالزمان والمكان.

عمق المعرفة القلبية :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "البر ما اطمأنت اليه النفس، واطمأن اليه القلب، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر، وإن افتاك الناس وأفتوك" (رواه الإمام أحمد).

فالبر والإثم حكمان شرعيان يتم عرضهما فى البداية على أهل الاختصاص فى صدرون فى هما فتوى أو حكم عقلى مبنى على الشرع، ثم يعرض هذا الحكم على النفس بشكل عام ثم يعرض بعد ذلك على القلب حيث تتم عملية التقييم الأعمق والقبول (أو الرفض) على مستوى القلب. والحكم القلبى هنا يظهر فى صورة اطمئنان (للبر) أو عدم اطمئنان (للإثم).

الإدراك القلبى ومدرسة الجشتالت :

لقد كانت مدرسة الجشتالت **Gestalt** موفقة حين قرر أصحابها :

«إن العمليات النفسية والسلوك يحركه إدراك كامل وفورى للامور التى من حولنا، وليس إدراكات جزئية تتجمع ثم تتراكب ثم تعطى إدراكا (أى بعكس النظرية الترابطية التى تقول بأن العمليات النفسية تجميع ومقارنة لمعلومات حسية متفرقة)، فالانسان يدرك كامل هيئة الشيء قبل أن يدرك تفاصيله، وكامل الهيئة شيء مختلف بالكلية عن الاجزاء المؤلفة. ثم يبين أصحاب النظرية كيف يتم إدراك "شيء عن الخلفية" وإدراك "الشيء المسيطر" الذى يتميز بالجودة نسبة لما حوله، وكذلك يعتقدون أن الانسان يدرك الحوادث الاجتماعية، والجمال والقبح، والقيمة العاطفية للمحيط ايضا بشكل كلى وفورى، ووراثى وخلقى (منذ الولادة) دون أثر للتعلم أو التحليل العقلي، وأن السلوك ينجم عن هذا الادراك»[٢٧].

وقد كانت نقطة هامة فى مدرسة الجشتالت أن يعترفوا بوجود ذلك الادراك الكلى الفكرى، ولكنهم طبقا لتصوراتهم المادية نسبوه الى الوراثة. ليس هذا فقط بل إنهم رفضوا فكرة الروح فى الانسان واعتبروا أن كل وظائف الانسان صادرة عن الجسم.

«إذن فالشكليون (Gestalt) لا يقبلون بازدواجية جسم ــ روح، فالادراك الكلى عندهم صفة جسمية يقوم بها الجسم وفق ترتيب موافق للواقع، ولا يوجد وعى يحلل ويركب الصورة»[٢٨].

وفى الفقرة الأخيرة نلمح التعسف المادى لمدرسة الجشتالت، فهم أرادوا أن يحافظو على انتمائهم للفكر المادى فنسبوا الادراك الكلى للاشياء المادية، ونسبوا القيم المعنوية للجسم دون دليل، بل وأنكروا وجود الروح أيضا دون دليل، رغم أن الاستنتاج العلمى المنطقى يذهب الى عكس ما ذهبوا إليه.

تأثير الذنوب على القلب :

يقول الغزالى :

«وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد الى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى الى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى، وهو الطبع وهو الرين. قال تعالى : "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»".

وقال عز وجل : "أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون". فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب، كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى : "واتقوا الله واسمعوا - واتقوا الله ويعلمكم الله". ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فى ها من الأخطار دخل من اذن وخرج من اذن ولم يستقر فى القلب ولم يحركه الى التوبة والتدارك "أولئك يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور". وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر اسود منكوس" (أخرجه أحمد والطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد). فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب، ومعاصيه مسودات له، فمن أقبل على المعاصى أسود قلبه، ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه، ولكن ينقص نوره كالمرآة التى يتنفس فى ها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح، فإنها لا تخلو عن كدوره"[٢٩].

والذنوب بالاضافة الى ذلك تحدث قلقا وعدم استقرار بسبب ما يواكبها من صراع مع الفطرة الإلاهية فى القلب، وبسبب ما يتبعها من الشعور بالإثم وعذاب الضمير.



الفصل التاسع

المستوى الروحي

ماهي الروح ؟

سؤال حير الفلاسفة والعلماء على مدار التاريخ وحتى يومنا هذا. هذا الكيان الغامض الهائل لا نستطيع تعريفه بدقة أو الإحاطة به أو قياسه.. ومع ذلك فهو موجود.

بعض العلماء اعترفوا بوجود الروح، ولم يغوصوا في الموضوع كثيرا نظرا لصعوبته وغياب وسائل قياسه..

وبعضهم الآخر حاول الغوص فيه مهتديا ببعض النصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية كما فعل ابن القيم في كتابه "الروح" وفريق ثالث حاول الغوص منفردا برأيه الشخصي وإمكاناته البشرية فتاه في الطريق..

وفريق رابع، يمثله علماء العصر الحديث الماديون، أنكروا كل ما هو غيبي لا تدركه حواسهم ولا يخضع لقياساتهم في العمل.

ومع كل ذلك يبقى هذا التساؤل الكبير : ما هي الروح ؟

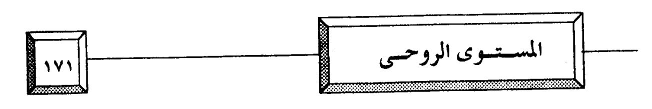
يجيب الأستاذ محمد قطب بقوله :

«الروح شيء مبهم غامض ليست له حدود!.. وهذا الإبهام في طبيعة الروح، والغموض الذي يحيط بها، والعجز عن إدراك كنهها، هو الذي أغرى الماديين في العصور الحديثة أن يهملوها إهمالا ويسقطوها من الحساب».

«الروح طاقة مجهولة، مبهمة، غامضة، محجوبة عن الادراك.. ومع ذلك فهي حقيقة! وإذا كنا نظن أن عملية الادراك أو عملية التذكر عملية "محسوسة"، ومن أجل ذلك نؤمن بوجوها الواقعي، فنحن مخطئون في هذا الظن. فهي في الحقيقة ليست محسوسة في ذاتها! وإنما نحن ندرك نتائجها ووضوح الاحساس بنتائجها هو الذي أغرانا بذلك الظن الخاطئ، كما أنه هو الذي أدخل في وهمنا أننا "نعرف" كيف يتم الادراك وكيف يتم التذكر! أما الحقيقة فهي أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك، ونكتفي منهما بالنتائج التي تدركها الحواس!

ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك! إنها مجهولة في كنهها، مبهمة، غامضة، محجوبة عن الادراك، ولكن نتائجها ليست مجهولة، ولا محجوبة عن الادراك».

"إنها الطاقة التي يتصل بها الانسان بالمجهول..بالغيب المحجوب عن الحواس!



الاستشفاف عملية من عمليات الروح.
والحلم التنبؤى عملية من عمليات الروح.
والتخاطر من بعد (التليباثى).. عملية من عمليات الروح.
ولكنها مع ذلك عمليات جانبية.. إنما الوظيفة الكبرى للروح، هى الاتصال با لله".

«كيف يتم هذا الاتصال ؟ كيف يتم التليباثي، والاستشفاف، والحلم التنبؤى ؟ لا ندري. كما أننا لا ندرى كيف يتم الادراك والتذكر.. ولكنه يتم على أى حال!».

«الروح.. تلك الطاقة المجهولة التى لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها.. هى وسيلتنا للاتصال با لله. وهي مهتدية الى ا لله بفطرتها. إنها من روح ا لله التى أودعها قبضة الطين : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر ٢٩).

«وطاقة الجسم محدودة بكيانه المادى وبما تدركه الحواس. وطاقة العقل أكثر طلاقة، ولكنها محدودة بما يعقل، محدودة بالزمان والمكان.. بالبدء والنهاية.. ومحكومة بالفناء. وطاقة الروح ـ وحدها ـ فى كيان الانسان، هى التى لا تعرف الحدود والقيود. لا تعرف الزمان والمكان.. لا تعرف البدء والنهاية.. لا تعرف الفناء.. وهى وحدها التى تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل.. هى وحدها التى تملك الاتصال بالخلود الأبدى والوجود الأزلي.. تملك الاتصال با لله. كما أنها هى التى تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان" (انتهى كلام الاستاذ محمد قطب)[1].

ويقول السهيلى فى تعريف الروح :

«الروح ذات لطيفة سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر.. وأن الروح التى ينفخها الملك هى النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم.. وأن الروح هى أصل النفس ومادتها والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن»[2].

ويقول الغزالى :

"يطلق لفظ الروح لمعنيين :

١ – أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياه والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها، يضاهى فيضان النور

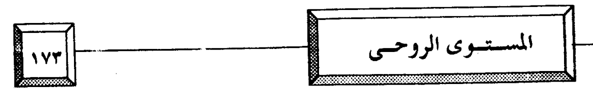
من السراج الذى يدار فى زوايا البيت، فإنه لا ينتهى الى جزء من البيت إلا ويستنير به، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه من غرضنا، إذ المتعلق به غرض الاطباء الذين يعالجون الابدان، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق الى جوار رب العالمين، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا.

٢- المعنى الثانى : هو اللطيفة العامة المدركة من الانسان، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله : "قل الروح من أمر ربي"، وهو أمر عجيب ربانى تعجز العقول والأفهام عن درك حقيقته"[٣].

وإذا تأملنا كلام الغزالى نجد أنه يعطى للروح معنيين، أحدهما أقرب الى العضوية (بخار لطيف - يعنى صوره غازية) وله اتصال بتجويف القلب وله سريان مع الدم الى باقى أجزاء الجسد. وهذه الأوصاف تكاد تنطبق على غاز الاكسجين الضرورى لاستمرار الحياة العضوية، والذى يؤدى انعدامه فى الدم الى موت الانسان (يلاحظ أن كلمة روح spirit مشتقة من كلمة Spirare أى يتنفس). أم أن المقصود بتلك الروح العضوية أنها أيونات سالبة أو موجبة تسرى بسريان الدم ؟ كل هذا ما زال يحتاج الى مزيد من البحث.أما المعنى الثانى للروح (اللطيفة العامة المدركة من الانسان) فإنه يعطى الروح شكل طاقة (لطيفة) لها قدرات إدراكية، ولها اتصال بالقلب.

والغزالى حين أطلق هذه الأوصاف على الروح لم يعط أى دليل علمى أو شرعى على كلامه، وهذا يجعلنا نأخذ كلامه على أنه مجرد فرض يقبل النقاش، وربما يكون الغزالى قد تأثر فى هذه الأوصاف بعلوم السابقين من أطباء وفلاسفة مسلمين وغير مسلمين.

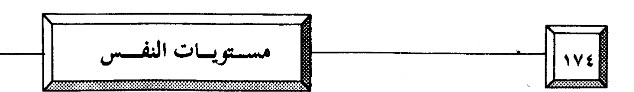
وإن تمييز الغزالى بين نوعين (أو معنيين) من الروح يفسر لنا حديثا هاما ورد فى البخارى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا ويؤمر باربع كلمات، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين



النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة" (مختصر صحيح البخارى كتاب بدأ الخلق. الطبعة الثالثة حديث رقم ١٣٥٦).

يقول الدكتور / راتب السمان تعليقا على هذا الحديث :"الشاهد هنا : هو أنه يكون عمر الجنين فى بطن أمه ١٢٠ يوما قبل أن تنفخ فيه الروح، ومن المعلوم من الناحية الطبية أن القلب ينبض فى الجنين عندما يكون عمره شهرين ونصف أى ٧٥ يوما، وأن أعضاءه كلها تكون حية تماما، ويمكن فى جو المختبر تنميتها وزرعها فى مستنبتات خلوية خاصة، وأن الجنين حتى عمر أربعة أشهر (١٢٠ يوما) يكون مكتملا من حيث التكوين والخلق، ومع ذلك فإنه بدون روح الى أن تنفخ فيه، أى أنه حى تماما فى كل الموازين الطبية والشرعية (نبض القلب، نمو الاعضاء واكتمالها، استمرار حياة الانسجة فى المختبر) ومع ذلك فهو بدون روح، وهذا دليل نهائى أن الحياة ليست من وظيفة الروح"[٤].

وهنا يمكن التوفيق بين معنى الحديث وبين الحقائق الطبية بالاستشهاد بما أورده الغزالى من معنيين للروح، فهناك الروح المادية كما صورها الغزالى (بخار لطيف يسرى فى تجويف القلب وينتشر فى العروق) وهذه هى التى ترتبط بمظاهر الحياة الجسدية، وتوقفها يعنى موت الجسد. وطبيعة هذه الروح المادية كما قلنا تحتاج الى مزيد من البحث، ولقد افترضنا أنها ربما تكون غاز الاكسجين اللازم للحياة، أو تكون عبارة عن غازات أو أيونات أخرى ضرورية للحياة.



أما الروح التى وردت فى الحديث فإنها تفسر بالمعنى الثانى للروح الذى أورده الغزالى (اللطيفة العامة المدركة من الانسان)، وهى كما وصفها : "أمر ربانى تعجز العقول والأفهام عن درك حقيقته"، وهى التى وردت فيها الآية : "قل الروح من أمر ربي".. والله أعلم بمراده.

والروح الاولى (ذات الصفة العضوية) تبدأ مع الحياة وتنتهى معها، أما الروح الثانية (المعنوية) فهى خالدة منذ بداية نفخها بواسطة الملك الى ما شاء الله، وهى تبقى بعد موت الجسد، وهى التى تنعم أو تعذب فى الحياة البرزخية بعد الموت[*] . والدليل على ذلك الحديث رقم ٤٥٨ فى مختصر صحيح مسلم : عن أبى

---

[*] هذا يخالف القرآن .. لكن العذاب فى القبر يقع على الروح والبدن معًا، قال تعالى : ﴿النار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا﴾ (أى فى القبر) ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ (دكتور / صالح اللحيدان).

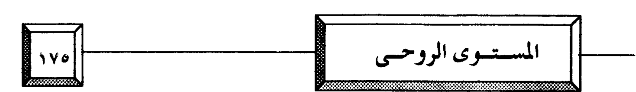
هريرة رضى الله عنه قال :

"إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها...".

والحديث رقم ١٠٦٨ من مختصر صحيح مسلم : عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن هذه الآية :

"ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"، قال : أما انا سألنا عن ذلك فقال : "أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت..".

إذن فالكلام عن الروح والخوض فى تفصيلاتها طريق صعب ربما يتجاوز حدود عقولنا البشرية، لذلك حين سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح أمسك، ونزلت الآية الكريمة :

 (الإسراء ٨٥).

وهناك بعض العلماء يفسرون إمساك الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحديث فى الروح بأنه نهى عن الخوض فى موضوع الروح، غير أن علماء آخرين هم ثقلهم مثل ابن القيم الجوزية قد ألف كتابا كاملا عن الروح، وأيضا أبو بكر الرازى كتب كتاب "النفس والروح"، والغزالى وابن تيمية وغيرهم كثير. والآية الكريمة "قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"، لا يفهم منها معنى النهي، بقدر ما يفهم منها أن علم الانسان مهما عظم فسيبقى قاصرا عن الإحاطة بموضوع الروح.

يقول ابن تيمية :

«لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان : فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه السارى فى العروق، وهو الذى تسميه الاطباء الروح، ويسمى الروح الحيواني، فهذان المعنيان غير الروح التى تفارق بالموت التى هى النفس»[٥].

ويقول أيضا :

«والروح المدبرة للبدن التى تفارقه بالموت هى الروح المنفوخة فيه، وهى النفس التى تفارقه بالموت»[٦].

وهذا التعريف يتفق مع تعريف الغزالى للروح وبأن لها معنيان : الأول : الروح المادية (الهواء أو البخار)، والثانى : الروح غير المادية التى تفارق بالموت

والتى سماها ابن تيمية : النفس.

وفى الحقيقة أن الروح المادية أيضا تفارق الجسد بالموت حيث يتوقف دخول وخروج الهواء من وإلى البدن عند الموت ويتوقف أيضا سريان الدم من القلب الى العروق.

ويلاحظ شارح العقيدة الطحاوية أن الروح والنفس وإن أطلقا على تلك اللطيفة الربانية، إلا أن "غالب ما يسمى نفسا إذا كانت الروح متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسميه الروح أغلب عليها"[٧]. وهذا المفهوم يحل إشكال التداخل بين معنى النفس والروح. ويقول ابن تيمية مؤكدا هذا المعنى :

«لكن تسمى نفسا باعتبار تدبيره للبدن، وتسمى روحا باعتبار لطفه»[٨].

مفهوم الروح فى العصر الحديث :

وربما يعترض علماء العصر الحديث على ادخال مصطلح الروح فى أحاديثهم العلمية، وذلك نظرا لأن الروح شيء غيبى (ميتافيزيقي) لا يمكن قياسه بالأساليب العلمية، ولا يمكن وضع قوانين حسابية تحدد وجوده وتأثيره، ويفضل بعضهم الاكتفاء (فى المجال العلمي) بتلك الظواهر التى يمكنهم قياسها والتعامل معها.

ونحن نقول لهم : إن ظاهرة الروح - صحيح أننا لا نراها ولا نستطيع قياسها فى مرحلتنا الحالية - إلا أننا نلاحظ تأثيرها فى الجسم وتأثرها به بما لا يدع مجالا للشك.

«كما أن الظاهرة لا تدين بأهميتها الى سهولة تطبيق الفنون العلمية عند دراستها، وإنما يجب أن ترى وهى تؤدى وظيفتها، لا بالنسبة للمراقب ووسائله، وإنما بالنسبة للكائن الحي. فحزن الأم التى فقدت طفلها، وجزع النفس الحائرة فى الليل البهيم وعذاب مريض السرطان، كل هذه حقائق واضحة بالرغم من أنها غير قابلة للقياس»[٩].

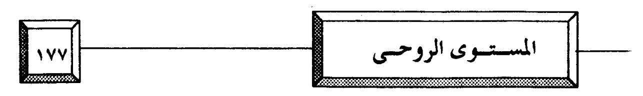
إذن فالظواهر التى يمكن قياسها كالظواهر الطبيعية والجسمية تصبح بالنسبة للعلم أشياء حقيقية ذات أبعاد واضحة لنا، أما الظواهر التى لا يمكننا قياسها فى الوقت الحاضر ولكننا متأكدين من تأثيرها من خلال ملاحظاتنا العلمية ـ تلك الظواهر يجب أن نقتنع مرحليا (على المستوى العلمى بالطبع) بملاحظاتها وأن نعترف بها (ولو على مستوى الفرض أو النظرية) ولا نسقطها من حسابنا، الى أن يجيء اليوم (وقد لا يجيء) الذى نستطيع فيه الإلمام بأبعاد تلك الظاهرة حسب المستطاع.

وإننا نستطيع أن نتمثل موقف العلماء (الماديين) الذين ينكرون وجود الروح، برجل دخل مصنعا كبيرا، ولم ير فيه إلا الآلات والعمال الذين يديرونها، فخرج ليجزم بأن هذا المصنع يعمل فقط بواسطة الآلات والعمال، وحين استنكر سامعوه منه أن يكون ذلك صحيحا، وافترضوا أنه لابد لهذا المصنع من مهندسين ومجلس إدارة ورئيس مجلس إدارة يوجهه ـ حين افترضوا ذلك، أقسم لهم ذلك الرجل أنه لم ير أحدا من هؤلاء في المصنع، وإنما فقط رأى العمال يديرون الآلات، ومادام لم ير مجلس الادارة ولا رئيس مجلس الادارة، فإن هذه تصبح أشياء وهمية وغير موجودة (فى نظره). وبالطبع فإن هذا منطق مشوه، والمنطق العلمى الصحيح أن لكل مجموعة أجهزة مادية تعمل يوجد عقل مدبر وموجه، وما دمنا نعتبر المخ والجهاز العصبى من ضمن أجهزة الانسان (العضوية)، إذن فلابد أن تكون النفس (أو الروح) المدبّرة للجسم موجودة خارج نطاق هذه الاجهزة بما فيها المخ والجهاز العصبي.

«وقد تهمل حقائق هامة إهمالا تاما، لأن عقولنا تميل بطبيعتها الى نبذ الاشياء التى لا تتلاءم مع إطار معتقدات عصرنا العلمية أو الفلسفية.. ولا عجب، فالعلماء بَشر قبل كل شيء، وهم غارقون فى أفكار بيئاتهم وعصرهم، ومن ثم فإنهم على استعداد لأن يصدقوا أن الحقائق التى لا يمكن تفسيرها بالنظريات المتداولة غير موجودة.. ففى العهد الذى ربطت فيه الفسيولوجيا بالكيمياء الطبيعية، عهد جاك لويب وبايليس، أهملت دراسة العمليات العقلية، فلم يكن أحد يهتم بالسكولوجيا واضطرابات العقل، ومازال علماء عصرنا الحاضر المهتمون بدراسة النواحى الطبيعية والكيميائية أو الطبيعية ـ الكيميائية فقط للتركيبات الفسيولوجية ينظرون الى تراسل الافكار وغيره من الظواهر الميتافيزيقية على أنها أوهام»[١٠].

وللدكتور / راتب السمان مفهوما مفصلا عن الروح، حيث راح يدرسها من الجانب العلمي، ونحن نورد فيما يلى بعض فقرات عن دراسته القيمة عن الروح (النظرية الروحية) :

«الروح تفيد ضمنا معنى النفس أو المظاهر النفسية، وهى تأخذ أشكالا متعددة هى : الادراك والتفكير والتصور والانفعال واللذة والارادة والتعلم والسلوك، وهذه عند اجتماعها تكون بنية النفس، وهى كذلك تؤلف بنى مختلفة فى التعقيد والتنوع والتطور، فهناك بنيات روحية عالية التنظيم (فى البشر) وأخرى أبسط (فى الحيوانات)..



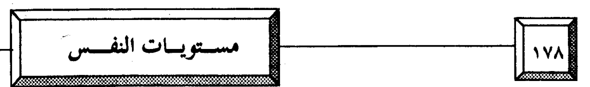
فمن حيث التعقيد هناك روح معقدة ضخمة مثل النفس البشرية، وهناك روح بسيطة مثل روح النبات البسيط والأحياء البسيطة والحيوانات البسيطة، ومن حيث النوعية هناك مركبات روحية لها أثر إدراكي وأخرى تفكيرى .. الخ .. ومن حيث التراكب هناك أرواح تحوى أنواع عديدة بآن واحد : إدراك وتفكير وعاطفة معا، وهناك أرواح بسيطة تحوى نوعا واحدا فقط أو نوعين فقط»[11].

«وأنا هنا استعمل اللفظين بنفس المعني، الروح والنفس، مع فارق جوهرى هو : النفس هى روح البشر الكاملة، بينما كلمة روح تعنى اسم جنس يشمل كل أرواح الكائنات ذات المظاهر النفسية، فالنفس البشرية هى روح، أو مركبة من روح أو من بنيات روحية متعددة. بينما الروح : هى مادة الروح، هى مادة النفس، هى مركبات وبنيات النفس البشرية، والبنيات والمركبات التى تقوم بالمظاهر النفسية عند الكائنات ذات المظاهر النفسية. مثال : التفكير وظيفة الجزء الروحى المختص بالتفكير ضمن النفس البشرية، والادراك وظيفة الجزء الروحى المختص بالادراك ضمن النفس البشرية، والتفكير مؤلف من روح، من مادة روحية من كنه روحي، وهو لا يسمى نفسا وإنما روح بينما مجموع التفكير والادراك والانفعال واللذة والتعلم بكاملها تسمى نفسا»[12].

«والوظائف النفسية للانسان هى : الادراك و(الوعي) والتفكير (والتخيل والتصور والذكاء والمحاكم) والتعلم (والذاكرة) والانفعال (العواطف) والارادة والسلوك (والشخصية) واللذة والمتعة (والألم النفسى).

وكلمة الأساسية (الوظائف النفسية الاساسية) لتمييز الوظائف النفسية الثانوية عن تلك الاساسية، ونقصد بذلك أن الروح البشرية تقوم بالوظائف النفسية الاساسية أو الاصلية، بينما الوظائف النفسية الثانوية يقوم بها الجسد. مثال ذلك : الادراك : يتألف من عدة خطوات منها استقبال المعلومات عبر أجهزة الحواس العصبية، ثم معالجة المعلومات لبناء مفهوم ادراكي. ان الجزء الاساسى من هذه العملية النفسية هو معالجة المعلومات وبناء المفهوم الادراكي، والجزء الثانى هو استقبال المعلومات (حيث يستخدم هذا الجزء ليس فقط لهذه العملية وإنما أيضا للانعكاس العصبى أو الحسى اللاواعى فهو لذلك ليس أساسيا وإنما ثانويا). فالجزء الثانوى من الوظيفة النفسية تقوم به الجملة العصبية المركزية والبدن، أما الجزء الاساسى فهو الذى تقوم به الروح البشرية.

والجزء الثانوى خاضع للتغيير والمرض والفناء والتأثر بالأدوية وهو يؤلف



جزءا من نشاط الخلايا العصبية ولا يتأثر يالمرض أو الأدوية أو الهرم"[١٣].

ويورد الدكتور السمان جدولا هاما يوضح فيه الفروق بين المستوى الجسمي والمستوى الروحي للمظاهر النفسية[١٤]:

الجزء الجسمي للمظاهر النفسية	الجزء الروحي للمظاهر النفسية
١-قابل للعطب والمرض والتخرب	غير قابل نهائيا
٢-يتأثر بالهرم ووظيفة الدماغ	لا يتأثر مطلقا
٣-يتأثر بالأدوية والجراحة النفسية	لا يتأثر مطلقا
٤-يتخرب وقابل للفناء والتعطل التام	لا يفنى ولا يموت بشكل نهائي أبدى
٥-عمله آلى انعكاسى حيوى يمكن معاونته أقو التأثير عليه بالآلات أو بالأدوية	عمله خاص يعتمد على التعلم والمتعة من جهة وعلى بنى ثابتة لا يمكن التأثير عليها بآن واحد (غير انعكاسى ولا آلى ارادى يحكمه المتعة والتعلم (نفسي)
٦-يحدث فيه فقط تكيف وتعود ولا يحدث فيه تعلم مطلقا	يحدث تعلم ولكنه لا يغير البنى الاساسية بل يضاف اليها بشكل يشبه البرمجة
٧-وظيفتة استقبال مفردات الأحاسيس السمعية والبصرية والحسية والشمية الخ والزمانية والحركية وتركيبها بشكل معلومات مركبة وارسالها للروح	وظيفته التعامل مع المعلومات إداركيا وتفكيريا وذكائيا وانفعاليا وامتاعيا وسلوكيا وبناء الفكرة أو الخبرة أو الرأى أو السلوك

علاقة الروح بالبدن :

لقد أقر كل علماء السلف، وحتى الفلاسفة الاقدمين، وجود الروح.. ولم ينكر وجودها بالكلية إلا العلماء الماديين المعاصرين، وقد أنكروا وجودها تعصبا للفكر المادي والمنهج المادى السائد، دون دليل علمى أو منطقى لهذا الإنكار.

إذن فوجود الروح لا يثير كثيرا من الجدل، ولكن هذا الجدل يثور ويحتد حول طبيعة هذه الروح، وعلاقتها بالجسد، والسبب فى ذلك يكمن فى التالى :

١-إن الروح شيء غيبى لا يخضع للبحث المعملى والقياس (على الأقل فى المرحلة الحالية).

٢-العلماء الذين يتحدثون عن الروح يحاولون فهمها وشرحها من خلال اللغة السائدة والمفاهيم المادية المتعارف عليها، والروح بالطبع تقع خارج هذا المجال.

٣-وفى المجال الدينى لم ترد نصوصا كثيرة تشرح طبيعة الروح وماهيتها وعلاقتها بالبدن، بل كانت هناك إشارات سريعة ذكرت فيها الروح بإيجاز، وقررت الآية الكريمة أن الروح من أمر الله وأن علم الانسان أقل من أن يحيط بها "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

٤-أيضا من أسباب الجدل والخلاف حول ماهية الروح، وجود معنيين للروح، أحدهما له صفة مادية والآخر معنوى غير محسوس. ولكن يحدث أن يركز البعض على الروح المادية فقط أو يركز على الروح المعنوية فقط، فيصبح كلامه ناقصا.

ولنستعرض الآن بعضا من آراء علماء السلف والفلاسفة حول هذا الخلاف :

«يرى فريق من أهل الكلام المبتدع المحدث من الجهمية والمعتزلة أن الروح جزء من أجزاء البدن، أو صفة من صفاته، كقول بعضهم : إنها النفس أو الريح التى تردد فى البدن، وقول بعضهم : إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن»[١٥].

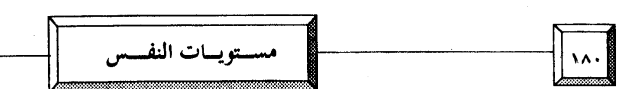
وقد كان خطأ هؤلاء أنهم بتروا معنى الروح فقصروها على شقها المادى المحدود، وتركوا الروح الأهم غير المحسوسة، والتى تنعم وتعذب فى البرزخ، ولذلك «أنكر كثير منهم عذاب القبر، فليس هناك روح تنعم أو تعذب بعد الموت فى البرزخ، ورفضوا النصوص التى أثبتت ذلك»[١٦].

«والفلاسفة المشاؤون يقرون بأن النفس تبقى إذا فارقت البدن، لكن يصفون النفس بصفات باطلة فيدعون أنها إذا فارقت البدن كانت عقلا، والعقل عندهم مجرد عن المادة وعلائق المادة، والمادة عندهم هى الجسم، والعقل عندهم قائم بنفسه لا يوصف بحركة ولا سكون ولا يتجدد له أحوال البتة»[١٧].

وهؤلاء الفلاسفة قالوا :

«إن الروح إذا فارقت البدن لا يتجدد لها حال من الأحوال لا علوم ولا تصورات، ولا سمع ولا بصر، ولا إرادات، ولا فرح ولا سرور، ولا غير ذلك مما قد يتجدد ويحدث، بل تبقى عندهم على حال واحدة أزلا وأبدا، كما يزعمونه فى العقل والنفس»[١٨].

«وفريق من الفلاسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم، وهى أمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود، فيقولون لا هى داخل البدن ولا خارجه، ولا مباينة له، ولا مداخلة له، ولا مكتحركة ولا ساكنة، ولا تصعد ولا تهبط، ولا هى جسم ولا عرض»[١٩].



والسبب الذى أوقع كلا الفريقين فى هذا الخطأ أنهم اعتمدوا على عقولهم فقط وما وضعوه من مقاييس، فى البحث فى أمر غيبي، فالفريق الأول (الجهمية والمعتزلة) أنكر وجود روح مستقلة عن البدن، وهذا تكذيب للنصوص المتواترة، وإنكار لأمر معلوم من الدين بالضرورة، والفلاسفة المشاؤون ومن سلك سبيلهم أثبتوا وجود الروح مستقلة عن البدن، ولكن لما كانت هذه الروح "ليست من جنس هذا البدن، ولا جنس العناصر والمودات منها، بل هى جنس آخر مخالف لهذه الأجناس"[٢٠]، صعب عليهم تعريفها وتصورها[٢١].

ولقد حسم ابن القيم هذا الجدال بقوله :

«الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نورانى علوى خفيف حى متحرك، ينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء فى الورد، وسريان الدهن فى الزيتون، والنار فى الفحم، فمادامت هذه الاعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقى هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والارادة، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل الى عالم الأرواح»[٢٢].

ويقول ابن تيمية :

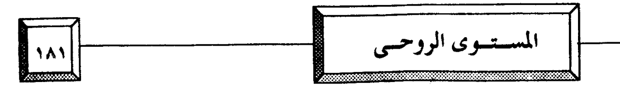
«لا اختصاص للروح بشيء من الجسد، بل هى سارية فى الجسد كما تسرى الحياة التى هى عرض فى جميع الجسد، فإن الحياة مشروطة بالروح، فإذا كانت الروح فى الجسد كان فيه حياه، وإذا فارقته الروح فارقته الحياه»[٢٣].

الدراسة العلمية للروح :

يحاول العلماء المعاصرون الذين يؤمنون بوجود الروح ـ دراستها بشكل علمى مستخدمين المنهجية العلمية الحديثة فى تناولها، ولو على مستوى الملاحظات والفروض والنظريات.

وقد بدأت هذه المحاولات على مستوى فردى ثم تأسست بعض المعاهد فى أوروبا للدراسات الروحية.

وعلى المستوى العربى كانت هناك عدة محاولات فردية، ومنها تلك التى قام بها الدكتور / راتب عبد الوهاب السمان فى بحثه المستفيض بعنوان "النظرية الروحية". وفى هذا البحث يورد الدكتور / السمان بعض الملاحظات العلمية حول الروح (بمعنى النفس أو المظاهر النفسية) فيقول[٢٤] :



١-المظاهر النفسية تتواجد دوما مع الكائن الحى حين يكون هذا الكائن وحدة وظيفية متكاملة، وما أن تنفرط هذه الوحدة، سواء بقيت أجزاء من الكائن الحي، حية أم لا، فإن مظاهره النفسية تتوقف عن الظهور.

٢-أى أن المظاهر النفسية ترتبط عمليا ببقاء الكائن الحى متحدا ومترابطا بشكل وحدة فسيولوجية كاملة، وتنفصل أو تختفى منه عندما يصبح أجزاء منفصلة، ولو بقيت حية، أى أن ارتباط المظاهر النفسية بالكائن الحى لا يعتمد على وجود أو عدم وجود الحياه ضمن خلاياه، بل يعتمد على أنه : هل ماتبقى من الوظائف الحيوية والفسيولوجية للكائن كاف لظهور المظاهر النفسية أم لا. فإذا كان ما تبقى كافيا بقيت المظاهر النفسية ظاهرة لنا، وإلا اختفت ولو بقى ٩٩٪ من خلايا الكائن الحى حية (كما فى تخرب جذع الدماغ).

٣-إن هذا يعنى المفهوم القديم نفسه عن الروح : فهى تبقى تسكن الكائن مادام يستطيع تنفيذ أوامرها، وتهجره عندما يتخرب ولا يستطيع تنفيذ أوامرها.

٤-وإذا أضفنا لهذه الملاحظات، ما نلاحظه فى دراسة الطب والفسيولوجيا، من عجز كامل عن تفسير عدم وجود مكان تشريحى محدد للوظائف النفسية، من إدراك وتفكير وذاكرة وتعلم... الخ، وعدم وجود تفسير واضح لعدم اختفاء الوعى والتفكير والذاكرة والادراك والارادة، رغم التخربات الواسعة فى الجسد والدماغ، مما يدعو أحيانا ولو بشكل تهكمى عند من لا يؤمنون بالروحية لافتراض وجود شخص صغير فى الدماغ يقوم بهذه الوظائف : Little Man In The Brain[25] وهو نفس مفهومنا عن الروح.

٥-وكذلك فإن بعض الأمور التى تبدو لنا خارقة ولا يمكن تفسيرها، والتى يجبرنا تواردها بشكل متواتر فى كل الشعوب وفى كل أزمان البشرية عن الروح والبعث، وعن الأحلام وعن السحر والتخاطب البعيد والتنجيم، ومخاطبة الموتى فى المنام أو عن طريق وسيط[*] ... الخ، تدعونا للبحث أيضا فى نفس الاتجاه لوضع نظرية متكاملة عن الروح، تفسر ولو جزئيا بعض هذه الأمور المحيرة.

ثم يضع الدكتور/ السمان تصورا لوظائف الروح البشرية فيقول :

«الروح البشرية هى الشيء الذى يقوم بالوظائف النفسية الأساسية للإنسان.. وهى : الادراك والتفكير والتخيل والذكاء والارادة والسلوك والمتعة

---

[*] عد إلى "الروحية الحديثة" للدكتور محمد محمد حسين (دكتور / صالح اللحيدان).

(اللذة والألم) والذاكرة الدائمة والتعلم والانفعال. ومن المهم جدا هنا أن أنبه الى الفكرة الأساسية التالية : الروح تقوم بالوظيفة النفسية ذاتها فقط ولا تقوم باستقبال وتنظيم المعلومات، وكذلك هي لا تقوم بتنفيذ السلوك والارادة، فاستقبال المعلومات وتنظيمها وتركيبها يقوم بها الدماغ، وإدراك معناها والتعرف عليها تقوم بها الروح. واستقبال معلومات مشكلة تحتاج الى حل يقوم به الدماغ وإجراء الحل والمحاكمة يتم في الروح.

وبناء فكرة خيالية (تصور أو تخيل) كحل لمشكلة يتم في الروح فقط ولكن مثيرات الفكرة أو الصورة ومفرداتها تأتي عن طريق الدماغ.

إن المعلومات الواجب اختبار ذكائنا حولها يتم في الدماغ ولكن التعامل معها بذكاء يتم في الروح.

إن الظروف والمواقف التي تفترض منا استجابة سلوكية يتم استقبال معلوماتها أو مفرداتها في الدماغ، أما التعامل معها وإصدار فكرة أو رأى أو سلوك فيتم في الروح، وتنفيذه يتم في الدماغ.

إن المثيرات الممتعة والألمية تستقبل وتركب مفرداتها في الدماغ ولكن التعامل معها بحدوث متعة أو ألم يتم في الروح وليس في الدماغ، وصدور سلوك تعبيرى أو استجابة يتقرر في الروح كفكرة وينفذه الدماغ كمظاهر ألمية أو إمتاعية أو سلوكية.

إن المعلومات المتعلمة أو الخبرات المكتسبة كذكريات يتم استقبال وبناء مفرداتها وتركيبها في الدماغ، حيث يحتفظ بها لفترة محدودة معينة، ولكن البقاء الدائم لها والتعامل معها كخبرة وتعلم، والاستفادة منها في التفكير والذكاء والمتعة والسلوك يتم في الروح، واسترجاعها من الروح الى الدماغ ثم الكلام أو الفعل يحتاج الى الدماغ كمنفذ وطريق استرجاعي.

إن المثيرات الخارجية التي تتطلب أو تثير انفعالا يتم استقبال وتركيب مفرداتها في الدماغ، ولكن التفاعل معها وحدوث الانفعال نفسه يتم في الروح، بينما ظهور مظاهر الانفعال الجسدية والسلوكية يحتاج الى دماغ"[٢٥].

إذن يمكننا الآن معرفة حجم ودور الحواس والجوارح بكل اتصالاتها العصبية حتى القشر الدماغي، فكل هذه التركيبات هي وسائل استقبال وتنظيم وتكثيف وبث الى مراكز أعلى يتم فيها معالجة المعلومات ثم ترسل مرة أخرى الى الدماغ (Brain) لتحويلها الى مظاهر انفعالية وسلوكية.

وهنا يبدو الجهاز العصبى (بما فيه المخ) وكأنه يقوم بدور مكتب السكرتارية الذى يستقبل الأوراق والمعلومات وينظمها ويختزلها ثم يعرضها على المديـر (المراكز الروحية العليا) ثم يستقبل الرد من هذا المديـر فـى صـورة قـرارات يوزعهـا مكتب السكرتارية على الأجهزة المسئولة عن التنفيذ. ومن هنا فلا يمكن القول بـأن مكتب السكرتارية هو الذى يقوم بكـل العمليـات (كمـا هـو الواقـع فـى التصـور العلمـى الحالي، من اعتقاد بأن العمليات النفسية الاساسية المعقدة تتم بالكامل فى المخ) لمجرد أننا لا نرى المدير (المراكز الروحية العليا : العقل - القلب - الروح).

خصائص الروح البشرية :

ويكمل الدكتور / السمان تصوره عن الروح البشرية فيفترض لها الخواص التالية :

(١) الشخصية : (Personality) :

إن لكل روح هوية شخصية مستقلة تميزها عن غيرهـا.. وإن نمـط الإصـدار الموجى المرمز من قشرة دماغ كل شخص تميزة بشكل نوعي. وإن هذه الفكرة تبطل مبدئيا فكرة قراءة الافكار أو التخاطب البعيد، أو توارد الخواطر مـا لم يكـون الامـر قدره غير عادية لروح أحدهم على تحليل وفهم إصدار موجى مرمز صادر عن أرواح أخرى، وبذلك يمكن فهم هذه الظواهر من هذا المبدأ.

(٢) التنبه والقدرة على التنبيه :

هنا نعنى بهذا القدرة على إصدار نوع من الطاقة، أو " المؤثر" ينطلق خارج الـروح ويؤثـر فـى الخلايـا العصبيـة ويحـدث فـى عـدد منهـا إزالـة اسـتقطاب (Depolarization) أو تغير مسـار الاشـارة وبـدء سـلوك حركـى أو انفعـالى فـى الجسم، وكذلك يعنى هذا أن الروح تسـتقبل "الإصـدار الموجـى المرمـز" الـذى هـو عمليا أشعة كهربائية مغناطيسية.. وتحول هذا الإصدار الى شكل آخر من الطاقة هـو ما نصطلح على تسميته الطاقة الروحية.

(٣) التأثير بالمادة والتأثر منها :

إن الروح لها القدرة على إزالة استقطاب الخلايا الدماغيـة، أو تغيـير مسـار الاشارة الكهربائية الدماغية، وأنها تستقبل طاقة (كهربائية مغناطيسية) وتتفاعل معها بطريقة ما.. فهذا يعنى بالنهاية التأثير بالمادة (كمنبه فيزيـائى لـه معـادل مـن الطاقـة) ولها القدرة على التأثر بالمادة (استقبال الطاقة المغناطيسية الكهربائية والتـأثر منهـا).. ولكن يبقى لهذا الأمر خصوصياته المجهولة.

(٤) البقاء والديمومة وعدم الفناء :

إن التخرب والمرض وتأثير الأدوية يصيب الخلايا الدماغية، ولا يصل الى الروح، لأنها لا تؤلف جزءا من هذا البدن، بل كينونة مستقلة ومنفصلة عنه، وهذا يدعونا لقبول عدم تخربها (على الأقل بالنسبة لعوامل التخرب الجسدية).

(٥) الاكتساب والتطور :

إن الروح عند الولادة يكون لها قدرات محددة أصلية، غير مكتسبة وغير متعلمة، وأن هذه القدرات يضاف إليها (دون تعديل أو نقص أو تغير، وإنما اضافة فقط) خبرات ومكتسبات في الوظائف النفسية بكاملها، اضافة الى الذكريات والمعلومات المحفوظة في الذاكرة.

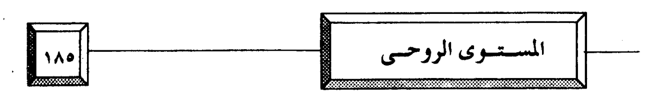
إن كل هذه المكتسبات يتم الحفاظ عليها في الروح نفسها لا في الجسد ولا في الدماغ. أما الدماغ فإنه ينتهي تطوره واكتماله في السنة السابعة للعمر، بينما لا ينتهي اكتساب وتطور الوظائف النفسية الروحية حتى الموت أو في أواخر الحياة.

وإن اهتزاء القدرات الاستقبالية (الحواسية والدماغية) يعني توقف القدرات الروحية عن الزيادة والاضافة ولا يعني نقصا فيها مطلقا.

فنحن في النهاية نملك جسدا "مؤقتا" له عمر محدود، مهمته تلقي وإرسال خبرات روحية نفسية، تجعل الروح ناضجة وخبيرة، وعندما يقوم بواجبة يهرم ويفني، وتبقى الروح محتفظة بما اكتسبته[٢٦].

وعلى المستوى العلمي والمستوى الديني يمكن أن نتفق أو نختلف مع الفروض السابقة (كلها أو بعضها)، ولكنها تبقى محاولات جادة لمعرفة لغز الانسان بوجه عام ومعرفة بعض الحقائق عن لغز الروح والنفس بوجه خاص. وهي تفتح الباب لمزيد من الدراسات ذات الاتجاه الشمولي، وتخرج علم النفس والطب النفسي من ذلك الإطار الضيق الذي يتقلص رويدا رويدا (رغم كثرة الابحاث العلمية التقليدية) ليتعلق بالجزئيات من مظاهر النشاط النفسي للانسان محاولا جذب الانظار الى النشاطات الكيميائية في الجهاز العصبي خاصه عند المشتبكات العصبيه متوهما ان التحكم في نشاط افراز الناقلات العصبية عند تلك المشتبكات كفيل بأن يمنح الانسان الصحة النفسيه والاجتماعية.

وكما رأينا فان الجزء الجسدي من النشاط النفسي هو حقيقه لاينكرها أحد ،



وهو قابل للمرض وللعلاج بالادويه ولكنه يبقى جزءا ثانويا من حيث الوظيفه ، ويبقى الجزء الروحى من هذا النشاط بمستوياته المتصاعده (العقل - القلب - الروح) هو الجزء الاساسى الذى لم يحظ بعنايه علم النفس الحديث حتى الآن.

خلود الروح :

لقد اتفق علماء المسلمين وعلى رأسهم ابن تيمية على ان الروح مخلوقه وهم يستدلون على ذلك من ايات القرأن مثل :

قوله تعالى :

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الرعد١٦"

وهذاالخلق عام يشمل كل شئ بما فيه روح الانسان .

وقوله تعالى :

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ الانسان ١"

وقوله تعالى :

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (مريم ٩).

ومن هذه الآيات يتضح ان الروح باقية وليست قديمه أزلية.

والروح لا تفنى بفناء الجسد فهى خالدة تنعم او تعذب فى البرزخ[*]، والروح تغادر الجسد عند الموت (وهى كما قلنا تسمى نفسا . وقت اتصالها بالجسد) عندما يصبح الجسد فى حاله لاتمكنه من القيام بوظيفته التى كان يؤديها أما بالمرض أو بالتلف أو بالكبر.

يقول ابن تيمية فى هذه المسأله : "والارواح مخلوقه بلا شك ، وهى لاتعدم ولاتفنى ، ولكن موتها بمفارقة الأبدان ، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان " [٢٧].

وقد تعرض شارح الطحاوية لهذه المساله ،فقال : "واختلف الناس هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفه : تموت لانها نفس، وكل نفس ذائقة الموت،- واذا كانت الملائكه تموت، فالنفوس البشرية اولى بالموت، وقال آخرون:لاتموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء ،وانما تموت الابدان، قالوا: وقد دل على ذلك الاحاديث الداله على نعم الارواح وعذابها بعد المفارقه الى أن يرجعها الله فى اجسادها. والصواب

[*] اتفق الصحابة والتابعون على أن العذاب فى القبر يكون على الروح والجسد (دكتور / صالح اللحيدان).

ان يقال : موت النفوس هو مفارقتها لاجسادها وخروجها منها، فان اريد بموتها هذا القدر،فهى ذائقه الموت، وان اريد ان تعدم وتفنى بالكليه فهى لا تموت بهذا الاعتبار، بل هى باقيه بعد خلقها فى نعيم او فى عذاب،.. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ (الفرقان ٥٦)، وتلك الموته هى مفارقه الروح الجسد"[٢٨].

مستويات الأرواح بعد الموت :

تختلف منازل ومستويات الارواح بعد الموت حسب درجة إيمان الانسان وقربه من ربه كالتالى :

(١) أرواح الأنبياء والرسل (عليهم السلام) : تصعد الى الرفيق الاعلي، فقد سمعت السيدة عائشة رضى الله عنها الرسول صلى الله عليه وسلم فى آخر لحظات حياته يقول : "اللهم الرفيق الأعلي" (صحيح البخارى، باب من أحب لقاء الله، فتح البارى ١١/٣٥٧)، وهذه هى أعلى منزلة.

(٢) أرواح الشهداء : فى أجواف طير خضر تطوف بالجنة. قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران ١٦٩). وقد سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هذه الآية فقال : إنا قد سألنا عن ذلك، فقال : "أرواحهم فى أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى الى تلك القناديل" (رواه مسلم فى صحيحه).

(٣) أرواح المؤمنين الصالحين : تستقر أرواح المؤمنين الصالحين فى الجنة، فقد روى عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنما نسمة المسلم طير يعلق فى شجر الجنة، حتى يرجعها الله الى جسده الى يوم القيامة" (رواه أحمد).

(٤) أرواح العصاه : هذه الارواح تعذب وتختلف درجة عذابها ومستوى وجودها حسب درجات العصيان.

(٥) أرواح المنافقين والكفار : تستقر فى أسفل سافلين.

الإدراك الروحى بعد الموت :

رغم موت الجسد وفنائه إلا أن روح الانسان تحتفظ بقدرتها على الإدراك، ولكنه إدراك يختلف عن الادراك المعروف لدينا. فقد ثبت فى الاحاديث الصحيحة

ان الميت يسمع قرع نعال أصحابه بعد وضعه فى قبره، فعن أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه أصحابه، انه ليسمع قرع نعالهم" (رواه مسلم، كتاب الجنة).

ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد معركة بدر بثلاثة أيام على قتلى بدر من المشركين فنادى رجالا منهم، فقال : "يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعه، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربى حقا"، فقال عمر بن الخطاب : "يا رسول الله ! كيف يسمعوا وأني يجيبوا وقد جيفوا" قال : "والذى نفسى بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا..." (رواه البخاري، كتاب الجنائز).

وقد ساق ابن تيمية (رحمه الله) جملة من الأحاديث التى تدل على أن الموتى يسمعون ثم قال :

«فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع فى الجملة كلام الحي، ولا يجب أن يكون السمع له دائما، بل قد يسمع فى حال دون حال، كما قد يعرض للحي، فإنه يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه، وقد لا يسمع لعارض يعرض له"[٢٩].

وقد أجاب شيخ الاسلام على إشكال من يقول : إن الله نفى السماع عن الميت فى قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ (النمل ٨٠)، وكيف تزعمون أن الموتى يسمعون ؟ فقال :

«وهذا السمع سمع إدراك، ليس يترتب عليه جزاء، ولا هو السمع المنفى بقوله "إنك لا تسمع الموتي"، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال، فإن الله جعل الكافر كالميت الذى لا يستجيب لمن دعاه، وكالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفقه المعني، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعني، فانه لا يمكنه اجابة الداعي، ولا امتثال ما أمر به، ونهى عنه، فلا ينتفع بالأمر والنهي»[٣٠].

الروح فى القرآن الكريم :

وردت الروح فى القرآن الكريم ٢١ مرة نستعرض معانيها فيما يلى كما وردت فى كتب التفسير :

(١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾ (البقرة ٨٧).

جاء فى تفسير ابن كثير[٣١] أن روح القدس هو جبريل عليه السلام. وقال محمد ابن اسحاق : حدثنى عبد الرحمن ابن أبى حسين المكى عن شهر بن حوشب الأشقرى أن نفرا من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أخبرنا عن الروح، فقال "أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون أنه جبرائيل وهو الذى يأتينى؟" قالوا : نعم.

وقال فريق إنه الاسم الاعظم الذى كان عيسى يحيى به الموتى، وقال فريق ثان أن الروح هو حفظة على الملائكة، وقال فريق ثالث : القدس هو الرب تبارك وتعالى وروحه جبريل، وقال فريق رابع : القدس البركة، وقال فريق خامس : الروح هو الإنجيل وهو القرآن "وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا".

ولكن الرأى الأول : أن الروح هو جبريل هو الأقرب والأصوب.

(٢) ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . . .﴾. (البقرة ٢٥٣). وفى هذه الآية أيضا نجد أن روح القدس قد فسرها أغلب المفسرين بمعنى جبريل عليه السلام.

(٣) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ . .﴾ (المائدة ١١٠). وهو نفس المعنى فى الآية السابقة.

(٤) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء ١٧١).

ومعنى "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه"، أى إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه قال له كن فكان، ورسول من رسله وكلمته ألقاها الى مريم أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام فنفخ فيها من روحه باذن ربه عز وجل فكان عيسى باذنه عز وجل .. و"روح منه" كقوله : "وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه" أى من خلقه ومن عنده، وليست "من" للتبعيض.. بل هى لابتداء الغاية كما فى الآية

الأخرى، وقد قال مجاهد فى قوله "وروح منه" أى ورسول منه، وقال غيره : ومحبة منه، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقه، وأضيفت الروح الى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت الى الله فى قوله "هذه ناقة الله" وفى قوله "وطهر بيتى للطائفين"(٣٢).

إذن فروح عيسى روح مخلوقه خلقها الله تعالى وليست جزءا من روح الله (تعالى الله عن ذلك) كما يفهم البعض من ظاهر النص. ومن باب أولى أن روح البشر العاديين هى أيضا مخلوقه بقدرة الله عز وجل ومنتسبة اليه انتساب تشريف وليس انتساب الجزء الى الكل كما يحاول البعض أن يدعى وخاصة أولئك الذين يحاولون الرفع من شأن الانسان الى درجة الألوهية، أو أولئك الذين يعتبرون الانسان مخلوقا يتطور حتى يصبح هو الإله. إذن ففى المفهوم الصحيح عن روح الانسان نجد أنها مخلوقة وهى كيان شرفه الله تعالى بنسبته إليه، وهى تعطى الانسان قدرات كبيرة بإذن الله، ومع هذا يبقى الانسان مخلوقا بيد الخالق العظيم الذى لا يماثله شىء، ويبقى الرب رب والعبد عبد.

(٥) ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل ٢).

يقول تعالى : "ينزل الملائكة بالروح" أى الوحي، كقوله : "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا"، وقوله "على من يشاء من عباده" وهم الأنبياء(٣٣).

(٦) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل ١٠٢).

والمقصود بروح القدس جبريل عليه السلام.

(٧) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء ٨٥).

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرث فى المدينة وهو متوكئ على عسيب فمر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح. وقال بعضهم : لا تسألوه. قال : فسألوه عن الروح فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكئا على العسيب قال : فظننت

أنه يوحى إليه فقال : "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

وقد اختلف المفسرون فى المراد ههنا على أقوال أحدها أن المراد أرواح بنى آدم. وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله "ويسألونك عن الروح" الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التى فى الجسد، وإنما الروح من الله، ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يحر إليهم شيئا فأتاه جبريل فقال له "قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

وقيل المراد بالروح ههنا جبريل، وقيل المراد به ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها. قال السهيلى : وقيل المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بنى آدم، وقيل طائفة يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبنى آدم. وقوله : "قل الروح من أمر ربي" أى من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال : "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.

ثم ذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر، وقرر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء، كما قال أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسما خاصا فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماءًا مصطارًا أو خمرًا ولا يقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز، وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو، وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه، فحاصل ما نقول أن الروح هى أصل النفس ومادتها والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهى هى من وجه لا من كل وجه وهذا معنى حسن والله أعلم[٣٤].

(٨) ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء ١٩٢-١٩٥).

يقول الله تعالى أن هذا القرآن من عند الله وقد نزل به جبريل على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس. وواضح أيضا من الآية أن القلب هو محل استقبال الوحي. والروح الأمين هنا هو جبريل، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : "من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه".

(٩) ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (غافر ١٥).

قوله تعالى "يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده" كقوله جلت عظمته "ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده" وكقوله تعالى "وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين"[٣٥].

(١٠) ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ . . .﴾ (المجادلة ٢٢).

قال السدى "كتب فى قلوبهم الايمان" جعل فى قلوبهم الايمان، وقال ابن عباس "وأيدهم بروح منه" أى قواهم[٣٦]. فالروح هنا هى قوة من الله وتأييد.

(١١) ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج ٤).

قال قتاده : تعرج : تصعد، وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناسا. (قلت) : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بنى آدم فإنها إذا قبضت يصعد بها الى السماء كما دل عليه حديث البراء مرفوعا، الحديث بطوله فى قبض الروح الطيبة قال فيه "فلا يزال يصعد بها من سماء الى سماء حتى ينتهى بها الى السماء التي فيها الله"[٣٧].

(١٢) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ ٣٨).



اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا ما هو ؟ على أقوال :

أحدها : ما رواه العوفى عن ابن عباس أنهم أرواح بنى آدم.

الثانى : هم بنو آدم (قاله الحسن وقتاده).

الثالث : أنهم خلق من خلق الله على صور بنى آدم وليسوا ملائكة ولا بشر وهم يأكلون ويشربون (قاله ابن عباس ومجاهد).

الرابع : هو جبريل (قاله الشعبى وسعيد بن جبير والضحاك)، ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل "نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين".

وقال مقاتل بن حيان : الروح هو أشرف الملائكة وأقرب الى الله عز وجل وصاحب الوحي.

الخامس : أنه القرآن (قاله ابن زيد)، كقوله "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا" الآية.

السادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات[٣٨].

(١٣) ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر ٤).

والمراد بالروح هنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وقيل هم ضرب من الملائكة كما تقدم فى سورة النبأ.

(١٤) ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم ١٧).

والمقصود بالروح هنا (الذى أرسل لمريم) هو جبريل عليه السلام.

(١٥) ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ٩١).

هنا يذكر الله تعالى قصة مريم وكيف حملت بدون ذكر بمجرد نفخ الروح فيها.

(١٦) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (السجده ٧-٩).

يبين الله فى هذه الآيات طبيعة خلق الانسان، فهو مخلوق من الطين (الخلق الاول) أو من الماء المهين (النسل) ثم كرمه الله بنفخة الروح وزوده بالسمع والبصر والفؤاد وهى وسائل الادراك.

(١٧) ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ٥٢).

والمقصود بالروح فى هذه الآية القرآن الكريم كما جاء فى كتب التفسير.

(١٨) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر ٢٨، ٢٩).

هنا أيضا يخبر الله تعالى عن قصة خلق الانسان وطبيعته المكونة من الطين ونفخة الروح.

(١٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص ٧٢).

وهذه الآية تخبر (مثل الآية السابقة) عن قصة خلق الإنسان وطبيعته.

(٢٠) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم ١٢).

يقول تعالى "فنفخنا فيه من روحنا" أى بواسطة الملك وهو جبريل، فإن الله بعثه اليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه فى جيب درعها فنزلت النفخة فولجت فى فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام[٣٩].

إذن فقد ذكرت الروح كما رأينا فى عشرين آية، وذكرت فى آية واحدة مرتين (الإسراء ٨٥)، ولقد استعرضنا الآيات كلها لنصل الى كل معانى الروح التى وردت فى القرآن وفى كتب التفسير وهى كالتالى :

١-جبريل.

٢-القرآن الكريم.

٣-روح بنى آدم.

٤- الاسم الأعظم الذى كان عيسى عليه السلام يحيى به الموتي.

٥-ملك عظيم من الملائكة.

والملاحظ أن كتب التفسير لم تخض كثيرا فى كنه الروح وطبيعتها، واقتصرت فى تناولها على ما ذكره الصحابة والتابعين من معان لغوية، وربما يرجع هذا لطبيعة الروح وكونها كيان غير محسوس (غيبي)، ولإيمانهم بأن علمها عند الله والخوض فيها أكثر مما ينبغى يحمل مخاطر كثيرة[*]

[*] وهذا هو الأولى فالصحابة أعلم الخلق وأتقاهم لله تعالى، وما يرد حولها من تفسير كتفسير الغزالى والمتاخرين من أقسام وأنواع وتعاريف، فلا دليل لهم على هذا لأن الله سبحانه وتعالى قطع العلم هنا وقصره عليه ... وكنه الروح لا يخضع لتفسير أو تأويل لأنها أمر غيبى تعبدى، فيحسن بالعاقل الرشيد أن يتوقف عند حده العلمى والفهمى (دكتور / صالح اللحيدان).

الفصل العاشر

مستويات الإدراك



مستويات الإدراك

الإدراك هو تلك العملية العقلية التى يتم عن طريقها معرفتنا للعالم الخارجى وذلك عن طريق المثيرات الحسية. هذا هو تعريف علم النفس الغربى للادراك، وفى الحقيقة فان التعريف يبدو مختزلا الى حد كبير ولكنه يتفق مع النظرة المادية للوجود التى ينتهجها الغرب. وعلى الرغم من الاضافات المفيدة التى أضافتها مدرسة الجشتالت من حيث العوامل الذاتية الموضوعية المؤثرة فى عملية الادراك إلا أنه قد بقيت هناك مساحة هائلة لم تدرك فى هذا الموضوع.

أما فى المفهوم الاسلامى فان الادراك أكبر وأعمق من ذلك بكثير، فتعالوا نرى ماذا يعنى الادراك فى ذلك المفهوم الشامل : "الادراك هو تلك العملية النفسية التى يتم عن طريقها معرفتنا للعالم الخارجى والعالم الداخلى وعالم الملكوت، وذلك عن طريق المثيرات الحسية والاستبطان (الاستقراء الداخلي) والتأمل فى ملكوت الله".

آلية الإدراك :

يتم الادراك عبر مراحل ومستويات متصاعدة بعضها معروف من خلال الدراسات الفسيولوجية وبعضها مازال مجهولا حتى الآن. ويمكن أن نوجز خطوات الادراك كالتالى :

(١) استقبال المؤثر الخارجى :

عن طريق الحواس مثل السمع والبصر والشم واللمس والتذوق. ولابد أن تكون هذه الحواس سليمة حتى تستقبل تلك المؤثرات، وهذه الحواس تحتوى على خلايا عصبية مستقبلة تحول المؤثرات الى سيالات عصبية تنتقل عبر محاور هذه الخلايا (الألياف العصبية) الى المخ سواء بطريق مباشر أو عبر نقلات عصبية اخرى.

(٢) القشر المخى الأولى :

تصل السيالات العصبية حسب نوعيتها الى مراكز خاصة فى قشرة المخ فتحدث تأثيرًا مطابقًا لما حدث على الخلايا المستقبلة فى أعضاء الحس.. ولكن هذا التأثير ما زال بدون معني. فمثلا العين تستقبل صورة الشمس فتقع على الخلايا العصبية الموجودة فى الشبكية لتنقلها عبر عصب البصر (العصب الدماغى الثاني) إلى مركز الإبصار فى المخ (المنطقة ١٧) وبهذا تستقبل صورة جسم متوهج مضيء. أما ماهية هذا الجسم ووظائفه وارتباطاته فتحتاج لمراحل أخرى من الإدراك.

(٣) القشر المخى الثانوى :

وظيفته زيادة تكثيف الاشارة العصبية التى وصلت الى القشر المخى الاولي.

(٤) المناطق المرافقة (Association Areas):

وهذه المناطق وظيفتها ترميز الاشارات العصبية الواردة وعمل إصدار موجى موجه نحو منطقة ما غير معروفة حتى الآن. وقد كان يعتقد قبل ذلك ان عملية الادراك تتم بالكامل فى القشر المخى والمناطق المرافقة حيث يتم استقبال الاشارات العصبية الناتجة عن المؤثر الخارجى ويتم اعطاءها معنى وربطها بمخزون الذاكرة. ولكن الدراسات الدقيقة ومتابعة حالات اصابات المخ اثبتت أن هذا لا يتم فى هذه المناطق من المخ، بل ونفت تلك الدراسات حدوث هذا الادراك فى أى منطقة أخرى من المخ (راجع النظرية الروحية للدكتور/ راتب عبد الوهاب السمان، صفحة ٦٠، ٦١) اذن فهناك افتراض بأن الادراك وباقى العمليات النفسية المعقدة الاخرى لا تتم فى المخ وإنما تتم فى مكان آخر. وقد أيد هذا الافتراض أن تلف أجزاء كثيرة من المخ لا تؤثر فى هذه العمليات النفسية تأثيرا بالغا وان كان ثمة تأثر فهو راجع فقط الى تلف أجهزة الارسال والاستقبال (وهى ممثلة فى المخ والاعصاب الواردة اليه والصادرة منه) أما القدرة على الادراك والتفكير والتذكر فهى قدرة خارجة عن حدود المخ ذاته، فالمخ ليس هو وحدة المعالجة المركزية للمعلومات كما كان يعتقد وإنما هو أداة ادخال وإخراج معلومات وأوامر فقط.

ولكن أين تتم العمليات النفسية المركبة والمعقدة، أو بمعنى آخر أين توجد الوحدة المركزية لمعالجة المعلومات لا أحد يعرف حتى الآن. ولكن هناك ثلاثة افتراضات :

١- الافتراض الأول :

ان هناك مكان ما بالمخ تتم فيه هذه العمليات ولكن هذا المكان من الدقة والتعقيد بحيث ان الابحاث الحالية بالاجهزة المتاحة لم تصل إليه بعد.

٢- الافتراض الثانى :

إن وظيفة المخ فى عملية الادراك تتوقف عند عملية الترميز والإصدار الموجى ثم ترسل هذه الاشارات الى وحدة المعالجة والتحكم المركزية خارج المخ. وقد افترض بعض العلماء (راجع النظرية الروحية للدكتور / راتب عبد الوهاب السمان) ان هذه العمليات المعقدة تتم فى الروح.

٣- الافتراض الثالث :

وهو مبنى على ملاحظة هامة لبعض آيات القرآن الكريم حيث يرد ذكر السمع والبصر مقرونا بالفؤاد أو القلب :

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٦).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦).

ففى هذه الآيات اشارة الى مسئولية القلب عن عملية الادراك الواعي. أما ماهية هذا القلب، وهل هو العضو المعروف الذى يضخ الدم فى الشرايين أم انه شيء آخر ؟ كل ذلك مازال يحتاج الى كثير من البحث والتأمل.

(٥) التفكير :

ثم تأتى مرحلة التفكير وهى عملية معقدة تربط بين وظائف كثيرة مثل الادراك والذاكرة والعاطفة.. الخ فالتفكير يجرى عملية تفريق بين المدركات المتباينة وتجميع للمدركات المتشابهة وربط الاشياء المدركة بوظائفها وأهدافها ومنافعها وأضرارها... الخ، فمثلا بالتفكير نعرف ان الشمس تطلع فى الصباح وتغرب فى المساء وانها تتكون من مواد ملتهبة ناتجة عن تفجرات هيدروجينية وإن الأرض تدور حولها هى وباقى كواكب المجموعة الشمسية. والعمليات السابقة كلها تشير الى ادراك العالم المحيط بالانسان والذى يقع على الحواس .. وهذا ليس هو كل الادراك.

ولقد ميز القرآن بين نوعين من الإدراك :

١-ادراك خارجى عن طريق الحواس.

٢-ادراك كلى (خارجى وداخلى وملكوتى) عن طريق الفؤاد (القلب)، والقلب هنا يعنى الجوهر أو العقل الواعي.

والادراك الخارجى يكون هو الغالب فى مراحل التطور الاولى أى فى الطفولة وذلك يتضح من ترتيب ادوات الادراك فى قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل ٧٨).

فنجد أن السمع والابصار - وهى وسائل حسية لازمة لادراك العالم الخارجى - قد ذكرت قبل الفؤاد الذى هو وسيلة الادراك الكلى الشمولى الواعي.

ولكن مع نضج الانسان يتغير ترتيب أدوات الادراك (وبالتالى مستوياته) كما يتضح في الآية التالية :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦).

ويتضح أيضا من هذه الآيات ان القلب هو مركز الادراك لواعى فى الانسان، وبدونه يتشوش ويضطرب الادراك حتى ولو كان الانسان يسمع ويبصر. ولقد حث القرآن على تنمية قدرة الادراك الكلى فى عدة مستويات كما يتبين من الآيات التالية :

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات ٢٠-٢٢).

ففى هذه الآيات توجيه للادراك فى مستوى الارض وما تحويه من آيات يتأملها ويتفكر فيها الموقنون أى أصحاب اليقين والعقيدة فى ا لله، ثم توجيه آخر للادراك على مستوى النفس وفى أنفسكم) ثم توجيه ثالث للادراك على مستوى السماء (وفى السماء رزقكم وما توعدون) اذن فقد اكتملت فى هذه الآيات مستويات الادراك الثلاثة :

١-الادراك الخارجى عن طريق أدوات الحس لما فى الارض من ظواهر وآيات.
٢-الادراك الداخلى (الذاتي) بالنظر والتأمل للنفس وما فيها من مكنونات وأسرار.
٣-الادراك الملكوتى لتلك القوى الالهية السماوية التى تقسم الارزاق واليها المعاد.

وإدراك هذه الاشياء يبدأ بالحواس وينتهى الى القلب.. ولكن فى بعض الأحيان يتم الادراك فى القلب من غير طريق الحواس كما سنرى فيما بعد.

ولكى تكتمل عملية الادراك بشكل يليق ببشرية الانسان وخلافته لله فى الارض يلزم لها الشروط التالية :

١-حسن استخدام الحواس الخمس فى الملاحظة والتدقيق فى كل ما يحيط بالانسان من مظاهر وآيات ومخلوقات حيث إن هذه الاشياء مسخرة لخدمته، فعليه بالاستفادة منها ليحقق الخلافة فى الارض. أى على الانسان أن يشحذ حواسه كلها فلا يعطلها أو يشوهها باستخدامها فى غير وظيفتها (كاستخدام البصر للنظر الى الحرام أو استخدام السمع للتصنت والتجسس، فهذا تشويه والحراف للحواس يمنع الاستفادة منها).

٢-سعة الادراك بحيث يشمل المستويات الثلاثة التى ذكرناها فلا يقتصر على احدها ويتعامى عن المستويات الاخري. ولو نظرنا الى انسان ذلك العصر الذى تربى على الثقافة الغربية لجده يستخدم مستوى الادراك الخارجى معظم الوقت والداخلى (الذاتي) بعض الوقت ويتعامى بالكامل (يغلق حواسه وقلبه) عن مستوى إدراك الملكوت الاعلي.

٣-التفكير الرشيد فى كل المدركات وكيفية الاستفادة منها وتسخيرها فيى خدمة قوى الخير فى الارض بهدف عمارتها.

٤-التفكر : وهو مرحلة اعلى من التفكير، إذ أن التفكر يرى المعانى الأعمق للمدركات ويربط كل المستويات فى صورة كلية شاملة، فبالتفكر يعرف الانسان لماذا خلق ولماذا يعيش وآلى أين ينتهي، وما هى رسالته وغاياته، ويضع الحياة الحاضرة فى حجمها الحقيقى بالنسبة لما قبلها وبالنسبة لما بعدها. والتفكر عملية عقلية قلبية ايمانية واعية ولكنها للأسف غائبة عن علم النفس بوجه عام ومرفوضة بشكل مباشر أو غير مباشر فى علم النفس الغربى بوجه خاص. وهو مع ذلك ضرورة وجودية تحفظ للانسان اتزانه وتناسقه وسط هذا الكون بما يحويه من وجود مادى ووجود غيبي، ويعطى فوق هذا معنى ومغزى يحمى الانسان من دوار اللامعنى وخوف المجهول الذى يؤرقه فى اعماق اعماقه.

ويقول ابن القيم فى معرض حديثه عن الروح "وقالت طائفة : للمؤمن ثلاثة أرواح. وللمنافق والكافر روح واحدة.

وقال بعضهم : للأنبياء والصديقين خمس أرواح" انتهي.

ويمكن القياس على ذلك بالقول بأن للمنافق والكافر مستوى واحد للادراك وهو المستوى الدنيوى (المادى، النفعي) أما المؤمن فانه بأرواحه الثلاثة يستوفى المستويات الثلاثة للادراك التى تحدثنا عنها، وأما الانبياء والصديقين فإن لهم بالطبع مستويات ادراك ومشاهدة وكشف تزيد عن عامة المؤمنين.

مستويات الإدراك والصحة النفسية :

ربما يسأل سائل : وهل هناك علاقة بين تعدد واتساع مستويات الادراك وبين الصحة النفسية ؟ والاجابة : نعم، فكلما تعددت واتسعت مستويات الادراك صاحب ذلك مستوى عاليا من الصحة النفسية والعكس صحيح. ولنأخذ مثالا بسيطا لبيان ذلك :

نفترض أن هناك شخصان احدهما مؤمن والآخر غير مؤمن، وكلاهما



أصيب بمرض السرطان، وأصبح كلاهما مشرف على الموت فماذا يكـون حـال كـلا منهما؟

بالطبع سنجد غير المؤمن جذع قلق، يشعر بأنه سيفقد حياته ويفـارق أولاده وأموالـه وكـل شيء.. أى أنـه قـد خسـر كـل شيء ولم يكسب أى شيء.. وهـذا الشخص فى الغالب يصـاب بحالـة اكتئـاب شـديدة وربمـا انتحر ليتخلـص مـن آلام السرطان وعذابه النفسى. والسبب فى ذلـك أن ادراكـه لا يتعـدى الواقـع الدنيـوى المادي، وطبقا لحسابات هذا الواقع تكون خسارته فادحة.

أما المؤمن فسوف يتحلى بالصبر فى مواجهة مثل هذا الموقـف لانـه بادراكـه الواسع والمتعدد المستويات سوف يرى هذه الازمـة فـى حجمهـا الطبيعـى حيـث إنـه يعلم ان الحياة لابد فانية وأن هذا اختبار من الله وستكون نتيجته تكفير ذنوبـه ورفـع درجاته عند ربه بالصبر والرضي، ويعلم أنه مقبـل علـى ربـه بـالموت فهـو ذاهـب الى حياة اخرى يأمل أن تكون ارحب واعظم فهو يرجو رحمة ربه ويأمل فى دخول الجنة. إذن فاتساع الادراك بهـذا الشـكل عنـد المؤمـن سـوف يجعلـه صـابرا محتسبا راضيـا مطمئنا برغم ما يعانيه من مرض وآلام.

اذن فالنفس الملحدة تشقى بضياعها وحيرتها فـى حياتهـا وعنـد موتهـا، أمـا النفس المؤمنة فهى تطمئن وتأنس فى حياتها وعنـد موتهـا الى جـوار ربهـا : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر ٢٧ - ٣٠).

الإدراك بين الحواس والقلب :

هل الادراك يبدأ بوقوع المؤثر على الحواس ثم ينتقل الى المستويات الاعلى لإدراكه، أم أن الادراك يتم بتوجيه من القلب للحواس ؟

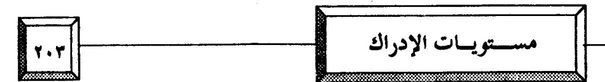
وهـل الادراك عمليـة جزيئيـة (Molecular) ، أى تجميـع لجزئيـات المثـير الواقعة على الحواس أم أنه عملية كلية (Holistic) وكتليه (Molar) ؟

إن علماء نفس الحواس[1] نظروا الى الادراك باعتباره يتكون من الانطباعات الحسية الدقيقة والعديدة التى تطبعهـا المثيرات الحسـية علـى أعضـاء الحـس كـالعين والاذن. ومن المعتقد أن الجهاز العصبى يستجيب بطرق موازية للمثيرات الحسية التى تؤثر على أعضاء الحس، فيوازن وينظم هذه الانطباعات فى داخل المـخ. ومثـل هـذه

النظرية تعتبر جزيئية (Molecular) فى توكيدها. وعلى النقيض من ذلك نظر جيبسون (Gibson, 1966) الى الادراك بطريقة كلية (Molar) باعتباره العملية النشطة الايجابية للبحث عن معلومات عن البيئة. وقد عبر عن ذلك قائلا :

«إن الأعين والاذن والانف والفم والجلد يمكنها أن توجه وتكشف وتفحص. فهى عندما تنشط لا تكون حواسا سالبة أو مجرد مسالك لصفة حسية، ولكن طرقًا لتوجيه الانتباه لما هو ثابت فى المواقف المثيرة المتغيرة.. ففى الاستكشاف عن طريق النظر والتذوق واللمس تكون الانطباعات الحسية أعراضا طارئة للاستشكاف، أما ما يتم عزله فهى المعلومات المتصلة بالشيء الذى ننظر إليه ونتذوقه أو نلمسه..».

والقرآن يوضح التأثير التوجيهى للقلب على الحواس حيث يقول الله تعالي:



﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦).

وهنا يبدو التأكيد على دور القلب الموجه للسمع والبصر وبيان أن القلب إذا لم يؤد هذه الوظيفة فإن الحواس تفقد فاعليتها الادراكية حتى وإن كانت سليمة من الناحية العضوية وتؤدى وظيفتها الاستقبالية (الاحساسية).

مراحل النمو الإدراكى والتفكيرى :

يبدأ الادراك الحسى الحركى عند الطفل منذ شهوره الاولي، ويكون عاما بلا تمييز فى المراحل الاولى من عمر الطفل، فهو لا يفرق بسهولة بين ذاته وبين العالم المحيط به، ولا يفرق بسهولة بين الاشياء وبعضها البعض. ثم تنمو قدرته على التمييز مع نموه النفسى والعقلى الى أن يصل الى سن سنتين حيث تبدأ المرحلة التصورية.

وقد افترض جان بياجيه (Jean Piaget 1952) وجود مرحلتين أساسيتين لتطور الادراك والتفكير العقلى هما :

(١) المرحلة الحسية الحركية (Sensorimotor) :

وهى تمتد من الميلاد حتى السنة الثانية، حيث يكون إدراك الطفل وتفكيره قائم على الحس المباشر بالأشياء ويقسم بياجيه هذه المرحلة الى ستة مراحل فرعية هى :

١ -مرحلة الأفعال المنعكسة : مثل مص الثدى والحركات المنعكسة الاخرى. وهى تمتد من الميلاد حتى نهاية الشهر الأول.

٢ -مرحلة الاستجابات الدائرية الاولى : وفيها يقوم الطفل بحركات تكرارية بسيطة

ليس لها هدف واضح كبسط اليد وقبضها أو العبث بملابسه أو غطائه. وهذه تمتد من شهر الى أربعة أشهر.

٣-الاستجابات الدائرية الثانوية : وفيها يقوم الطفل بأفعال اكثر قصدا وتحدث تغيرات سارة فى بيئته، وهى تمتد من الشهر الرابع الى الشهر السادس.

٤-التآزر بين الاستجابات الثانوية : وفيها تبدأ عملية تجميع لاستجابات بسيطة تعلم الطفل السيطرة عليها من قبل، كأن يقوم بأداء عدة حركات للوصول الى شيء معين والامساك به ثم اللعب به. وهى تمتد من الشهر السابع الى الشهر العاشر.

٥-الاستجابات الدائرية الثلاثية : وفى هذه المرحلة يدرك الطفل استقلال ذاته عن العالم المحيط به، ويدرك أن لديه قدرة على إحداث تأثيرات فى الاشياء المحيطة به، فيبدأ بمحاولات تجريبية لهذا التأثير، وإذا أخطأ فإنه يعاود المحاولة بطرق أخرى.. وهكذا. وهذه تمتد من الشهر الحادى عشر حتى الشهر الثامن عشر.

٦-التجميعات العقلية : وهنا يصل الطفل الى درجة من التفكير الاستبصارى وإدراك الآثار التى يحدثها. وهذه المرحلة هى فترة الانتقال من المستوى الحسى الحركى فى الادراك والتفكير الى المستوى التصورى. وهى تمتد من الشهر الثامن عشر حتى نهاية السنة الثانية من العمر.

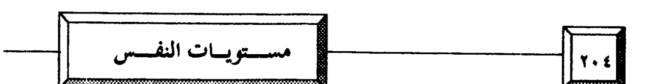
(٢) المرحلة التصورية (Conceptual) :

فى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى استعمال الرموز واللغة ويبدأ فى التفكير المستقل نوعا ما عن الوجود الظاهر للأشياء. وتزداد قدرته على التجريد مع تقدمه فى العمر.

ويسير النمو الإدراكي، من وجهة نظر فرنر (Werner, 1954) دائما من العمليات غير المتميزة الى الأكثر تمايزا، وأخيرا الى العمليات المتكاملة عند أعلى المراحل النمائية تقدما[٢].

المثير الخارجى كما يدركه الفرد : (النظرية الظاهراتية فى الإدراك) :

إن أدراك الفرد للمثير الخارجى ليس إدراكا مجردا وموحدا بين كل الناس، ولكنه إدراك من خلال تصورات الفرد ومفاهيمه، وهذه نقطة هامة أغفلها السلوكيون حين ادعوا بأن حياة الانسان وسلوكياته قائمة على التعلم من خلال نظم الاستجابات للمثيرات الخارجية. وعلى نقيض نظرة السلوكيين كانت هناك مجموعة من نظريات الشخصية تعرف باسم النظريات "الظاهراتية" (Phenomenological) تعتمد على التركيز والادراك أكثر مما تعتمد على التعلم. فهم يقولون أن إدراكنا



للأشياء لا يتماثل بالضرورة مع الأشياء ذاتها. فحواسنا لا تنقل مباشرة الاشياء الطبيعية، وإنما نحن نستجيب لتصورات Representations الاشياء، أعنى الاشياء على نحو ما تنقلها أجهزة إدراكنا، كوسائط، وكذلك تفسيراتنا الذاتية لها. فالظاهراتى يذهب الى أن الاشياء الطبيعية ذاتها لا تحدد استجاباتنا، وإنما الذى يحددها هو الأبنية والعمليات الوسيطة داخل الفرد والتى تنقل المثيرات الطبيعية. ومن وجهة النظر هذه، فإن أسباب أفعالنا يجب إعادة تكوينها من خلال استدلالات عن هذه الوسائط أو التصورات السيكولوجية للمثيرات الخارجية[٣].

ويمكن القول بأن هناك تفاعلا يتم بين مستويات الادراك المختلفة (النفسى والخارجى والملكوتى)، وأن استقبال المثيرات واستقبال الأحداث واستقبال صورة العالم ككل والاستجابات لهذه الاشياء تمر عبر التفاعلات بين المؤثر الخارجى وبين مستويات الادراك من ناحية، وعبر التفاعلات بين مستويات الادراك وبعضها البعض من ناحية أخرى.

النظرية التعرفية والادراك (Cognitive Theory) :

"طبقا لمفاهيم هذه النظرية فإنه يوجد فى الانسان مراكز تعرفية يمكنها أن تحلل المعلومات القادمة، ثم تحولها الى مراكز أخرى تقوم بمعالجة هذه المعلومات وذلك على خلفية من الطرائق الموروثة أو المتعلمة، وعلى خلفية من الذكريات والمعلومات المكتسبة"[٤].

ويبدو هذا المفهوم قريبًا مما افترضناه بأنه يحدث إدراك أولى على مستوى العقل حيث يقوم بالتعرف وتحليل المعلومات، ثم يحدث الادراك الثانوى على مستوى القلب والذى يقوم بمعالجة المعلومات بناء على خلفيته التعرفية والعاطفية والحدسية الفطرية بالاضافة الى أبعاد الزمان والمكان.

ولكن النظرية التعرفية لا تعترف بشيء اسمه العقل أو القلب ولا تعترف بالقوى غير المحسوسة، وإنما : "يعتقد أصحابها أن الذى يقوم بكل العمليات التعرفية والتذكرية ومعالجة المعلومات هو المخ، وهم يحاولون من خلال الدراسات الحيوية النفسية (Biopsychology) الوصول الى مراكز وكيفية حدوث هذه العمليات ضمن الخلايا الدماغية"[٥].

التقليد وأثره على الإدراك :

لاشك أن للتقليد وظائف نفسية هامة وخاصة فى مجال التعلم. فبواسطة التقليد يتعلم الطفل الصغير كيف يتكلم وكيف يأكل وكيف يلبس وكيف يكتب

وكيف يمشي وكيف يتعامل مع الناس ... الخ، فكثير من أنشطة الانسان يتعملها عن طريق تقليده للأم أو الأب أو المدرس أو الصديق أو الرئيس أو المشرف.. الخ.

ولقد استفاد أصحاب المدرسة السلوكية من هذه الخاصية كثيرا في تعليم الحيوان والانسان الكثير من المهارات عن طريق التقليد المدفوع بالحافز.

والتقليد يجعل هناك مناطق اتفاق كبيرة بين الأجناس والمجتمعات.. بحيث إذا غاب التقليد فإن كل حيوان وكل انسان سيكون له نمط خاص في حركته وفي لغته وفي سلوكه، وهكذا تتعارض هذه النشاطات مع الآخرين ويصبح الوجود مستحيلا. أما في وجود التقليد فانه يكون هناك لغة مشتركة لكل جنس أو مجتمع، وتكون هناك عادات متفق عليها، وتقاليد يقوم عليها الجميع فيصبح التفاهم ممكنا والتعاون سهلا.

والتقليد صفة مشتركة بين الانسان والحيوان، فكلاهما يكتسب كثيرا من خبراته بالتقليد، ولكن الانسان يتميز عن الحيوان بمراحل أعلى من ذلك بدليل أن الانسان يتطور على مدى العصور والحيوان كما هو.

أما الوجه السلبي للتقليد فهو أن يسود كل أوجه حياة الانسان، لأنه بهذا يمنعه من الاستفادة من مزايا العقل والحرية والاختيار؟، تلك المزايا التي تفرق الانسان من الحيوان. وإذا بالغ الانسان في التقليد فإنه بذلك يعطل عقله ويعطل تفاعل حواسه مع هذا العقل. فتتوقف وظائف السمع والبصر على ظواهر الأشياء ومحاكاتها ويفقد الانسان قيمتهما الادراكية العليا حين يتفاعلان مع العقل والقلب. وإن خطورة طغيان التقليد تكون أكثر حين يكون هذا في مجال قضايا وجودية عليا تخص مصير الانسان مثل قضايا الإيمان والكفر.

ولقد ندد القرآن بالتقليد الاعمى وتعطيل وسائل الادراك العليا بقوله :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (البقرة ١٧٠).

فهؤلاء الصنف من الناس لا يريدون استعمال وسائل إدراكهم وفهمهم لطبيعة وجودهم ومنهج حياتهم وقضية الايمان الصحيح، بل هم يتبعون المناهج المستقرة والثابتة التي ورثوها عن آبائهم ولا يريدون إعمال عقولهم في هذه القضايا إيثارا للراحة والتقليد الأعمي.

والقرآن يتساءل بصيغة الاستغراب والتعجب :

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٧٠).

ومن هنا تبرز ضرورة مراجعة مفاهيم الآباء والأجداد وتفحصها وإعادة تصحيح ما يثبت خطؤه منها، وهذه إحدى مزايا الانسان التى يتميز بها على سائر المخلوقات، فهو المخلوق الوحيد الذى لديه القدرة على التفكير الحر والاختيار والارادة، وتصحيح مفاهيمه وتصحيح طريقه، وإذا فقد هذه الخاصية هبط الى مرتبة الحيوان، لأنه بذلك يكون قد عطل الوظائف النفسية العليا التى تميزه وهى الادراك العميق والتفكير والتعقل. والقرآن يضرب المثل لهذا بحال من كفروا بالحق وعطلوا حواسهم عن استقبال دعوة الرسول لهم اكتفاءا بما استقر لديهم من معتقدات آبائهم:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٧١).

فهم أشبه بقطيع من الحيوانات يتبعون صوت الراعى المبهم بلا معنى ولا تعقل، فقد تعطل تمييز سمعهم وبصرهم وعقولهم وكل وسائل إدراكهم ومعرفتهم. والقرآن لا يكتفى فقط بتشبيههم بالحيوانات بل إنه يقرر أنهم أشبه بأدنى أنواع الحيوانات :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال ٢٢).

ويشبههم أيضا بالأموات :

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (الروم ٥٢).

إذن فتعطيل الادراك وإغلاق منافذه هو قتل لإنسانية الانسان وقتل لأهم مظاهر حياته. وأهم جوانب هذا الإدراك هو إدراك معنى وجوده وغاياته وإدراك البعد الاخلاقى والايمانى والروحى لأن هذه الأبعاد من الادراك هى المميزة للانسان عن الحيوان، أما الاكتفاء بادراك العالم المادى (كما هو الحال فى الحضارة الغربية) فهو هبوط بمستوى الانسان بصرف النظر عن مستوى ما يحققه من تطور فى عالم المادة.

تأثير الجماعة على إدراك الفرد :

يعتقد بعض الناس أن عملية الادراك بالنسبة للفرد هى عملية ثابتة ومطلقة، وخاصة للمؤثرات البسيطة كالتى نراها بالعين أو نسمعها بالإذن مثلا.

ولقد حاول شريف (١٩٣٥)[٦] (sheriff, 1935) فى تجربة مشهورة

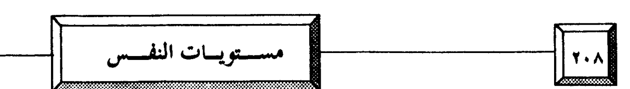
دراسة تأثير الجماعة على عملية إدراك الفرد. فقد طلب شريف من المفحوصين تقدير الحركات الظاهرية لنقطة صغيرة ثابتة من الضوء. وعند عرض مثل هذه النقطة الصغيرة من الضوء فى غرفة معتمة تماما دون وجود أى نقطة مرجعية، كانت هذه النقطة تبدو متحركة، وقد أطلق شريف على هذه الظاهرة اسم "أثر الحركة الذاتية" ويختلف مدى ونمط هذه الحركة من شخص لآخر، كما تتحدد بعوامل سيكولوجية داخلية خالصة. وعندما يقوم المفحوصون بالعمل فرادى عددا من المحاولات، كان كل فرد منهم يكون لنفسه أثرا ثابتا مميزا "للحركة الذاتية" فقد يقرر شخص ما حدوث حركة قليلة نسبيا (عددا قليلا من البوصات) فى اتجاه معين، على حين قد يقرر شخص آخر حدوث حركة كبيرة فى اتجاه مخالف. ويصبح هذا معيار الشخص الذاتى الذى يتكرر باستمرار من محاولة لأخرى.

ومع ذلك فعندما يعمل المفحوص فى جماعات من شخصين أو ثلاثة، ويعلن كل واحد منهم حكمه بصوت مرتفع نجد حدوث تأثير ملحوظ لأحد الأفراد على الآخرين. وبالتدريج تظهر معايير للجماعة بدلا من المعايير الفردية. ويميل معيار الجماعة الى تمثيل الحل الوسط بين المعايير الفردية، مع ميل الحالات المتطرفة من حيث درجة الحركة المقدرة ونمطها الى الاتجاه نحو الوسط، إن مفحوصى شريف الذين كانت لهم خبرة سابقة بظاهرة الحركة الذاتية والذين تكونت لديهم معاييرهم الفردية قد أخذوا بالتدريج يتخلون عن معاييرهم الفردية استجابة لسلوك الجماعة. أضف الى ذلك أن هذه المعايير الجماعية قد استمرت حتى بعد أن سمح للمفحوصين بعد ذلك أن يعملوا فرادى.. وبعبارة اخرى ان المعايير الفردية تتلاشى دائما خلال التفاعل الاجتماعى مع تبنى الافراد فى نهاية الأمر لمعايير الجماعة، واستمرار هذا المعيار فى الموقف الفردى. (انتهى).

إذن فإيحاءات وضغوط الجماعة لها تأثيراتها فى إدراك الفرد، ولهذا وجه ايجابى وآخر سلبى :

(١) الوجه الإيجابى :

أنه يمكن توظيف تأثير وضغط المجتمع كوسيلة لتعديل سلوك الافراد وخاصة الشاردين عن الخط العام للمجتمع بحيث أن المجتمع الصحى يعتبر وسطا علاجيا لتعديل السلوك، وهذا واقع ملموس. ليس هذا فقط، بل إن المجتمع إذا كان يمشى فى خط صحيح فإنه سيدفع كثيرا من أفراده الى الإبداع فى نفس هذا الاتجاه الصحيح، وبذلك تتزايد القوى الايجابية فى هذا المجتمع وتتحسن صفات الفرد فيه من خلال تدعيم المجتمع ومن خلال التغذية المرتجعة التى يحس بها الافراد.



(٢) الوجه السلبى :

يمكن على الجانب الآخر أن نجد انحرافا فى إدراك الفرد (وبالتالى سلوكه) ويكون هذا الانحراف ناتجا عن تأثير مجموعة غير صالحة من الناس يعيش وسطها هذا الفرد. وكمثال لهذا، المجموعات ذات السلوك السيكوباتى فى السجون والتى تؤثر تأثيرا سلبيا على إدراك وتفكير وسلوك أفرادها.

ولذلك، لكى تتم عملية إدراك صحيحة يلزم لها أمرين :

(١) وجود إطار مرجعى ثابت يرجع اليه الفرد لقياس الأمور ومعرفة الصحيح من الخطأ. ومن التجربة التى أجراها شريف (والتى تحدثنا عنها) حدث اضطراب فى الادراك حين وضع الشخص فى غرفة مظلمة وعرضت أمامه النقطة المضيئة فقط وسط هذا الظلام فرآها وكأنها تتحرك (رغم أنها ثابتة). ولو افترضنا أن فى الغرفة مكان مضيء آخر يعرف الشخص أنه ثابت، فلن يحدث هذا الخداع فى الادراك. وهذا يؤكد دور الدين الصحيح كإطار مرجعى للناس، ويكون وقاية من خداع الادراك وخداع الحكم على الأمور وخداع السلوك (أما إذا كان الدين غير صحيح فإنه يزيد من خداع الادراك).

(٢) وجود مجتمع صحى يعيش فيه الانسان ويشجع فيه النواحى الايجابية فى الادراك والسلوك. وهذا يذكرنا بالمجتمع المسلم الذى بناه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى مكة ثم انتقل به الى المدينة. ومن خلال التربية الصحيحة فى هذا المجتمع استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينشئ جيلا فريدا متميزا.

وقد حاول ريتشارد س . لازاروس[٧] تفسير تأثير الجماعة على إدراك الفرد فوضع الاحتمالات التالية :

(١) الجماعة تشكل قوة على الفرد بموجب حاجته الى الانتماء وبسبب تحكمها وسيطرتها على موارده ذات القيمة.

(٢) حاجة الفرد الى توكيد الآخرين لأحكامه.

(٣) الاستعدادات الشخصية لإقامة الدفاعات واستخدامها فى المواقف التى فيها تهديد وحيث يدب صراع بين الفرد والجماعة.

وسوف نرى من تجربة أجراها أشي[٨] (Asch, 1952) التأثيرات السلبية للمجتمع الخاطئ على إدراك الفرد : فقد طلب الى مجموعة من المفحوصين مقارنة مجموعة من الخيوط المعيارية، بخيوط عديدة بديلة، وأن يعلن للمجرب فى كل تجربة عن الخيط البديل الذى يتساوى فى الطول مع الخيط المعياري. وعندما كان

المفحوص يقوم بمفرده بهذا العمل، لم تكن هناك أخطاء بالفعل مما يوحى أن هذا العمل الادراكى ليس صعبا. ومع ذلك فقد أعيد إجراء نفس العمل فى جماعة، مع وجود عديد من الاشخاص الذين أوصاهم المجرب - سرا - كيف يستجيبون بالضبط. وفى إحدى المواقف الجماعية التى تتألف من سبعة أشخاص متضامنين مع الباحث وشخص واحد فقط جعل "آشي" هؤلاء السبعة يقدمون نفس الاستجابة الخاطئة قبل أن يقوم الشخص "الحقيقي" باستجابته. وقد لاحظ أنه فى حوالى ثلث الوقت، كان المفحوص الحقيقى يعطى استجابات خاطئة وكانت تسير فى نفس اتجاه معيار الجماعة.

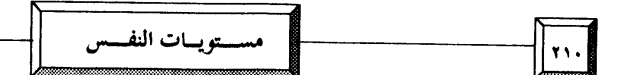
ولقد قام "أشي" بمقابلة كل مفحوص بعد الانتهاء من التجربة الاساسية التى وصفناها، ومواجها إياه بحالات استسلامه للجماعة، ومحاولا الوصول الى تفسير منه لذلك. وعند مواجهة المفحوصين بأحكامهم الخاطئة (والتى كانت نتيجة للاستسلام لضغط الجماعة)، صرح البعض أنهم ادركوا بالفعل أن المفحوصين السبعة الآخرين كانوا على خطأ، ومع ذلك فإن إجماع المفحوصين الآخرين جعلهم يشعرون بضيق عميق من جراء اختلافهم عنهم مما أدى الى استسلامهم للضغط الذى أحسوا به. وقد قرر البعض الآخر شعورهم بنفس الضيق، ولكنهم إزاء مثل هذا القدر الكبير من البيانات التى كانت ضدهم، انتهوا الى أنه ربما يكونون قد اساءوا فهم العمل المطلوب. وأخيرا فثمة مجموعة صغيرة من المفحوصين عبروا عن دهشتهم من اكتشاف أخطائهم وقرروا أنهم لا يتذكرون حدوث أى صراع أو حتى حدوث تأثر بالمفحوصين الآخرين.

وقد أوحت استجابات المقابلة هذه بأن من المحتمل وجود ثلاث عمليات مختلفة للتأثير الاجتماعى تكون متضمنة فى هذا الموقف :

(١) تهديد الاستنكار أو النبذ نتيجة الانحراف عن الجماعة والذى يحاول المفحوص التغلب عليه إما بالتمسك برأيه بصلابة رغم ما يشعر به من ضيق أو أن يستسلم مختارا للجماعة.

(٢) التهديد الذى تفرضه شكوك صحة تقدير الفرد لمتطلبات العمل، مما يدفعه الى إثبات أو نفى أحكامه والاستسلام أو عدم الاستسلام طبقا لما تسفر عنه نتيجة البحث.

(٣) التخلص من التهديد عن طريق الانكار أو الكبت، وبذلك يتكيف الفرد لهذا الموقف، ربما بدون وعى منه بما يفعل.



وفى الواقع يتعرض الانسان لتشويه إدراكه أو إنحرافه (وبالتالى تفكيره وسلوكه) نظرا لتعرضه لبث إعلامى معين أو لضغط الرأى العام أو لاتجاهات العامة. وهذا التأثير نراه بوضوح فى المظاهرات، حيث أن تجمع عدد كبير من الاشخاص فى مظاهرة ومناداتهم بمبادئ معينة يؤثر فيمن يشاهدونهم من الافراد الآخرين فيحسون بالتعاطف مع تلك المبادئ (حتى ولو كانت زائفة أو مغلوطة) ويندمجون فى المظاهرة وربما يموتون فيها من أجل مبادئ لم يتحققوا بالكامل من صحتها أو خطئها، ولكن ضغط المجموعة أثر فى توجهاتهم فاندمجوا فيها.

وإدراك المجموعة ليس دائما صحيح، فأحيانا تضطرب الرؤية العامة لمجموعة من الناس أو شعب من الشعوب ولا يفيقون من خطئهم إلا على أصوات المصلحين يصححون مسيرتهم. ولذلك يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام ١١٦).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس ٩٢).

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود ١٧).

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٦٨).

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف ١٠٣).

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد ١).

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف ٣٨).

ومن هنا نخلص أن وجود الاطار المرجعى الصحيح والثابت والمطلق شيء فى غاية الأهمية وبدونه يتوه الانسان وسط ضجيج الناس وضلالاتهم.

المعجزات ومستويات الإدراك :

لقد حدثت على مدار التاريخ كثير من المعجزات على أيدى الأنبياء والرسل مثل إحياء الموتى وشفاء المرضى وكلام الحيوانات... الخ. وقد تواترت الروايات حول هذه المعجزات بما يجعلها فى عداد المعلومات الموثقة. وحدثت كرامات لأولياء وصالحين بعد ذلك. وحدثت أيضا أشياء خارقة للعادة لأناس ليسوا بأنبياء ولا رسل ولا أولياء.

وكل يوم نسمع فى الاذاعات أو نقرأ فى الصحف عن مرضى شفوا من أمراض خطيرة مثل السرطان أو الشلل العضوى أو الجنون بشكل مفاجئ لا تفسره القوانين العلمية، وأن الشفاء أتى بعد صلاة أو دعاء أو نشاط روحى من نوع خاص.

المعجزات ومستويات الإدراك :

لقد حدثت على مدار التاريخ كثير من المعجزات على أيدى الأنبياء والرسل مثل إحياء الموتى وشفاء المرضى وكلام الحيوانات ... إلخ. وقد تواترت الروايات حول هذه المعجزات بما يجعلها فى عداد المعلومات الموثقة، وحدثت كرامات لأولياء وصالحين بعد ذلك، وحدثت أيضًا أشياء خارقة للعادة لأناس ليسوا بأنبياء ولا رسل ولا أولياء.

وكل يوم نسمع فى الإذاعات أو نقرأ فى الصحف عن مرضى شفوا من أمراض خطيرة مثل السرطان أو الشلل العضوى أو الجنوى بشكل مفاجئ لا تفسره القوانين العلمية، وأن الشفاء أتى بعد صلاة أو دعاء أو نشاط روحى من نوع خاص قام به المريض أو قام به أحد من أجله.

أضف إلى ذلك ما ثبت فعلاً من حالات توارد الخواطر والتخاطب عن بعد والحاسة السادسة ... إلخ.

وللأسف فإن طغيان نشاط العلم التجريبى فى نهاية القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين، قد غطى تمامًا على هذه الأحداث الخارقة، بل ورفضها كثير من العلماء إما لإنكارهم لها (نظرًا لاختلاطها بكثير من الأساطير والمبالغات عند العامة)، أو لكونها حالات شديدة الندرة ولا يمكن تكرارها فى العمل، ولذلك ترفض على المستوى العلمى.

ونحن لا نناقش الآن كيفية حدوث هذه الخوارق، ولا دخولها أو عدم دخولها تحت المظلة العلمية العصرية، وإنما نناقش معناها وما يمكن أن ترمى إليه، إن هذه الأحداث الخارقة، والتى تحدث خارج نطاق الحواس والقدرات المادية المعروفة تعطى الدليل على وجود عالم آخر خارج نطاق هذا العالم المادى، بل إنه متحكم وموجه ومؤثر فى هذا العالم المادى، وعلى وجود قوى هائلة ذات قدرات غير محدودة.

«إن لمثل هذه الحقائق مغزى غظيمًا .. فإنها تدل على علاقات معينة، ذات طبيعة ما زالت غير معروفة، بين العمليات السيكولوجية والعضوية ... وتبرهن على الأهمية الواضحة للنشاط الروحي التى أهمل علماء الصحة والأطباء والمربون ورجال الاجتماع دراستها إهمالاً يكاد يكون تامًا .. إنها تفتح للإنسان عالمًا جديدًا»[٩].

تعطيل وتشوه الإدراك بالذنوب والمعاصي :

يقول تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة ٦،٧)

وكما يقول ابن كثير في تفسيره : "الذين كفروا" أي غطوا الحق وستروه، فهؤلاء قد عطلوا وسائل إدراكهم. قال السدى : ختم الله، أى طبع الله، وقال قتادة فى هذه الآية : استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، وقال مجاهد : ختم الهل على قلوبهم : قال الطبع، ثبتت الذنوب على القلب فحفت به عن كل نواحيه حتى تلتقى عليه فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم[١٠].

وكل المعانى تدل على عزل القلب عن الإدراك وتعطيله عن أداء وظيفته، وأن هذا فعل إرادى يبدأه الإنسان بإرادته وعناده ويعاقبه الله بإتمام الطبع أو الختم على قلبه أى عزله عن الإدراك الصحيح للأمور.

وقال القرطبى : وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال "بل طبع الله عليها بكفرهم" وذكر حديث تقليب القلوب "يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك" وذكر حديث حزيفة الذى فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الرأن الذى قال الله تعالى : ﴿كلا بل إن على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾، وقال ابن جرير : أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها سلك، ولا للكفر عنها مخلص[١١].

الفصل الحادى عشر

مستويات التفكير

مستويات التفكير

التفكير هو عمليات (عقلية، نفسية، دماغية) يعالج بواسطتها الانسان المعلومات الواردة إلى ساحة الوعى والادراك، وهذه العمليات التفكيرية تهدف الى الاستفادة من المعلومات بأكبر قدر ممكن فى انشاء أفضل طريقة يستجيب بها الانسان للمنبهات أو للمعلومات الواردة الى ساحة الوعى أو الادراك فالتفكير هو البحث عن أفضل طريقة للاستجابة لمؤثر ما.

والتفكير هو أولى مراحل التميز بين الانسان والحيوان، فكلاهما يمتلك حواسا يستقبل بها المدركات الخارجية، ثم يتوقف الحيوان عند إصدار ردود أفعال مباشرة أو شبه مباشرة لما أدركه من منبهات خارجية تخدم بقاءه واستمرار نوعه فقط، أما الانسان فانه يتجاوز عملية الادراك المباشر هذه ويدخل المعلومات فى عملية معالجة معقدة من خلال عمليات تحليل وتصنيف وتركيب لا نهائية وينتج عن ذلك ثروة هائلة من المعلومات والرؤى الجديدة التى تثرى وجود الانسان وهذه المعلومات يتم الاحتفاظ بها للاستفادة منها من عمليات اخرى قادمة، وهكذا يتزايد النمو الفكرى للانسان مع كل تجربة يمر بها ويظل فى حالة نمو فكرى متصاعد إلى أن يموت أو تتلف خلايا الحس والمخ.

* مستويات التفكير :

ولما كان التفكير من أكثر العمليات النفسية تعقيدًا فإنه يمكن أن يقسم إلى عدة مستويات من أكثر من منظور :

١- المنظور الأول :

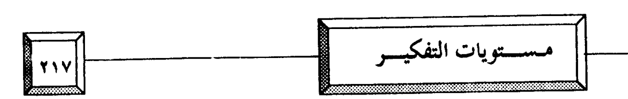
يقسم التفكير إلى شعورى ولا شعورى حسب المستوى الذى يتم فيه معالجة المعلومات.

(أ) التفكير الشعورى :

وهو التفكير الذى يقوم به الانسان فى حالة وعى كامل وبمعطيات ذهنية واضحة ويخرج من خلاله بنتائج ملموسة من خلال التحليل والتعليل والتركيب، واستنتاج النتائج من المقدمات وهذا هو أكثر أنواع التفكير شيوعًا.

(ب) التفكير اللاشعورى :

وهو يتم دون وعى من الانسان ويحدث بعد فترة تفكير طويلة ومعاناة على مستوى الشعور إلى آن ييأس الشخص من الوصول الى حل أو يؤجل عملية التفكير



لظروف أخرى أكثر ملاءمة ثم بينما هو منصرف الى أية نشاطات أخرى (أو حتى نائم) يقفز حلا للمشكلة التى كان يفكر فيها دون جهد واع منه، وهذا النوع من التفكير دليل على أن العمليات العقلية تظل تعمل بصورة مستمرة حتى دون وعى إرادى من الانسان.

٢- المنظور الثانى :

يقسم التفكير من ناحية كونه تقليديًا أو إبداعيًا إلى :

(أ) التفكير التقليدى :

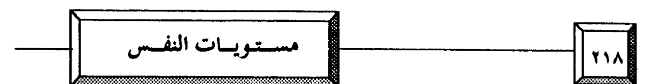
وهو السمة المميزة لعامة الناس وفى هذا النوع من التفكير يتم معالجة الموضوعات بشكل مباشر يخدم المشكلة الحالية من أقرب طريق وبأقل جهد ويميل الشخص إلى الاعتماد كثيرا على المسلمات والمعلومات الثابتة المتعارف عليها دون الغوص أبعد من ذلك والشخص الذى يعتمد هذا النوع من التفكير يهتم بكثرة المعلومات وتوثيقها ويحدد عملياته العقلية فى إطارات محددة لا يحب الخروج عنها ولا يميل الى المغامرة أو حب الاستطلاع يل يكتفى ويقنع بما تعارف عليه الناس.

(ب) التفكير الإبداعى :

ويتميز به قلة من الناس، وفى هذا النوع من التفكير يتم معالجة المعلومات على مستوى أعلى حيث تتم عمليات التحليل والتصنيف والتركيب بأكبر قدر من الحرية والسماح والمغامرة فى محاولة ايجابية خارقة لايجاد أشكال وعلاقات ورؤى جديدة، والتفكير الابداعى لا يقيد نفسه كثيرًا بالقواعد والمنطق خاصة فى مرحلة المخاض الأولى وإن كان يعود ليتشكل فى إشكال قريبة (وليست متطابقة) من القواعد والمنطق حتى يسهل توصيله إلى الناس بشرط ألا يفقده هذا التشكل جدته وأصالته، والتفكير الإبداعى يتم على عدة مراحل هى :

- فترة جمع المعلومات (التعلم الايجابى).
- فترة الحضانة : تحليل وترتيب وتفاعل المعلومات.
- فترة الالهام : حيث تقفز الحلول والرؤى الجديدة إلى الذهن.
- فترة التحقق : تجريب الحلول للوقوف على مدى ايجابيتها ونفعها.
- فترة التشكل : حيث يأخذ الحل الإبداعى شكلاً قريبًا (وليس مطابقًا) للقواعد والعرف حتى يمكن توصيله إلى الناس للاستفادة به على المستوى العام.

والفكر الإبداعى هو أعلى مستويات التفكير عند الإنسان وهو المسئول عن نمو وتطور الإنسان ككل.



٣- المنظور الثالث :

ويقسم التفكير من حيث تدرجه من البساطة إلى التعقيد إلى الأقسام التالية:

(أ) الفهم :

بمعنى فهم الانسان لما يجرى فى البيئة وفى جسمه من تغيرات بسيطة ملموسة دون جهد إيجابى.

(ب) تداعى الأفكار :

استرجاع الأفكار بتسلسل هادئ دون جهد كبير.

(ج) حل المشكلات :

وهنا يبدأ الشخص فى بذل جهد عقلى للوصول الى حل لمشكلة تعترضه ولكن بطريقة بسيطة ومباشرة.

(د) بناء المفاهيم :

وهنا يقوم الشخص بتجريد المعانى عن الاشياء المادية المرتبطة بها ثم يرتب هذه المعانى ويعطيها رموزا عامة، ثم يستخلص قواعد ومفاهيم عامة موجزة يستعين بها على القياس بعد ذلك.

(هـ) المحاكمة :

المحاكمة تعنى أن الشخص يعرض المعلومات والمشكلات الواردة على المفاهيم والقواعد التى توصل اليها من قبل ليرى مدى المطابقة أو عدم المطابقة بينها وبالتالى يستطيع إصدار حكم على ما يستجد أمامه من معلومات أو مشكلات بناء على مقاييسه التى توصل اليها ومفاهيمه التى استقرت فى وعيه.

(ن) التخيل والتصور :

التخيل هو العملية العقلية العليا التى تقوم فى جوهرها على إنشاء علاقات جديدة بين الخبرات السابقة بحيث تنظمها فى صور وأشكال جديدة لا خبرة للفرد بها من قبل، وفى هذه العملية يتم خلق تركيبات جديدة من تركيبات مفردة متنوعة سابقة.

والتصور هو عملية عقلية يتم من خلالها وضع الخطوط الرئيسية لموضوع تخيلى ليسهل بعد ذلك وضع التفاصيل. والتصور يستند بدرجة أو بأخرى لمعلومات أو خبرات سابقة ولكنه يركبها فى صور كلية.

(و) الإبداع :

ولقد سبق الحديث عنه.

٤- المنظور الرابع :

يقسم التفكير من حيث اتساع دائرته إلى المستويات التالية :

(أ) التفكير الذاتى :

وهو تفكير منحصر فى احتياجات الانسان الذاتية ودوافعه الشخصية، بحيث يكون الشخص هو مركز الدائرة التى يدور فيها التفكير. وهو نوع من التفكير الضيق الذى يحرم الانسان من التفاعل واكتساب مزيد من الخبرات.

(ب) التفكير الاجتماعى :

وفى هذا النوع يضع الشخص كل اهتمامه فى مشاكل المجتمع (القرية أو الحى أو المدينة أو الدولة) الذى يعيش فيه ويكون تفكيره محليا بدرجة كبيرة ويصعب عليه التواصل مع أفكار المجتمعات الاخرى المخالفة لمجتمعه ولذلك يشعر الشخص بجذب شديد إلى مجتمعه المحلى يمنعه من توسيع دائرة اهتمامه أو حركته.

(ج) التفكير العالمى :

وهنا تتسع الدائرة حيث يهتم الشخص بأحوال المجتمعات الأخرى على المستوى العالمى وعلى اختلاف البيئات والعادات والمعتقدات.

(د) التفكير الكونى :

تمتد نظرة الشخص وأفكاره وتأملاته إلى الكون الفسيح من حوله فيبدأ فى الإحاطة (قدر الامكان) بأسرار هذا الكون الفسيح من أرض وسماوات ونجوم وكواكب ومظاهر كونية معجزة، ثم يرى العلاقات والارتباطات بين الانسان كمخلوق يعيش على الارض وبين هذا الكون الفسيح.

(هـ) التفكير الملكوتى :

يتصاعد المجال الفكرى للانسان ليبحث فى العالم العلوى حيث الملائكة والعرش والرحمن، ويحس الانسان عظمة الله فى إبداع هذا الكون الكبير وفى تنظيم حركة اجزائه الهائلة، وفى تكريم الانسان على سائر المخلوقات، فتكتمل الصورة وتترابط الاجزاء فى ذهنه وتصحح المفاهيم والتصورات.ولا يتم التفكير الملكوتى بصورة صحيحة بعقل الإنسان المجرد فقط حيث إن هذا فوق طاقته وانما يتم من خلال المعلومات الدينية الصحيحة التى تعطى تصورا لعالم الغيب الذى لا تدركه الحواس مباشرا وإنما ترى شواهد وجوده فى كل شيء حولها.



(ن) التفكير الشامل :

وهو التفكير الذى يشمل كل المستويات السابقة (الذاتى والمحلى والعالمى والكونى والملكوتي) ويصل اليه الانسان فى اعلى مراحل تكامله والدين الاسلامى يوجه الانسان نحو هذا النوع من التفكير الشامل الواسع المتكامل ويتضح هذا من الآيات التالية :

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق ٥-٧).

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت ٥٣).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت ٢٠).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف ١٨٥).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الروم ٨).

وهذا النوع يعطى رحابة فى الرؤية ويقود المنظومة النفسية نحو أعلى مستوى للصحة النفسية.

معوقات التفكير الشامل :

المقصود بمعوقات التفكير الشامل هو توقف التفكير عند المستويات الادنى الاقل اتساعا وشمولية وبالتالى تؤدى هذه الإعاقة الى المرض النفسى ويحدث هذا للاسباب التالية :

١ - التقليد الأعمى :

الذى يحرم الانسان من استخدام عقله ووعيه مكتفيا بما تعارف عليه الآباء والاجداد دون تمحيص ويعيب الله تعالى على هذا النهج فى التفكير بقوله تعالى :

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن

﴿قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٢-٢٣).

٢- عدم كفاية المعلومات :

حين يبدأ الانسان فى التفكير فى مشكلة قبل أن تتوافر لديه المعلومات الكافية فان نتائج التفكير تأتى مشوهة ومنحرفة. ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٦).

٣- عدم ثبوت المعلومات :

وحين يلجأ الانسان الى معلومات ظنية غير موثوق بها فيتخذها مادة لتفكيره يصل أيضا إلى نتائج منحرفة.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يونس ٣٦).

٤- اتباع الهوى (التحيز العاطفي) :

إن التفكير يضطرب وينحرف إذا أحيط بشحنة عاطفية كبيرة حيث توجه هذه الشحنة التفكير فى اتجاهات ذاتية بعيدا عن الموضوعية الواقعية. يقول تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية ٢٣). فاتباع الهوى يفقد الانسان دقة الاستفادة من مدركاته السمعية والبصرية والقلبية ويقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الروم ٢٩).

٥- الإدراك الجزئي :

حين لا يدرك الانسان من هذا الوجود إلا واقعة القريب ويتغافل عن مصيره وغاياته يضيق مجال تفكيره ويتعصب لآرائه وأحيانا يصل إلى التطرف الفكري، واختزال الوجود الانسانى الى مستوياته الدنيا. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ..﴾ (النجم ٢٩-٣٠).

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم ٧).

الفصل الثانى عشر

مستويات الدوافع

«الدوافع هى القوى المحركة التى تبعث النشاط فى الكائن الحى وتبدأ السلوك وتوجهه نحو هدف أو أهداف معينة. والدوافع تؤدى وظائف ضرورية وهامة للكائن الحي، فهى التى تدفعه الى القيام بإشباع حاجاته الاساسية الضرورية لحياته وبقائه، كما تدفعه الى القيام بكثير من الافعال الاخرى الهامة والمفيدة له فى توافقه»[1].

والدوافع تشترك مع الانفعالات فى إعطاء الطاقة المحركة لسلوك الانسان. وقد اختلف الفلاسفة وعلماء النفس حول ترتيب الدوافع الاساسية عند الانسان وفيما يلى بعض الآراء حول هذا الترتيب :

الدوافع عند "ابراهام ماسلو" (١٩٥٤) :

يتصور ماسلو الدوافع على أنها متدرجة من حاجات أساسية إلى حاجات أرقى على النحو التالى :

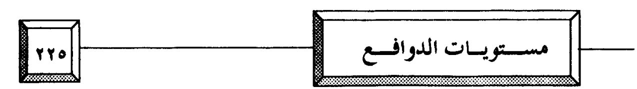
١- حاجات البقاء كالجوع والعطش.
٢- الحاجة إلى الأمن.
٣- الحاجة إلى الانتماء والحب والتقدير.
٤- الحاجة إلى تحقيق الذات.
٥- الحاجة إلى المعرفة.
٦- الحاجة إلى الجمال.

ويؤكد ماسلو أن الحاجات الأساسية الأكثر بدائية تكون أكثر إلحاحا لأنها تتصل ببقاء الانسان مثل الجوع والعطش والأمن والطمأنينة، بينما تبقى الحاجات الأعلى كامنة حتى تتوافر الظروف المناسبة لتحقيقها مثل الحاجة إلى تحقيق الذات والحاجة إلى المعرفة والجمال.

الدوافع عند "إريك فروم" (١٩٥٥) :

إن الحاجات الاساسية عند فروم تتدرج كالتالى :

١- الارتباط أو الانتماء : وهو شعور الفرد بأنه جزء من الجماعة.
٢- السمو : أى أن الانسان يسمو فوق الطبيعة الحيوانية ويصبح مبدعا.
٣- الهوية : أى أن يكون شخصا فريدا له سماته المميزة.
٤- الإطار المرجعى الثابت : أى يكون له مقياسا ثابتا يقيس به الأمور التى تعرض له.



ولو تأملنا تلك الدوافع (الحاجات) نجد أن "ماسلو" قد أغفل حاجة أساسية عليا عند الانسان وهى الحاجة الى الاعتقاد وإلى العبادة، وأيضا فعل هذا "إريك فروم"، وهم بذلك يتغافلون عن محاولة الانسان منذ بدء الخليقة للوصول إلى حقيقة الإله الذى يعبده، وهذه حقيقة انسانية عامة فى كل العصور والمجتمعات. وفى رحلة البحث هذه وجدنا حيرة الانسان فى البحث عن الإله الذى يعبده، فأحيانًا يهتدى إليه، وأحيانا أخرى يتخبط فيعبد آلهة شتى. وقد تمثل هذا البحث وتلك الحيرة فى هذا الكم من المعابد وتماثيل الآلهة التى مازالت باقية فى مصر والصين والهند.

ونحن نتساءل : هل يصح أن ينكر علماء النفس هذه الحاجة الفطرية الأساسية فى الانسان رغم هذه الأدلة ؟ ولقد كاد "إريك فروم" أن يقترب من هذه الفكرة بوصفه الحاجة الى "الإطار المرجعى الثابت"، ولكنه كان يحتاج أن يتقدم بشجاعة أكثر ليعلن ضرورة وجود الدين كإطار مرجعى عالمى ثابت.

إذن فلنحاول إعادة ترتيب الدوافع بشكل أكثر شمولية فى ثلاث مستويات هى : الدوافع الفسيولوجية (الجسدية) والدوافع النفسية والدوافع الروحية.

١ – الدوافع الفسيولوجية (الجسدية) :

لقد خلق الله جسد الانسان وفيه خاصية الحفاظ على التوازن الفسيولوجى حتى يبقى هذا الجسد فى حالة جيدة ويحافظ على بقائه، لذلك إذا نقصت فيه المواد الغذائية فإن الانسان يشعر بدافع الجوع الذى يحركه للبحث عن الغذاء، وإذا نقص الماء فى الجسد ينشط دافع العطش فيحرك الإنسان للبحث عن الماء، وإذا أحس الجسد بالتعب دفع الانسان للبحث عن الراحة، وإذا أحس بالألم دفع الأسنان لتفادى هذا الألم.

إذن فالدوافع الفسيولوجية دوافع فطرية أودعها الله فى الإنسان للمحافظة على اتزانه الحيوى للمحافظة على حفظ ذاته. ليس هذا فقط بل إن الله أودع فى الانسان أيضا دوافع فطرية فسيولوجية للمحافظة على بقاء نوعه، وهذه الدوافع هى دافع الجنس ودافع الأمومة، فدافع الجنس يدفع الانسان الى التزاوج لزيادة النسل، ودافع الأمومة يدفع الأم الى تحمل مشاق الحمل والولادة ورعاية الأبناء. فالله الذى خلق الانسان (وخلق كل شيء) قد قدر له هذا التوازن وهداه بالفطرة للمحافظة عليه :

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان ٢).

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه ٥٠).

وهذه الدوافع الفسيولوجية موجودة فى الانسان والحيوان (وإن اختلفت طرق إشباعها)، لذلك فهى رغم أهميتها توضع فى المستوى الأدنى فى ترتيب مستويات الدوافع. وهناك آيات كثيرة تتحدث عن هذه الدوافع نورد منها :

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه ١١٨، ١١٩).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة ١٥٥).

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص ٧٣).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم ٢١).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص ١٠).

فهذه الآيات تتحدث بايجاز عن دوافع الجوع والعطش واتقاء الألم والحر والتعب والدافع الجنسى ودافع الأمومة.

٢- الدوافع النفسية :

هى الدوافع التى لا يمكن إرجاعها مباشرة الى الحالات الفسيولوجية للبدن الناشئة عن وجود نقص أو حاجات بدنية كما هو الشأن فى الدوافع الفسيولوجية كالجوع والعطش والتعب. ويذهب معظم علماء النفس المحدثين الى أن الدوافع النفسية هى فى الأغلب مكتسبة على العكس من دوافعنا الفسيولوجية، أى أنهم يعتبرونها متفرعة أو مشتقة منها نتيجة تفاعلها مع خبرات الفرد وعوامل تنشئته الاجتماعية. وبناءا على ذلك فهم لا ينكرون وجود عناصر فطرية فيها، بل يذهب بعضهم، مثل إريك فروم الى القول بأن بعض الدوافع النفسية والتى يسميها فروم الحاجات النفسية مثل الحاجة الى الانتماء، والحاجة الى السمو، والحاجة الى هوية، والحاجة الى إطار للتوجيه هى حاجات فطرية أساسية فى طبيعة الانسان، وهى ليست مكتسبة من المجتمع[٢].

والأرجح أن كل الدوافع سواء كانت فسيولوجية أو نفسية أو روحية لها فى الأساس جذور فطرية، وهى تنمى وتتشكل بواسطة التوجيه الاجتماعى والفكرى والعقائدي. والدوافع النفسية كثيرة، ولكننا سوف نورد بعض الأمثلة الرئيسية لها :

(١) التملك :

إن لدى الانسان رغبة قوية لأن يتملك المال والأرض والأنعام والذهب .. الخ. ولقد أشار القرآن الكريم الى ذلك الدافع فى آيات كثيرة نذكر منها :

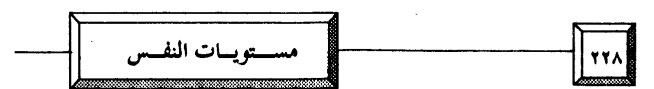
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران ١٤).

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر ٢٠).

(٢) العدوان :

إن غريزة العدوان من الغرائز الأساسية فى الانسان ولذلك جاءت الأديان والشرائع والقوانين لتحد منها وتتسامى بها الى أوجه مفيدة. والآيات القرآنية تقرر هذه الحقيقة :

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ



وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة ٣٦).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٣٠).

(٣) التنافس :

لقد أودع فى الانسان غريزة المقارنة بينه وبين أقرانه، والتسابق فى تحقيق المكاسب والأهداف. وهذه الأهداف تختلف حسب وجهة كل انسان، فأصحاب الدنيا يتسابقون الى المكاسب المادية فى حين يتسابق المؤمنون الى أفعال الخير لكسب رضا الله :

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة ١٤٨).

(٤) الانتماء :

يشعر الانسان برغبة قوية لأن ينتمى الى أسرة وإلى مجتمع بعينه أو أمة

بعينها، ويشعر بأن له جذورا عائلية أو اجتماعية أو عرقية، وأحيانا يبلغ به الأمر إلى التفاخر والزهو بانتمائه، وإذا فقد هذا الانتماء يشعر بالضياع.

(٥) الهوية :

وهى شعور الإنسان بتميزه الدينى أو الاجتماعى أو الفكرى تميزا يعطيه لونا خاصا يعتز به.

٣- الدوافع الروحية (الدوافع الأرقى) :

الدوافع الروحية هى فى الواقع جزء من الدوافع النفسية ولكنها تأتى فى قمة الدوافع النفسية، ومن هنا وضعناها فى مستوى مستقل لتمييزها عن بقية الدوافع النفسية. وهذه الدوافع هى أرقى دوافع الإنسان التى يصل إليها بعد مراحل طويلة من النمو والنضج والمجاهدة.

والدوافع الروحية لها جذورها الفطرية فى الانسان ولكن البيئة أيضا لها دور فى تنمية هذه الدوافع وتوجيهها الوجهة الصحيحة. ونذكر من هذه الدوافع على سبيل المثال :

(١) دافع التدين :

إن من يتابع حركة البشرية على مر العصور يلحظ بحث الانسان الدائم والملح عن إله يعبده ويتقرب إليه، وعن دين يتمسك به. والانسان على هذا الطريق كان يقترب أحيانا ويبتعد أحيانا أخرى عن الفكرة أو التصور الصحيح للألوهية، ولهذا السبب أرسل الله تعالى الرسل ليعلموا الناس طريقة التدين الصحيح. والدين ليس فقط عقيدة وعبادة وإنما هو إطار مرجعى ينظم حياة البشر على أفضل صورة ممكنة على المستوى البشرى. ولقد تنبه "إريك فروم" الى ذلك الاحتياج وأسماه "الحاجة الى إطار للتوجيه". ولقد أكد أيضا "ابراهام ماسلو" على حجة الانسان للدين، وإن كان تصوره للدين يغلب عليه الطابع الشخصى والصوفى على الطريقة الغربية.

وتتحدث بعض آيات القرآن الكريم عن هذا الدافع الفطرى القوى :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠).

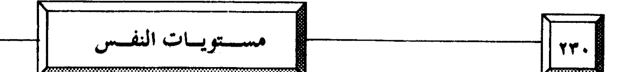
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف ١٧٢).

(٢) دافع الخلود :

من أكثر ما يشغل الانسان مصيره النهائي، ولديه الرغبة الشديدة للاستمرار (حسيا ومعنويا)، فهو لا يقنع بمدى عمره القصير، ولذلك نجد فى الآثار الفرعونية كثيرا من المخطوطات التى تعبر عن هذه الرغبة، بل إنهم كانوا يضعون أشياء كثيرة مع الميت فى قبره حتى إذا قام من موته استخدمها فى حياته الأخري، وأيضا اهتمام الانسان بالإنجاب وخاصة إنجاب الذكور هو رغبة (لا شعورية وشعورية) لإطالة ذكره وأثره فى هذه الحياة.

والخلود فى المفهوم الدينى يعنى أن هناك حياة من نوع آخر بعد الموت هى حياة البرزخ فى القبر ثم يتبعها البعث والحساب يوم القيامة حيث يصير الانسان الى الدجنة أو الى النار - حسب عمله فى الدنيا.

ولقد عرف إبليس قوة وعمق هذا الدافع لدى الانسان (ممثلا فى آدم عليه السلام) فوسوس له من هذا الطريق حتى أوقعه فى المعصية مغررا إياه بخلود خادع :

 (طه ١٢٠).

والخلود وما يحوطه من أفكار يعتبر من أكثر الدوافع الملحة فى أعماق الانسان فهو دائما يتساءل عن النهاية (لا شعوريا أو شعوريا أو كلاهما).. أهو الى فناء تام ومطلق بعد حياته الحافلة والقصيرة ؟ .. أم الى حياة أخرى من نوع خاص؟.. وما شكل هذه الحياة ؟.. وفى الواقع فانه بعيدا عن المفهوم الدينى للحياة والموت والبرزخ والبعث والخلود (فى الجنة أو فى النار) - بعيدا عن هذا المفهوم لا يجد الانسان إجابة شافية عن هذه التساؤلات الملحة حول ذلك الدافع الهام.

ودافع الخلود إذا اقترن بتصور دينى صحيح فإنه يصبح محركا لدوافع السمو الروحى والتدين الأصيل على امل أن تصبح الحياة الآخرة (الخالدة) للانسان فى أفضل صورة، ومن هنا تأتى إيجابية دافع الخلود فى تشكيل سلوك الانسان وتوجيهه نحو العمل الصالح.

(٣) دافع السمو :

كما أن الانسان لديه الدافع للهبوط انسياقا وراء الدوافع الغريزية (الأدني)، فإن لديه أيضا دافعا فطريا للسمو الاخلاقى والجمالى والروحي. فالفطرة السليمة (التى لم تتشوه) تنزع نحو معانى الحق والعدل والخير والجمال والحرية والنظام وكل القيم الرفيعة.

الدوافع بين الضبط والتوازن :

إن الدوافع تؤدى وظيفة حيوية وهامة للانسان بشرط ضبطها وتوازنها. فالدوافع الفطرية من أكل وشرب وجنس وخلافه لا يستفزوها الدين ولا يحط من شأنها ولا يكبتها، وإنما ينظمها بحيث يتم إشباعها بالطرق المشروعة وبدون إسراف :

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (البقرة ١٦٨).

﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (الأعراف ٣١، ٣٢).

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ (النساء: ٣).

يتضح من هذه الآيات التى ذكرناها أن الدين الاسلامى لا يدعو الانسان الى إنكار دوافعه الفطرية أو كبتها؟، وهو بذلك يجنبه الوقوع فى الصراع النفسى الذى ينشأ من إنكار الانسان لدوافعه وقيامه بكبتها مما يؤدى الى نشوء أعراض اضطرابات السلوك، ولكن الإسلام، مع ذلك لا يطلق العنان للانسان لإشباع دوافعه الفطرية بلا حدود، ولكنه يدعوه الى تنظيم إشباعها، والسيطرة على زمامها.

وهنا نجد نوعين من التنظيم فيما يتعلق بإشباع الدوافع الفطرية، الأول ": هو إشباعها من الطريق الحلال المسموح به شرعًا. والثانى : عدم الإسراف فى إشباعها[3].

فالإشباع المسرف للدوافع يصيب الانسان بالتخمة والترهل والتخازل وضعف الطاقة الحيوية، وعلى الجانب الآخر فإن الحرمان الشديد والكبت المطلق للدوافع يؤدى الى الشعور بالقهر والعدم واليأس، ثم ينتج عن ذلك إما موت تدريجى لتلك الدوافع المحبطة أو انفجار عكسى لها إذا سمحت الظروف إذن فالتوسط فى إشباع الدوافع الفسيولوجية هو الطريق الى الصحة النفسية ويتمثل هذا فى الآية الكريمة :

﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ (الإسراء ٢٩).

والدين الإسلامي يحث في نفس الوقت على ضبط وتنظيم الدوافع النفسية وخاصة دافعي التملك والعدوان :

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ (التوبة ٣٤).

﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (المائدة ٨٧).

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة ٢).

ولما كانت الدوافع متعددة المستويات والأنواع والاتجاهات فإن الانسان يعيش في صراع بينها وخاصة بين الدوافع الفسيولوجية والنفسية الدنيا وبين الدوافع الروحية العليا.

وإن نجاح الانسان في التغلب على هذا الصراع هو الطريق الى الصحة النفسية والروحية. أما إذا اضطرب الميزان فمال أكثر ناحية الإشباع المسرف للدوافع الفسيولوجية فأسرف الانسان في الطعام والشراب والجنس وحصر كل تفكيره واهتماماته في هذا المستوى فإنه يعيش كالحيوان، ويشتد سعادة يوما بعد يوم، وتضييع حياته بحثا عن إشباع مادى لا يصل إليه أبدا بل يدفعه الى صراع لا ينتهي. وعلى الناحية الأخرى إذا مال الميزان أكثر ناحية الجانب الروحى على حساب احتياجات الانسان الفسيولوجية والنفسية فإن الانسان أيضا يضطرب (كما يحدث في رهبانية الأديان الأخرى) حيث يعمد الى عملية استقذار ثم كبت شديد للدوافع الفطرية الفسيولوجية كالأكل والشرب والجنس وباقى احتياجات الجسم. وهذه الدوافع المكبوتة لا تموت وإنما تظل كامنة ونشطة في اللاشعور وتعبر عن نفسها في صورة اضطرابات نفسية.

إذن فخلاصة القول أن الدوافع قد أودعها الله في الانسان لتؤدى وظائف هامة (على مستويات مختلفة) مثل حفظ الذات وبقاء النوع وسمو الانسان الروحى وتطلعه نحو خالقه. ومادامت هكذا فلا يجب أن تستقذر أو ينفر الانسان من بعضها أو يكبتها، ولكنه فقط يحتاج الى أن يضبطها وينظم نشاطها. وهناك فرق كبير بين كبت الدافع وضبطها، فالكبت يعنى استقذار الدافع وتحقيره والقائه في غياهب اللاشعور حيث يحدث ضغطا يتزايد مع الوقت ويحدث كثيرا من الاضطرابات السلوكية والتشوهات الشخصية. أما الضبط فهو يعنى الاعتراف بالدافع وبوظيفته البنائية، ولكنه يعنى أيضا تنظيم خروج هذا الدوافع الى حيز التنفيذ في الوقت

المناسب وبالقدر المناسب. ولنضرب لذلك مثلا بالدافع الجنسي، فهو دافع له وظيفة بنائية ويساهم فى الحفاظ على بقاء النوع ويدفع الى الزواج والتكاثر، إذن فالانسان لا يجب أن يستقذره أو يكبته، وإنما يضبطه حتى يصل الى الظروف الملائمة لإخراجه بالصورة الشرعية عن طريق الزواج.

وبعد ضبط الدوافع الفسيولوجية وبعض الدوافع النفسية الأدنى (التملك والعدوان والمنافسة) يحتاج الإنسان الى تنمية الدوافع النفسية الأعلى مثل الانتماء والهوية ثم الدوافع الروحية (التدين والخلود والسمو) لكى يحدث التوازن على مستويات أرقي. وتنمية الدوافع الروحية على وجه الخصوص يسمح للإنسان بالنمو والارتقاء الى أعلى المستويات المتاحة للبشر.

الفصل الثالث عشر

مستويات الانفعال

(Affect)

مستويات الانفعال (Affect)

الانفعال هو خبرة ذاتية سارة أو غير سارة تؤثر فى السلوك إيجابًا أو سلبا حسب نوعية ودرجة الانفعال.

والانفعال طاقة هامة توجه سلوك الانسان (جنبا إلى جنب مع الدوافع).
ويجب هنا أن نفرق بين معانى بعض الكلمات المتداولة فى هذا المجال :

١- المشاعر (Feelings) :

وهى تفيد البعد التعرفى (Cognitive) للانفعال، أى تعنى إدراكنا لوضعنا الانفعالى الحالى : هل هو سار أو غير سار.

٢- العواطف (Emotions) :

وهى تفيد البعد التنفيذى للانفعال، أى ارتسام الانفعال على أعضاء وأجزاء البدن المختلفة (التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للانفعال).

٣- الإحساس (Sensation) :

وهذه الكلمة تستعمل للتعبير عن الاحساس الجسمى بالألم أو الحرارة أو البرودة، أو استقبال الصوت أو الصورة بواسطة أعضاء الحس والحواس. والاحساس خبرة موضوعية (Objective) ، بينما الانفعال خبرة ذاتية (Subjective) .

٤- المزاج (Mood) :

وهو انفعال يستمر لمدة طويلة نسبيا، ولذلك يميز شخصا عن آخر، فنقول: هذا الشخص ذو مزاج مرح وذاك ذو مزاج كئيب ... وهكذا.

والانفعالات يمكن تقسيمها الى مستويات حيث تبدأ بالانفعالات الأدنى (التى تسود فى مراحل الطفولة) ثم تنتهى الى الانفعالات الأرقى (التى تسود فى مراحل النضج والتكامل) :

(١) انفعالات المستوى الأدنى :

وهذه الانفعالات تميز بوجه خاص مراحل الطفولة الأولى، ولكن هذا لا يمنع من وجودها فى بعض الناس بدرجات متفاوتة فى كل مراحل العمر، أما إذا زادت بحيث كانت هى السائدة فى كل المراحل فإن ذلك يرجع إما لعدم النضج النفسى أو لمرض نفسى فى ذلك الشخص. ونورد أمثلة لتلك الانفعالات :

١/١/ التوتر (Tension) :

وهو إحساس غير سار يشعر به الطفل نتيجة زيادة التنبيهات المؤلمة الواردة.

وغالبية التنبيهات المؤلمة فى الطفل تكون ناتجة عن نقص إشباع الحاجات الفسيولوجية للجسم كالجوع أو العطش أو الاحساس بألم جسدى.

١/٢/ الخوف (Fear) :

وهو شعور غير سار ينتج عن الاحساس بوجود خطر ما يهدد الانسان ويدفعه للهرب.

١/٣/ الغيرة (Jealusy) :

شعور بالكره (وأحيانا بالرغبة فى العدوان) نحو شخص آخر نتيجة المنافسة حول مكاسب مادية أو معنوية.

١/٤/ الهياج (Rage) :

شعور بالغضب يصاحبه سلوك ثائر.

١/٥/ الرضى (Satisfaction) :

وهو فى هذه المرحلة يعنى شعور بالارتياح والانبساط نتيجة تلبية الحاجات الفسيولوجية أو التخلص من مشاعر غير مقبولة.

١/٦/ الشهية (Appetite) :

شعور بالرغبة فى شيء معين والتحرك مباشرة للحصول عليه من أقرب طريق.

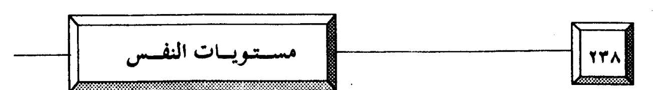
(٢) انفعالات المستوى الأوسط :

وهى انفعالات أرقى من سابقتها، لذلك تكون سائدة فى مراحل أكثر تقدمًا من العمر (المراهقة والشباب)، وهذا بالطبع لا يمنع من وجودها فى المراحل الأخرى (الرجولة والشيخوخة)، ولكن إذا زادت (وسادت) فى تلك المراحل (الأخيرة) فإنها تعتبر علامة عدم نضج أو مرض نفسي.

وهذه الانفعالات تنتج استجابة لمؤثرات ليست بالضرورة مادية (حسية كما فى الانفعالات الأولية (انفعالات المستوى الأدني)، وإنما فى الغالب تكون هذه المؤثرات عبارة عن صور ذهنية (Mental Images)، لذلك فهى تستلزم عمليات تصور وتخيل وتذكر وفيما يلى نورد بعض الأمثلة :

٢/١/ القلق (Anxiety) :

القلق خوف، ولكنه ليس خوفا من مؤثر موجود فى لحظة الانفعال، وإنما هو خوف مبنى على صورة ذهنية لخطر متوقع، ولذلك فهو يستمر فترة أطول.



٢/٢/ الغضب (Anger) :

وهو نوع من الهياج (Rage) ولكن الفرق أن الهياج يكون استجابة لمؤثر حاضر فى لحظة الانفعال، أما الغضب فهو استجابة لصورة ذهنية رمزية من الذاكرة، ولذلك يستمر فترة أطول من الهياج. والغضب قابل للسيطرة والتحكم فيه عكس الهياج الذى يخرج الى حيز السلوك لحظة انطلاقه مباشرة.

٣/٢/ التمنى (Wishing) :

وهناك علاقة شبه بين التمنى والشهية، ولكن الشهية تكون لأشياء ملموسة حاضرة وتهدف وتتحرك إلى الإشباع السريع، أما التمنى فيكون لصور ذهنية رمزية تأتى من الذاكرة الماضية أو يتخيلها الشخص فى المستقبل، ويشعر بالسعادة لاحتمال تحقق هذه الأماني.

٤/٢/ الحسد (Envey) :

هو تمنى ما فى أيدى الغير، فالحسود يتمنى انتقال النعمة من الآخرين إليه، وفى نفس الوقت يشعر بالضيق والحنق إذا وجد الآخرين يتفوقون عليه فى شيء أو يلكون شيئا لا يملكه.

٥/٢/ الأمان (Security) :

وهناك أيضا علاقة تشابه بينه وبين الرضى (Satisfaction) إلا أن الشعور بالأمان يكون مبنيا على صورة ذهنية مبنية على واقع قائم أو وقائع ستحدث فى المستقبل.

٦/٢/ الشك (Suspiscion) :

وهو توقع شيء ما بناءا على بعض الظواهر والأدلة الظنية.

٧/٢/ العدوان (Hostility) :

هو استجابة انفعالية عنيفة لأفكار أو تصورات ذهنية مبنية على مؤثرات ليست حاضرة بالضرورة فى لحظة الاستجابة.

٨/٢/ الكراهية (Hatredness) :

شعور بالرفض والنفور مع الرغبة فى تجنب الشيء المكروه أو الحاق الأذى به إن أمكن.

(٣) انفعالات المستوى الأرقى :

وهى انفعالات مركبة تتسم بالنضج والتروى وبعد النظر واتساع مجال

الادراك. وهى فى أغلبها رزينة ومستقرة وذات أمد طويل، وليست ردود أفعال مباشرة للمؤثرات الخارجية، بل هى خطة نفسية مبنية على أسس فكرية وسلوكية عميقة.

وفيما يلى نورد بعض الأمثلة :

٣/١/ الحب :

شعور سار بالاستحسان والتقبل والنزوع نحو القرب من المحبوب. وله مستويات عديدة منها حب الانسان لذاته وحبه للآخرين وحبه للمال والشهوات.ويبلغ الانسان أرقى مستويات الحب حين يحب الله ورسوله والمؤمنين، ويصاحب هذا محبة عامة لسائر مخلوقات الكون على اعتبار أنها من خلق الله.

٣/٢/ الفرح :

شعور بالغبطة والسرور لحصول الانسان على بغيته.

٣/٣/ الحزن :

شعور بالأسى والضيق نتيجة فقد شيء أو شخص عزيز.

٣/٤/ الندم :

شعور بالذنب والتقصير ولوم النفس على ما ارتكبته من أخطاء.

٣/٥/ الصبر :

ضبط لمشاعر السخط والألم، والالتزام بالحلم.

٣/٦/ الرضى النفسى :

شعور بالسكينة والطمأنينة الداخلية.

٣/٧/ الحياء :

شعور مركب من الخجل والخوف، حيث يخجل الانسان ويخشى الإتيان بأفعال مشينة.

٣/٨/ الرحمة :

شعور رقيق متدفق نحو الآخرين يدعو الى الرفق بهم ومساعدتهم.

٣/٩/ الحنان :

شعور مركب من الرحمة والرعاية والرفق بالآخرين وخاصة من هم فى حاجة الى ذلك كالأطفال والزوجة والضعفاء .. الخ.

٣/١٠/ الإيثار :

تفضيل الآخرين على الذات، وهو شعور مركب من الرحمة والحنان والحب،

وخلفه أيضا دافع معرفي بوجوب مساعدة الآخرين والتضحية من أجلهم بدافع ديني أو اجتماعي أو وطني.

١١/٣/ التسامح :

هو شعور عكس الانتقام، حيث يضبط الانسان الرغبة في الانتقام ويستبدل هذا الانتقام بعفو وصفح جميل.

* النضج الانفعالي :

يحدث النضج الانفعالي من خلال النقاط التالية :

١-تحلى الانسان بأكبر قدر من الانفعالات الارقى كلما تقدم في مراحل عمره، مع بقاء القدر الأقل من انفعالات المستوى الادنى والأوسط (بالقدر الذى يحفظ بقاءه ويحميه من الأخطار فقط).

٢-ضبط الانفعالات الأدنى بمقابلتها بالانفعالات الأرقي، فمثلا نجد في الشخص الناضج أن انفعال الكره يقابله ويوازيه انفعال الحب، وأن انفعال الخوف يقابله ويوازيه انفعال الرجاء، وأن انفعال العدوانية يقابله ويوازيه انفعال التسامح... وهكذا.

٣-التوسط في التعبير عن الانفعالات المختلفة، فلا مبالغة في أى منها أو تطرف.

٤-القدرة على ضبط الانفعال وتوجيهه حسب ما تقتضى المصلحة والتفكير العقلي المتزن.

٦-ملاءمة الانفعال كما وكيفيا مع الموقف.

الفصل الرابع عشر

التعددية في النفس البشرية

(رؤية تكاملية)

التعددية فى النفس البشرية

(رؤية تكاملية)

كان لاكتشاف المستقبلات العصبية Neuroreceptors والناقلات العصبية Neurotransmitters المؤثرة فيها أثر هائل فى فهم وظائف المخ، وقد تبع ذلك ما يشبه الثورة فى صناعة الأدوية النفسية التى تعيد توازن وظائف المخ من خلال التأثير فى مستوى الناقلات العصبية أو من خلال التأثير فى المستقبلات مباشرة، وقد أدى هذا إلى تحسن الكثير من الاضطرابات النفسية بدرجة ملحوظة، ولكن مع هذا بقيت هناك نسبة غير قليلة من الحالات تقاوم العلاج الكيميائى، ونسبة من المرضى يحتاجون لدوام العلاج وإذا انقطع عادت الأعراض مرة أخرى بما يعطى لذلك العلاج شبهة الإدمان عند العامة وبما يجعلهم يتوجسون من الاقتراب من الأدوية النفسية خشية الوقوع فى شراكها إلى الأبد، وهذا المعتقد ليس وقفًا على العامة فقط وإنما يحمله ويشيعه كثير من الصيادلة والأطباء فى التخصصات الأخرى مما يدفعهم إلى تحذير ذويهم وعملائهم من الأدوية النفسية حتى لا يدخلوا فى دائرة الإدمان أو دوامة العلاج التى لا تنتهى، إضافة إلى ذلك نجد أن الكثير من الأدوية النفسية ربما تحول دون استمتاع المريض بحياة طبيعية سعيدة، وإذا كان لنوعية الحياة التى يحياها المريض أهمية لدى طبيبه فإن الأخير غالبًا لا يقنع بالنتيجة التى يعطيها له الدواء ويشعر بأن نمط حياة المريض غالبًا ما يعيد إليه الأعراض بعد تخفيف جرعة الدواء أو وقفه، فيتطلع (إن كان صادقًا وصابرًا ومثابرًا) إلى تجاوز مستوى المستقبلات والناقلات العصبية إلى ما هو أعلى من ذلك كى يرتقى بنوعية حياة مريضه ويساعده على النمو والتطور إلى الأفضل وهنا يجد الطبيب نفسه قد دخل فى منطقة لم تؤهله لها دراسته الطبية التقليدية ويشعر بالتداخل مع مناطق أخرى يشغلها علماء النفس والفلاسفة وعلماء الدين وعلماء الروحانيات وأحيانًا المشعوذين والسحرة، وهنا ربما يعود خائفًا فيتشبث بالمستوى السابق الذى يعرفه فيستغرق فى تفصيلات المستقبلات والناقلات العصبية وما يؤثر فيها من مضادات ذهان، ومضادات هوس واكتئاب... إلخ، ولكنه يكتشف أن دخول المعركة بالدواء وحده طوال الوقت

لن يحقق أهدافه أو أهداف المريض وأن ثمة أشياء أخرى يجب عليه فعلها أو على الأقل وضعها فى الاعتبار على أمل التعامل معها بنفسه أو عن طريق بقية أفراد الفريق العلاجى فى الوقت المناسب.

إذن فلنحاول أن ننطلق من هذه النقطة الميكروسكوبية (المستقبلات المخية) إلى المستويات الأعلى فالأعلى لعلنا نستطيع الإحاطة بتعقيدات السلوك الإنسانى فى مستوياته التصاعدية بدءًا من ذلك المستوى الميكروسكوبى (أو تحت الميكروسكوبى) وانتهاءً بالمستوى الكونى التلسكوبى (أو فوق التلسكوبى)، وإذا كنا بدأنا من نقطة تبدو ثابتة نسبيًا على المستوى البيولوجى (من خلال التجارب المتعددة التى أجريت عليها) فإننا ننتقل منها إلى نقطة تبدو أيضًا ثابتة نسبيًا على المستوى النفسى (من خلال تواترها المبنى على المشاهدات الإكلينيكية) وهى تعدد الذوات فى النفس البشرية، فقد تحدث الكثيرون من علماء النفس عن ذوات متعددة أو كيانات متعددة داخل النفس البشرية فمثلاً تحدث فرويد عن الهو والأنا والأنا الأعلى، وتحدث عن اللاشعور وما تحت الشعور والشعور، ووصفت كارين هورنى الذات المثالية والذات الحقيقية والذات الواقعية، ووصف يونج اللاشعور الجمعى والقناع والظل والأنيما والأنيموس، وتحدث إريك برن عن ذات الطفل وذات البالغ وذات الوالد، وفى التراث الدينى نجد النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة والنفس المطمئنة، ونجد أيضًا العقل والقلب والروح، ومن هنا نخلص إلى أن هناك تواتر من مصادر عقلية (تؤيدها الشواهد الإكلينيكية) ومصادر نقلية (تؤيدها الأخبار الدينية) على فكرة تعدد الذوات أو المكونات بشكل ربما يقابل تعدد المستقبلات العصبية فى المستوى البيولوجى سالف الذكر (مستقبلات الدوبامين والأدرينالين والنورأدرينالين والسيروتونين ... إلخ).

وفى حالة الصحة النفسية يكون هناك تناسق وتكامل بين هذه الذوات المختلفة داخل الإطار النفسى العام (كما هو حادث بين المستقبلات العصبية المختلفة داخل المخ)، فإذا تضعضعت النفس تحت تأثير عوامل داخلية أو خارجية فإن بعض هذه الذوات (أو الكيانات أو المكونات) ربما تعمل منفردة فيظهر الانشقاق فى الوظائف النفسية، أو تطمس فيظهر عدم التوازن، أو تبدأ فى

العمل السوى فى اتجاه عكسى فتضطرب المنظومة النفسية :

وإذا جاز لنا ان نسمى المستقبلات العصبية داخل المخ بالمستقبلات الداخلية وهى التى تتأثر بالناقلات العصبية (كالدوبامين والأدرينالين والنوردينالين واليسروتونين ... إلخ)، فإننا ربما نحتاج إلى افتراض وجود مستقبلات خارجية تستقبل مؤثرات قادمة من البشر أو من الجن أو من الملائكة أو من الملكوت فنسميها بالترتيب بشرية وجنية (نسبة إلى الجن) وملائكية وملكوتية وربما نجد سهولة فى تقبل مستوى المستقبلات البشرية التى تتلقى التأثير من الآخرين بخيرهم وشرهم فيحدث نتيجة هذا التأثر تفاعلات نجهل كنهها فى الوقت الحالى، ولكننا نجد صداها على المستوى الأول فى صورة تغيرات فى نشاط الناقلات العصبية ونشاط المستقبلات العصبية فليس من شك أن الكلمة الطيبة تحدث تغييرًا كيميائيًا إيجابيًا داخل المخ، ولذلك كانت الكلمة الطيبة صدقة، وعلى العكس تحدث الكلمة الخبيثة تأثيرًا سلبيًا يمكن رصده بالقياسات الفسيولوجية الأحدث والأدق مثل الـ PET والـ SPECT والمؤثرات البشرية لا تتوقف عند التفاعل المباشر مع أشخاص وإنما تمتد إلى التفاعل مع كل وسائل التأثير كالراديو والتليفزيون والصحيفة والكتاب والفيديو والكومبيوتر والإنترنت، وما يستجد من وسائل التأثير البشرية.

وإذا كان قبول هذا المستوى من التأثير البشرى ممكنًا فإننا ربما نجد بعض الصعوبة فى إقناع الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الطبية أو النفسية بالمستويين التاليين للتأثير وهما مستوى تأثير الجن ومستوى تأثير الملائكة وربما لا نملك فى الوقت الحالى أدلة عقلية مقبولة لديهم ومتسقة مع النموذج العلمى الحالى، لذلك سنعتمد فى إثبات هذين المستويين وما تلاهما على الأدلة النقلية من التراث الدينى التى تواترت فى كل الأديان وعلى مر العصور بشكل يجعل رفضها وكأنه دعوه للتشكيك وإعادة النظر فى كل البديهيات، فقد ذكر لفظ القرين فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (سورة ق ٢٧).

وفى السنة ورد حديث للرسول صلى ا لله عليه وسلم يقول فيه "ما من أحد إلا وله شيطان" (رواه مسلم).

وفي حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ..." (أخرجه النسائي والترمذي).

وهذا الحديث الأخير يؤكد بقوة ووضوح وجود هذين المستويين من التأثير الغيبي على الإنسان من الملائكة والشياطين.

وإذا ظل بعض المشتغلين بالعلوم الطبية والنفسية على دهشتهم واستنكارهم لخلطنا المنهج العلمي بالمنهج الديني، وقبول أفكار غيبية لا يقوم عليها دليل مقبول من المنظور العلمي المتفق عليه، فإننا نعتذر لهم مرحليًا ولكننا نسألهم : ولماذا تقبلون بسهولة فكرة تعدد الذوات التي ذكرها علماء النفس (بدليل وجودها في المراجع الطبية والنفسية)، مع أنها ذوات افتراضية غير منظورة، ولا تقبلون فكرة القرين من الجن أو الملائكة وقد قام عليها أدلة نقلية، ويمكن أن يقوم عليها أيضًا أدلة عقلية خاصة إذا درسنا بعمق حالات الانشقاق (والتي لا نعرف كيف تحدث حتى الآن) وما يظهر فيها من كيانات تبرز الوجه الآخر الخفي للإنسان فمثلاً ترى سيدة شديدة الاحتشام والالتزام والتحفظ تقوم بأعمال مخلة بالآداب العامة وخارجة تمامًا عن الخط العام الظاهر لشخصيتها، فإذا كنا سنقبل فكرة أن هذا هو جزء من اللاشعور لديهم فلماذا لا نقبل فكرة أن هذا الجزء من اللاشعور قد انشق متفاعلاً مع قرين من الجن أو مع قرين من الإنس ... إلخ، وفي حالة قدرتنا على قبول هذا الافتراض ربما يصبح لدينا تصورًا أكثر تكاملاً لحالات الاضطراب الهستيري حيث تضعف عملية الترابط والتكامل في الشخصية تحت تأثير مؤثرات داخلية أو خارجية فتتاح الفرصة لأحد الكيانات النفسية بدعم من قرناء من البشر أو الجن أو الملائكة فتظهر حالات الانشقاق كنتاج لهذا النشاط التفاعلي المنشق على المنظومة الأساسية للشخصية والذي ربما يضاد هذه المنظومة أو يوازيها أو يكررها بشكل نمطي مغلق، وربما نستطيع التأكيد على هذه الفكرة من خلال ما نشاهده جميعًا في هذه الحالات الهستيرية من إمكانية إحداث الانشقاق بالإيحاء بواسطة المعالج النفسي أو المعالج الشعبي فكأنما يقوم المعالج بالتفاعل مع أحد الكيانات أو الذوات النفسية ويأخذها بعيدًا عن السياق العام للشخصية، وإذا كان هذا قائمًا

ومشهودًا على مستوى البشر، فما الذى يمنع من حدوث ذلك الانشقاق بتأثير من قوى غيبية أخرى كالجن، وبالتأكيد فلسنا نهدف هنا إلى تغييب الوعى وإعطاء شرعية للمسارات العلاجية الشعبية التى تعلق كل شىء على تأثير الجن، ولسنا نقصد أن يكون هذا المستوى الغيبى من التأثير كهفًا مظلمًا نتوه فيه فلا نرى العلاقات السببية المبنية على السنن الكونية فى حياتنا اليومية، وإنما نقصد الرؤية التكاملية المتوازنة لكل القوى والعوالم المؤثرة فى سلوك الإنسان المنظور منها وغير المنظور فبالتأكيد لا يعيش الإنسان وحده فى هذا الكون، وإيماننا بهذا المستوى من التأثير لا يدفعنا إلى تعظيم الجن ولا يضعنا تحت رحمتهم أو رحمة من يقومون بتحضيرهم أو صرفهم، فكل هذا من الممارسات الضارة، وإنما يجعلنا نكتفى بما ورد فى صحيح الدين من تعاليم تنظيم العلاقة بين الإنسان وبين القوى الغيبية على أساس أن العبودية للإله الواحد، وهذا المفهوم يعتبر ركنًا أساسيًا فى الصحة النفسية حيث تتوحد مرجعية الإنسان وتوجيهاته وسط هذا الكم الهائل من القوى المؤثرة فيه والمتأثرة به.

وهنا نصل إلى المستوى الأعلى من التأثير وهو المستوى الملكوتى، وتأثير هذا المستوى له صورتين : إحداهما مشهورة وهى ممثلة فى الشرائع المنظمة لحياة الإنسان طبقًا لتعاليم السماء، وثانيهما غيبية وهى ممثلة فى الحالة الإيمانية التى يعيشها الإنسان وما ينتج عنها من تواصل بينه وبين ا لله بحيث تسرى فى هذه القناة أشياء خارج نطاق الوصف باللغات السائدة ولكنها محسوسة للمؤمنين بها ولها نتاج فى سلوكياتهم الظاهرة يمكن رصده بوسائل متعددة.

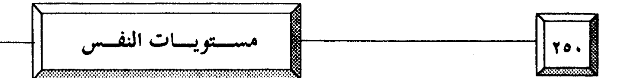
وفى النهاية نخلص إلى تعددية المستقبلات (البيولوجية والنفسية) وتعددية المؤثرات (البشرية والجنية والملائكية والملكوتية)، ومن المنطقى أن هذه التعددية تعتبر ميزة من حيث أنها تعطى تنوعًا لا نهائيًا وإبداعًا واسع الأفق فى السلوك البشرى فى حالة كون الإنسان لا يغلق أو يعتم أى مستوى من مستويات الاستقبال أو التأثير، ولكن على الجانب الآخر يلزم هذا التعدد إدارة مركزية تنظم العمل وتسعى نحو التنسيق والتوازن والتكامل، ويلزم هذه الإدارة المركزية مرجعية موحدة تربط هذا الحشد من القوى والمؤثرات المتجاذبة والمتنافرة، ولا ندعى فى هذه المرحلة أن أحدًا يعرف أين تكمن وحدة المعالجة

المركزية فى الإنسان، أهى فى المخ ؟ ... وإذا كانت فى المخ ففى أى جـزء فيـه؟ أم هى فى مكان آخر لا نعلمه ؟ وأمام هذا العجز العقلى فى معرفة كنه ومكـان مركز القيادة للسـلوك البشـرى، ربما نجـد من المنطقى استعارة الأدلـة النقليـة (الدينية غالبًا والفلسفية أحيانًا) والتى تقول بأن القلب هو مركز القيادة نظرًا لما يحويه من معارف ومعتقدات ومشاعر ونظرًا لقدراته التواصليـة مـع عـالم الغيـب وعالم الشهادة بطرق نعرف بعضها ونجهل أكثرها (لا نقصد هنـا تحديـدًا القلـب العضوى المعروف) وليست هذه محاولة لملء فجوة معرفية بأخبار نقلية ربما تعيـق النشاط العقلى والجهد البحثى، ولكنها يمكـن أن تدخـل المجـال العلمـى كفـرض يسهل البحث عن خصائص وكنه ومكان مركز القيادة فى النفس البشرية.

وربما يسأل سـائل : وهـل لهـذا الفـرض (تعدديـة المسـتقبلات وتعدديـة مستويات التأثير) انعكاس على العملية العلاجية كممارسة يومية مـع المرضـى أم أنه مجرد تأملات فلسفية ؟! .. والإجابة هى أن هذا الفرض التعددى يغـير كثـيرًا فى فلسفة العملية العلاجية من خلال النقاط التالية :

١ – يتيح للمعالج رؤية شاملة للنفس بكل مستوياتها وتفاعلاتها.

٢ – يحسن العلاقة بين المعالج والمريض حيث يقرب وجهات نظرهما حول نقـاط كانت موضع خلاف (أو موضع حرج) حين كـان المريـض يعتقـد فـى قـوى غيبية تؤثر فى سلوكه فى حين يجد المعالج نفسه رافضًا لهذه القـوى حيـث لا مكان لها فى منظومته العلمية فيجد نفسه متصادمًا مع معتقدات مرضاه (بـل ومعتقـدات مجتمعـه)، أمـا الآن ومـع هـذا الفـرض يصبـح لكلمـة وسوسـة الشيطان معنى ويصبـح لتـأييد الملائكـة معنـى ويصبـح لتوفيـق الله للإنسـان معنى، وتنتظم كل هذه المعانى فى أماكنها فى المنظومة العلمية النفسـية دون حاجة لتغييـب الوعـى أو إنكـار مستوى التأثير البشـرى الهائل فـى حياتنـا اليومية أو تأثير اضطرابات النـاقلات العصبيـة فـى المخ، وربمـا حـين يحـدث التصالح بين المريض النفسى والطبيب النفسى حول هـذه المسـتويات الغيبيـة للتأثير لا يجـد المريـض نفسـه مضطـرًا للذهـاب إلى المعـالجين الشـعبيين أو المشعوذين والدجالين الذين كانوا يدخلون إليـه مـن خـلال هـذه الثغـرة فـى

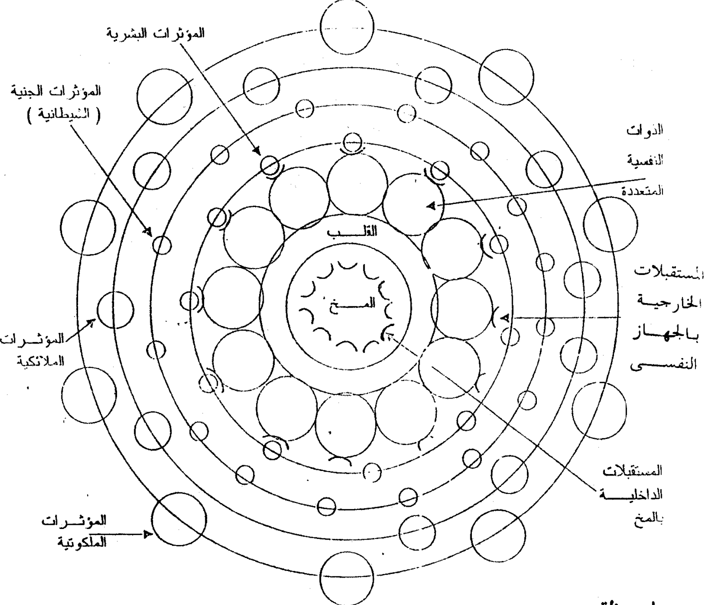


الطب النفسى والعلوم النفسية، تلك الثغرة التى كانت تهمل أشياء هامة جدًا فى معتقدات المريض (كالشياطين والملائكة والإله) وفى نفس الوقت يتحرج المعالج من الدخول فى هذه المناطق أو استعمال مفرداتها فى العملية التشخيصية أو العلاجية ربما لعدم ثبوت تأثيرها لديه بالوسائل الاستدلالية العلمية، أو لخوفه من هروب المريض فى غياهب المؤثرات الغيبية بدلاً من مواجهة مشاكله الآنية الواقعية، وعلى أى حال كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك هو نجاح وانتشار العلاج الشعبى الذى يتخذ الدين ستارًا له، والذى كان ينجح فى دغدغة المشاعر الدينية لدى المريض وذويه، ومداهنة معتقداتهم الراسخة فى الوقت الذى يستنكر فيه المعالج النفسى تلك المعتقدات أو يهرب منها أو يؤجلها.

٣- وتبنى هذا الفرض التعددى يؤدى إلى تبنى نمط من العلاج متعدد المستويات بالضرورة، بدءًا من العلاج العقاقيرى (المؤثر فى المستقبلات المخية الداخلية) مرورًا بالعلاج النفسى ثم العلاج الاجتماعى وانتهاءً بالعلاج الدينى أو الروحى فى دوائر متصاعدة ولا ينزعج الطبيب المعالج من تعدد هذه المستويات فلن يقوم بها وحده وإنما يساعده فريق متعدد التخصصات (وهذا قائم شكلاً فى كثير من المستشفيات ولكنه غير مستغل فى الواقع الحالى نظرًا للرؤية الاختزالية للمرض النفسى والصحة النفسية ويتكون من الأخصائى النفسى والأخصائى الاجتماعى والمرشد الدينى.

٤- وإذا تبينا هذا الموقف التكاملى فى الرؤية التشخيصية وفى العملية العلاجية فإن المريض سيشعر أننا نحتويه بكليته وجماع نفسه فتلتئم أشلاؤه وتتكامل كياناته ويصبح أكثر استعدادًا للشفاء والنمو والانسجام مع عالم الشهادة وعالم الشهود.

خريطة المستقبلات (الداخلية والخارجية)
ومستويات التأثير في النفس البشرية



ملحوظة :

١- لا تحتل المؤثرات أماكن ثابتة على المستويات المختلفة والمبينة في الخريطة فهي ليست استاتيكية، بل ديناميكية يتغير مكانها من وقت لآخر حسب نشاط المؤثر في لحظة بعينها، فينتقل من مستوى لمستوى أدنى أو أعلى حسب طاقة التأثير التي يحملها.

٢- لا نقصد بالقلب هنا تحديدًا القلب العضوي المعروف الذي يضخ الدم في جميع أجزاء الجسم ولكننا نقصد القلب الوارد في التراث الديني والذي يحوي في جنباته المعارف والمعتقدات والمشاعر والقدرة على الرصد والتوجيه والقدرة على التواصل، ولا ندري بالضبط أين مكانه من الجسم حتى الآن (وهذا لا ينفي أن يكون ثمة علاقة له بالقلب العضوي المعروف).

خاتمة

أخى القارئ الكريم لقد كانت هذه محاولة متواضعة لرؤية النفس ومستوياتها من منظور إسلامى شامل، فإذا وجدت فى هذه المحاولة صوابا فادعو لى بخير، وإن وجدت خطأ فادعو لى بالعفو والمغفرة، ولا تنسى أخى الكريم أن كل ابن آدم خطاء، وأن للمجتهد أجران إن أصاب، وله أجر إن خطأ.

وأخيرًا نسأل ا لله أن يرزقنا الاخلاص فى القول والعمل وأن يجعلنا لبنة فى عمارة الأرض بالخير والمحبة والسلام.

هوامش الكتاب

هوامش المقدمة والفصل الأول

(١) محمد قطب، فى النفس والمجتمع، ط٢ مكتبة وهبة، ١٩٦٢،ص ص ٦٢-٦٣.
(٢) محمد عثمان نجاتى (دكتور)، القرآن وعلم النفس، ط٣ دار الشروق ١٩٨٧، ص ٢١٩.
(٣) محمد عثمان نجاتى (دكتور)، القرآن وعلم النفس، ط٣ دار الشروق، ١٩٨٧، ص ص ٢١-٢٢.
(٤) محمد عثمان نجاتى، مرجع سابق، ص ٢٢.
(٥) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة فؤاد كامل، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٧٧، ص ١١.

هوامش الفصل الثانى

(١) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، ط٢، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٦٩٤.
(٢) رواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب عن يونس بن زيد الأيلى عن الأزهرى.
(٣) تفسير ابن كثير، ج٣، دار المعرفة بيروت، ص ٤٤٢.
(٤) تفسير ابن كثير، ج٣، ص ١٦٠.
(٥) محمد قطب، دراسات فى علم النفس الإنسانية، ط ٦ دار الشروق ١٩٨٣، ص ص ٢١١ - ٢١٦.
(٦) محمد قطب، مرجع سابق، ص ٢١٧.
(٧) محمد قطب، مرجع سابق، ص ٢١٧.
(٨) محمد عثمان نجاتى، القرآن وعلم النفس، ط٣ دار الشروق، ١٩٨٧، ص ص ٤٧-٤٨.
(٩) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ج٢ دار الشروق ١٩٨٣، ص ٢٩.
(١٠) عابد توفيق هاشم، التصور الإسلامى للإنسان والحياة، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٢، ص ص ٢٧ - ٢٨.
(١١) عابد توفيق هاشم، مرجع سابق، ص ص ٢٨-٢٩.

(١٢) محمد قطب، مرجع سابق، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(١٣) ريتشارد س. لازاروس، الشخصية ١٩٧٦، ترجمة د/ سيد محمد غنيم، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ٧٨.

هوامش الفصل الثالث

(١) على زيفور، مذاهب علم النفس، دار الأندلس ١٩٨٤، ط٥، السعودية.

(٢) محمد بن زكريا أبو بكر الرازى، الطب الروحانى، حققه وعلق عليه سليمان البواب، منشورات دار الحكمة، دمشق، بيروت، ص ٥٤.

(٣) على زيفور، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٤) محمد منير منصور، الموت والمغامرة الروحية من الأسطورة إلى علم الروح الحديث، ١٩٨٧، دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق.

(٥) محمد منير منصور، مرجع سابق، ص

(٦) على زيفور، مرجع سابق، ص

(7) Kraupl, F. 1979, pscho, pathology its cause and Eymptons, Univin Brothers Limited, Great Britain.

(٨) تشارلز فزست، الدماغ والفكر Brain and thinking، ترجمة د/ محمود سيد رصاص.

(9) Psychopathology, its causes and symptoms, F. Hraupl Taylor (1979), Union Brothers Limited, Great Britain page 11.

(10) The previous reference, p. 19.

(١١) الكسيس كارنيل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد (١٩٨٦)، مكتبة المعارف، بيروت، ص ١٦٠.

(12) The previous reference, p. 20.

(١٣) عبد الرحمن عدس، محيى الدين توق (دكتور)، علم النفس العام، مكتبة الأقصى، ط٢ عمان، الأردن ص ٢٦٣.

(١٤) راتب عبد الوهاب السمان (دكتور) (١٩٨٩) النظرية الروحية، بحث مقدم لهيئة الإعجاز العلمي برابطه العالم الإسلامى، ص ٢٩.

(١٥) راتب عبد الوهاب السمان (دكتور) ١٩٨٩، ص ص ٣٢٢ - ٣٣٠.

(16) Bunge, M, (1980), From Nenrone to Behavior and Mentation: An Expercise in Level manship, Information Processing n the Nervous System, Ed. Harold M. and William D. Raven Press, New York.

(١٧) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد (١٩٨٦)، مكتبة المعارف، بيروت صفحة ٥٣، ٥٤.

(18) Eccles, J. The Nenrophysiological Basis of Mind: The Principles of Neurophysiology, Oxford, at The Clarendon, Press.
(19) Pribram, K., H. (1980), Mind., Brain and Consciousness : The Organization, Competence and Conduct, The Psychology of Consciousness, Davidson Plenum Press, New York.
(٢٠) محمد قطب، مرجع سابق، ص ص ٧١ - ٧٢.
(٢٢) محمد قطب، مرجع سابق، ص ص ٤ - ٤٢.

هوامش الفصل الرابع

(١) إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر وآخرون (دكاترة)، المعجم الوسيط، ج٢، ط٢، القاهرة، ص ٩٤٠.
(٢) الإمام الغزالى (المتوفى ٥٠٥هـ) إحياء علوم الدين، ج٣، دار القلم، بيروت، ص ٥.
(٣) قوة الغضب والشهوة، هى تلك التى أسماها فرويد بعد ذلك غريزة العدوان، وغريزة الجنس وهكذا يكون الغزالى مد سبق فرويد بحوالى ٩٠٠ سنة فى الحديث عن تلك الغرائز (المؤلف).
(٤) آخرجه البيهقى من كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.
(٥) عطية محمود الدمياطى، (١٩٩٠)، مجل النفس المطمئنة، السنة السادسة، العدد ٢٤، أكتوبر ١٩٩٠.
(٦) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، ١٩٨٦م، مكتبة المعارف، بيروت ص ١١٦.
(٧) ابن القيم الجوزرية، الطب النبوى، مؤسسة الرسالة، ص ص ١٤٢ - ١٤٥.
(٨) ابن القيم الجوزية، الروح، تحقيق ودراسة د. السيد الجميلى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط٢، ص ص ٣٢٤ - ٣٣٠.

هوامش الفصل الخامس

(١) ألكسيس كاريل (دكتور)، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، ١٩٨٦م، مكتبة المعارف، بيروت، ص ٤٦، (حائز على جائزة نوبل فى الطب).
(٢) ابن القيم الجوزية، الروح، المسألة الحادية والعشرون، ص ص ٣٣٠ - ٣٣٨.
(٣) ابن القيم الجوزية، مرجع سابق، ص ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٤) ألكسيس كاريل، مرجع سابق، ص ٥٧.
(٥) ألكسيس كاريل، مرجع سابق، ص ١٤٠.
(٦) يحيى الرخاوى (دكتور) ١٩٧٢، مستويات الصحة النفسية عن طريق التطور الفردى، خبرة طبيب نفسى، دار الغد للثقافة والنشر، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٩.
(٧) ابن القيم الجوزية، الروح، المسألة الثالثة والعشرون، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

هوامش الفصل السادس

(١) ألكسيس كاريل، مرجع سابق، ص
(٢) ألكسيس كاريل، مرجع سابق، ص

هوامش الفصل السابع

(١) ديوان الأعشى، ميمون بن قيس، دار النهضة العربية، بيروت ١٩ ٧٢، ص ٢٥١.
(٢) محمد على الجوزو، مفهوم العقل والقلب فى القرآن والسنة، دار العلم للملايين، ص ٢٥.
(٣) شعر الدعوة الإسلامية لحامد، ص ٧٨.
(٤) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط٢، ج٢، ص ٦١٦.
(٥) معجم ابن منظور، معجم لسان العرب، ص ص ٤٥٨ - ٤٥٩.
(٦) الفيروزبادى، القاموس المحيط، ج٤، ص ١٨.
(٧) الأب لويس معلوف اليسوعى، معجم المنجد، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٨، ص ص ٢٩ - ٣٠.
(٨) محمد على الجوزو، مفهوم العقل والقلب فى القرآن والسنة، دار العلم للملايين، ص ص ٥٥، ٥٦.
(٩) الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، دار القلم، بيروت ص ٥.
(١٠) الغزالى، مرجع سابق، ج١، ص ٧٩.
(١١) الغزالى، إحياء علوم الدين، ج١، ص ٨١.
(١٢) كتاب العقل، ص ١٧، مفهوم العقل والقلب فى القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ١٥٢.
(١٣) العقد الفريد، ج٢، ص ٢٤١.

(١٤) أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، دار الشعب، القاهرة، ص ٣١٦.

(١٥) أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى، مرجع سابق، ص ٣١٦.

(١٦) الحارث بن أسد المحاسبى (٢٤٣هـ) شرف العقل وماهيته، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٧ - ٢٠.

(١٧) الحارث بن أسد المحاسبى، مرجع سابق، ص ٢٠.

(١٨) الحارث بن أسد المحاسبى، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٥.

(١٩) الحارث بن أسد المحاسبى، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢٠) الحارث بن أسد المحاسبى، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٢١) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٢٢) محمد على الجوزو، مفهوم العقل والقلب فى القرآن والسنة، دار العلم للملايين، بيروت، ص ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢٣) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، ص ص ١٦٠- ١٦١.

(٢٤) ألكسيس كاريل، مرجع سابق، ص ١٦٢.

(٢٥) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ج٢، ط ٥، دار الشروق ١٩٨٣، ص ٢٩٥.

(٢٦) محمد قطب، مرجع سابق، ص ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢٧) محمد قطب، مرجع سابق، ص ٧٧.

هوامش الفصل الثامن

(١) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، دار القلم- بيروت، ص ٤.

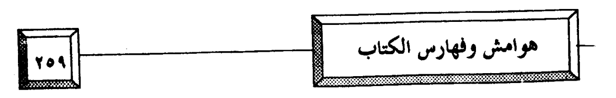
(٢) الترغيب والترهيب، باب البر، سنن الدارمى كتاب البيوع ٢ / ٢٤٥.

(٣) ابن ماجة البخارى ١/ ٢٠ - ٢/ ١٣١٨.

(٤) الترمذى، بيان الفرق، ص ٣٦.

(٥) محمد على الجوزو، العقل والقلب فى القرآن والسنة، دار العلم للملايين، ١٩٨٣، ص

(٦) راتب عبد الوهاب السجان، النظرية الروحية، بحث مقدم لهيئة الإعجاز العلمى للقرآن، رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة، ١٩٨٩، ص ١٥٩.



(7) davidson. J. The psychology of Sexual Experience, The psychology of Consciousness, Ed., ley Julian, M. Davidson and Richard, J. Davidson, plenun press, N.Y. p. 313.

(٨) راتب عبد الوهاب السمان (دكتور)، النظرية الروحية، ص ٢٥٨.

(٩) راتب عبد الوهاب السمان (دكتور)، النظرية الروحية، ص ٢٥٩.

(10) Plozza, B. And Poldinger, W., Psychosociatic Disorders in General Practice, Ed., Roch, Basle, p. 58.

(١١) راتب عبد الوهاب السمان (دكتور)، مرجع سابق، ص ٢٦٠، نقلاً عن

Medicine, Digest, vol 14, N.5, May 1983, p. 58.

(١٢) ابن القيم الجوزية، توفى سنة ٧٥١هـ، طب القلوب، جمع وتبويب د. عجيل جاسم النشمى، ط٢ ١٩٩٠، دار الدعوة للنشر والتوزيع، ص ٧٠.

(١٣) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٣.

(١٤) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٦.

(١٥) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٧.

(١٦) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١١.

(١٧) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١١.

(١٨) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١٢.

(١٩) ريتشارد، س لازاروس، الشخصية، ترجمة سيد محمد غنيم، دار الشروق، ١٩٨٩م، ص ص ٩٨ - ٩٩.

(٢٠) ريتشارد، س لازاروس، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢١) ريتشارد، س لازاروس، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٢٢) ريتشارد، س لازاروس، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٢٣) ريتشارد، س لازاروس، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٢٤) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامى الرياضى، ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، مطبعة سفير، الرياض.

(٢٥) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢٦) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٢٧) على زيفور (دكتور)، مذاهب علم النفس، دار الأندلس، ط٥، ١٩٨٤م، ص ص ٥أ، ٢٩٩.

(٢٨) على زيفور (دكتور)، مذاهب علم النفس، ص ٢٩٩.

(٢٩) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١٢.

هوامش الفصل التاسع

(١) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ج١، ط٧ دار الشروق، ص ص ٣٨ - ٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٣ دار المعرفة بيروت، ص ٦٥.

(٣) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٤.

(٤) راتب السمان، النظرية الروحية، مرجع سابق، ص ١.

(٥) رسالة العقل والروح، مجموعة الرسائل المنيرية، ٢/٩٣.

(٦) رسالة العقل والروح، مجموعة الرسائل المنيرية، ص

(٧) محمد بن محمد بن أبى العز الحنفى، شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامى، بيروت، ط٤، ١٣٩١هـ، ص ٤٤٤.

(٨) رسالة العقل والروح، ٢ / ٣٧.

(٩) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، ص ٥٢.

(١٠) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ص ص ٥٣ - ٥٤.

(١١) راتب عبد الوهاب السمان (دكتور)، النظرية الروحية، مرجع سابق، ص ص ١٣٠-١٣١.

(١٢) راتب عبد الوهاب، مرجع سابق، ص ٣٤.

(١٣) راتب عبد الوهاب، مرجع سابق، ص ٣٥.

(١٤) راتب عبد الوهاب، مرجع سابق، ص ٣٩.

(١٥) ابن تيمية، مجموع مناوى شيخ الإسلام ابن تيمية، رسالة العقل والروح، انظر مجموعة الرسائل المنيرية ٢ / ٢١.

(١٦) عمر سليمان الأشقر، القيامة الصغرى، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٦، ص ٨٨.

(١٧) مجموعة الرسائل المنيرية، رسالة العقل والروح، ٢ / ٢١.

(١٨) مجموعة الرسائل المنيرية، رسالة العقل والروح، ٢ / ٢١.

(١٩) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣ / ٣١.

(٢٠) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣ / ٣٢.

(٢١) عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢٢) هذا تعريف ابن القيم فى كتابه: الروح، وقد نقله عنه السفارين فى لوامع الأنوار البهية: ٢ / ٢٩، وعزاه إليه، وذكره بنصه شارع الطحاوية من غير

عزو، انظر شرح الطحاوية، ص ٤٣٣، وقد قال ابن القيم بعد سياقه لهذا التعريف: «وهذا القول هو الصواب في المسألة .. وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة» (عن كتاب القيامة الصغرى - مرجع سابق، ص ٩٠).

(٢٣) رسالة العقل والروح، مجموعة الرسائل المنيرية (٢ / ٤٧).

(٢٤) راتب عبد الوهاب السمان، مرجع سابق، ص ٢٨.

(25) John, E., Multipotentiality A, Statistical Theory of Brain Function, Evidence and Inplication, p. 118.

(٢٦) راتب السمان، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢٧) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤ / ٢٧٩.

(٢٨) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٤٦.

(٢٩) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥ / ٣٦٤.

(٣٠) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥ / ٣٦٤.

(٣١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ص ١٢٦، ١٢٧.

(٣٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٠٤.

(٣٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٢، ص ٥٨٢.

(٣٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج٣، ص ٦٥.

(٣٥) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٤، ص ٨٠.

(٣٦) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٤، ص ٣٥٢.

(٣٧) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٤، ص ٤٤٦.

(٣٨) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٤، ص ٤٩٦.

(٣٩) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٤، ص ٤٢٠.

هوامش الفصل العاشر

(١) ريتشارد، لازاروس، الشخصية، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢) ريتشارد، لازاروس، الشخصية، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٣) ريتشارد، لازاروس، الشخصية، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٤) راتب عبد الوهاب السمان، النظرية الروحية، مرجع سابق، ص ص ١٧ - ١٨.

(٥) راتب عبد الوهاب السمان، النظرية الروحية، مرجع سابق، ص ١٨.

(6) Sherif, M., Astudy of Some Sexial Factors in perception, Archives, of psychology, No. 87.

(٧) ريتشارد، لازاروس، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(8) Asch, S.E. (1952), Effects of group pressure up on the modification and distoration of judgements, In Readings in social Psychology, Ed., G.E. Swanson, New York, pp. 2 - 11.

(عن كتاب الشخصية، مرجع سابق، ص ص ١٧٨ - ١٨٠).

(٩) ألكسيس، كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(١٠) تفسير ابن كثير، ج١، ص ٤٨.

(١١) تفسير ابن كثير، ج١، ص ٤٩.

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) محمد عثمان نجاتي (دكتور)، القرآن وعلم النفس، ط٣، دار الشروق، ص ٢٥.

(2) Lindzey, G., Hall, C. S., and Thompson, R.F., psychology N.Y. Inc, 1976, p. 36.

(٣) محمد عثمان نجاتي (دكتور)، مرجع سابق، ص ٥٥.

فهرس الكتاب

رقم الصفحة

رقم الصفحة